الأزمان المظلمة

أول رواية عربية

من الخيال العلمي

تصوّر لقرن بدأت ملامحه المرعبة في الحادي عشر من الشهر التاسع

الدكتور

طالب عمران

دار الفكر

آفاق معرفة متجددة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزمان المظلمة

أول رواية عربية من الخيال العلمي

تصور لقرن بدأت ملامحه المرعبة في الحادي عشر من الشهر التاسع

الأزمان المظلمة: أول رواية عربية من الخيال العلمي...
/طالب عمران.- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣ .- ٤٣٢ص؛
٢٥سم.
١- ٨١٣,٠٨٨ ع م ر أ ٢ -٨١٣,٠٠٩٥٦١ ع م ر أ
٣- العنوان ٤-عمران
مكتبة الأسد

الأزمان المظلمة

أول رواية عربية من الخيال العلمي

تصور لقرن بدأت ملامحه المرعبة في الحادي عشر من الشهر التاسع

الدكتور طالب عمران

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

الرقم الاصطلاحي : ١٦٦٠,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-119-2
الرقم الموضوعي: ٨٥٠
الموضوع: القصة والرواية
العنوان: الأزمان المظلمة
التأليف: د. طالب عمران
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٤٣٢
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

دار الفكر
٢٠٠٣
الطفولة
أمانة ومستقبل

الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤٢٣هـ

كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣م

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول

البناؤون الأحرار

(١)

بعد عشر سنوات من الغربة، عاد قاسم إلى الوطن، وكله أمل وتفاؤل بالمستقبل، متهيئاً ليوظف إمكاناته العلميّة في خدمة بلده، وهو يحمل أعلى الشهادات العلمية، بعد أن قدم إنجازات كبيرة في الجامعات ومراكز البحوث في الدولة المتطورة التي كان يعمل فيها...

حين حطت الطائرة في المطار، ودخل في النفق الملتوي ليرى نفسه مع بقية الركاب يسيرون في بهو واسع مندفعين للوصول إلى مكاتب الأمن العام، ثم إلى صالة استلام الأمتعة، ثم إلى مصاطب رجال الجمارك، شعر أن الناس لم يتغيروا كثيراً، فما زال الموظفون في أعمالهم المعتادة، ومطالبهم وتعقيداتهم... رغم أننا ندخل في ألفية جديدة وقرن جديد... ولكن هذا لم يمنعه من وضع الأعذار لهم، وقد صمَّمَ على الصمود تجاه كل التحديات، من أجل الاندفاع نحو عطاء غير منقوص للبلد التي عاش فيها وكوّن فيها شخصيته وذكرياته وعشقه لأرضها وناسها...

خرج يدفع العربة المحمّلة بالحقائب، يبحث بين وجوه المستقبلين عن وجه أليف له، فلم يعثر.. ربما لم تصل إليهم البرقية التي أرسلها... أو ربما حدث أمر عطلهم عن استقباله... أو ربما لم يفكروا باستقباله والوقت فجر، وهم يغطون في نوم عميق...

لم يكترث كثيراً لعدم رؤية أحد من أهله وأقربائه، وبينما هو يدفع العربة في اتجاه موقف لسيارات الأجرة، اندفع إليه شاب نحيل البنية طويل القامة...

- الدكتور قاسم؟ ما هذه المصادفة الغريبة؟.. لم تعرفني بالتأكيد أنا أحد طلابك في كلية الهندسة المدنيّة... اسمي عزّام، جميع طلابك ومحبيك ينتظرون عودتك... وحدك؟ ألم يأتِ أحد لاستقبالك؟..

قال مرتبكاً:

- ربما حدثت أمور شغلتهم عن استقبالي، أو ربما لم تصل البرقية..

- على كل حال يشرفني أن أقلّك بسيارتي...

- شكراً لك...

- أرجوك يا دكتور... سأتناول الحقائب وأضعها في السيارة، لا تتعب نفسك...

ولم ينتبه قاسم إلى ذلك الرجل ذي الشارب الكث الذي رافقه دون أن يدري، منذ أن خرج من قاعة المطار حتى سيارة عزّام.. فقد لاحق ذلك الرجل السيارة التي أقلته.. حتى وصلت إلى الشارع العريض المؤدي إلى المدينة.. في سيارة أنيقة زرقاء اللون... لم تقطع سيارة عزّام سوى بضعة كيلو مترات، حين سبقتها سيارة ذلك الرجل، وأطلقت نفيراً وأشعلت أضواءها المتناوبة، كأنها تأمر عزّاماً بإيقاف سيارته على اليمين.

- لماذا يطلب منّا ذلك الرجل الوقوف؟..

- ربما أحد معارفك الذين حضروا متأخرين لاستقبالك...

خرج الرجل من السيارة واتجه نحوهما:

- الدكتور قاسم؟.. أهلاً بك يا دكتور.. سأنقل حقائبك إلى سيارتي أنا مكلّف باستقبالك..

- الأستاذ عزّام، تكرّم مشكوراً بإيصالي..

- شكراً له.. أنا مَن سأوصلك يا دكتور.. إنها الأوامر.. أنت شخص غير عادي، وقد أتلقّى عقاباً شديداً إذا لم أقم بواجبي تجاهك...

- ومن كلفك بذلك؟.. أرجو أن تبلغني..

- سنتحادث في السيارة يا دكتور.. أرجوك وافق ليس لدي وقت..

- شكراً لك يا عزّام.. كانت فرصة طيبة أن أراك..

همس عزّام:

- دكتور.. أقول لك، لست مطمئناً إليه.. شكله لا يريحني..

همس قاسم:

- خذ رقم السيارة دون أن يدري.. واستفسر عنها.. إن حدث ولم أصل إلى أهلي..

- سأفعل..

حاول عزام مساعدته في نقل الحقائب إلا أن الرجل قال:

- لا تتعب نفسك، جسمي قويّ أستطيع أن أقوم بهذا العمل بمفردي..

ودّعه عزّام بقلق:

- في رعاية الله يا دكتور، أرجو أن نلتقي قريباً..

- شكراً لك يا عزّام..

تبادل قاسم مع الرجل الحديث:

- لم تقل لي يا أخ، من أرسلك لاستقبالي..؟

- ستعرف كل شيء فيما بعد..

- لا أعتقد أن أحداً من أهلي أرسلك... والدي كبير السنّ ولا يملك سلطة طلب سيارة فارهة مثل هذه السيارة... وأخي لا يكترث بحضوري، ومنذ سنوات وهو يبتعد عني ويؤلّب نفسه ضدّي بتحريض من الآخرين.. وبقية أهلي قد لا يكترثون لمجيئ وأختي لا تعيش هنا.. إذن من أرسلك؟..

- لا أملك حق الكلام معك.. أنا ألتزم الصمت كما أمروني..

- أمروك؟ من؟ لا أظن أن لي أعداء...

ثم أردف بخوف:

- أنت تخرج عن طريق المدينة.. إلى أين تتَّجه؟

ردَّ الرجل ببرود:

- ستقوم بزيارة بعض الناس...

(٢)

وصلت السيارة إلى حاجز حديدي، ظهر رجلان على جانبيه، ما لبثا أن رفعاه حين تبينا سحنة الرجل.. استغرب قاسم هذا الحاجز، واعتقده حاجزاً أمنياً..

لماذا يريده رجال الأمن؟ ولِمَ لم يوقفوه في المطار؟ بالعكس أظهروا له احتراماً شديداً... ربما هناك أسباب أخرى استدعت أن يحضروه إليهم بهذه الطريقة؟..

تابعت السيارة سيرها في طريق ترابي، ثم توقفت أمام بوابة حديدية.. ما لبثت أن انفتحت بشكل آلي.. حيث دخلت إلى ساحة واسعة وتوقفت أمام مدخل بناء ذي طابق واحد.. أوقف الرجل ذو الشارب الكث السيارة..

- تفضل يا دكتور... ستقضي هنا بعض الوقت.. ستبقى حقائبك في السيارة حالياً..

كان بناءً غريباً بلا نوافذ.. استقبله رجل كهل على باب البناء:

- أهلاً بك يا دكتور... تفضّل..

- خير؟ ما الذي يجري؟ أنا لا أفهم شيئاً...

- ستفهم كل شيء... لا تقلق على حقائبك.. إنها في أمان...

هبط به الرجل إلى القبو، وتبيّن لقاسم أن البناء يحوي ثلاثة طوابق، واحد فوق الأرض واثنان تحت الأرض.. أدخله ذلك الرجل الخمسيني الكهل إلى غرفة واسعة بعدة مكاتب.. وقف الموظفون فيها احتراماً للرجل، قبل أن يعبرها متجهاً نحو باب جانبي، فتحه ببطاقة إلكترونية ليجد قاسم نفسه في مكتب فخم.. فيه أجهزة حاسوب وشاشات مراقبة...

- تفضّل يا دكتور.. اجلس.. أهلاً بك بيننا...

- أرجوك فسّر لي ما أراه... قبل أن نتكلم في أي موضوع آخر..

- نشرب القهوة؟..

انتابت قاسم نوبة سعال، علّق الرجل:

- تحسست من رائحة المكان، ستعتاد عليها.. لم تقل لي ماذا تريد أن تشرب؟.. القهوة، أم العصير؟ أم..؟

- قهوة سادة من فضلك..

ضغط الكهل على أحد الأزرار ثم تكلم عبر الهاتف الداخلي:

- أرسل لي قهوة سادة مع زجاجة مياه معدنيّة..

أجابه صوت رفيع:

- حاضر يا سيدي..

- هه.. حدثني أرجوك.. ماذا أفعل هنا؟ وما هذا المكان؟ وماذا تريدون مني؟..

- أنت في المقر الرئيسي لجمعية بناء الإنسانية الحرّة.. (البنائين الأحرار)

- بناء الإنسانية الحرّة؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل...

- القليل يعرف هذه الجمعيّة، نحن جمعيّة مغلقة، لا ينتسب إلينا إلاّ الأعضاء الذين يختارهم المجلس التأسيسي...

- لكم علاقة بالدولة؟..

- لا.. نحن جمعية خاصة... لها أسماء كثيرة من بينها (جمعية السياحة والاصطياف) ولنا في المدينة أكثر من مقرّ بهذا الاسم.. نحن أعطيناك الاسم الحقيقي للجمعيّة، لأنك ستصبح عضواً فيها...

- أنا..؟ كيف؟..

فتح الباب ودخل أحد الخدم يرتدي لباساً موحد اللون وقبعة.. وضع فنجاناً من القهوة أمامه وزجاجة ماء.. وأكمل الكهل:

- أنت رجل ذو اختصاص عالٍ، ويهمنا أن ينضم إلينا من له مكانتك العلميّة..

- هل أنا مرغم على الانضمام لهذه الجمعيّة؟..

- نعم.. ولا خيار أمامك.. المجلس التأسيسي اختارك من بين آلاف الناس..

- وكيف؟ اليوم فقط وصلت إلى هنا..

- جمعيتنا لها فروع في كل مكان في العالم.. وقد رشحوك في البلد الذي درست فيها للعضوية فصدرت إلينا الأوامر..

- تقومون بنشاطاتكم بمعزل عن قوانين هذه البلاد؟..

- نحن لا نخرق القوانين.. ولدينا أعضاء في جمعيتنا لهم علاقة بالسلطات المسؤولة.. إن احتجنا إلى عون فسنجد من يعيننا.. اسمع يا دكتور قاسم، نحن سنساعدك كثيراً، ستتبوأ منصباً كبيراً، ويكون لك دخل مادي لا تحلم به..

- وماذا سأفعل بالمقابل؟..

- ستنفذ تعليماتنا مهما كانت.. بعد قليل تبدأ مراسم اختيارك عضواً في جمعيتنا..

تكلم عبر الهاتف الداخلي:

- هل كل شيء جاهز؟..

أجابه صوت رفيع:

- نعم يا سيدي...

لم يكن قاسم قد استوعب بعد ما يحدث له.. كان الأمر أشبه بحلم غريب، لم يستطع مناقشة واقعيته.. وقد رأى أنه يقع فعلاً...

كيف يجبرونه على الدخول في جمعية لا يعرف عنها شيئاً؟ ومن هم الذين

رشّحوه للعضوية؟.. ولماذا هو بالذات؟ ولماذا أيضاً هذا الأسلوب الغريب في اقتناصه وإحضاره إلى أحد مراكز الجمعية، التي أيقن أنها سريّة؟.. وماذا يفعل أعضاء هذه الجمعية؟.. ماهي مواقفهم، ممارساتهم، تعليماتهم التي ينفذونها؟..

أسئلة كثيرة أقلقته ولم يستطع كبتها... واحتفال غريب من نوعه يجري لتثبيته عضواً فاعلاً في الجمعية...

- أهلاً بأخينا في الإنسانية.. ضع يديك على الطاولة.. وافرد أصابعك..

- لماذا؟..

- نفذ الأمر ولا تناقش هيّا.. نعم، هكذا.. اغرس الخناجر العشرة بين أصابعه يا ديراك..

- ثبّت أصابعك وإلاّ نالك مكروه..

شعر بالخوف والرجل يلقي الخناجر واحداً تلو الآخر بين أصابعه ثم سمع صوتاً صارماً:

- أقسم يمين الولاء للجمعية.. ستردد القسم وراء ديراك.

- أقسم بشرفي ومعتقدي...

أدخلوه في اختبارات رهيبة، بعضها كان قاسياً، وكان حجّة ذلك الرجل الكهل أنها اختبارات لترويضه، وإدخاله في صلب مبادئ وممارسات الجمعية...

رأى نفسه مجبراً على الإذعان لكل ما طلبوه منه... ثم أدخلوه إلى غرفة فيها سرير وقدموا له شراباً حلو المذاق ما لبث بعد أن شربه أن غاص في خدر عميق... ورأى حلماً عجيباً.. كان يمشي في شارع في مدينة صاخبة، ومعه رجل

ذو شارب كث، أدخله الرجل إلى بناء مرتفع أنيق، رأى فيه الناس يصطفون على الجانبين وهم ينحنون له باحترام... ثم رأى فتاة جميلة تبتسم له وتقوده بيدها إلى المصعد وهي تنحني له.. كانت ترتدي لباساً خفيفاً أظهر مفاتنها...

- تفضل يا دكتور.. نحن ننتظرك منذ أيام...

- تنتظرونني؟..

- نعم.. أنت مديرنا الجديد.. سمعنا عنك كثيراً..

- أي نوع من الأعمال سأتولّى إدارته؟.. أنا لا أفهم شيئاً..

- هناك أوراق كثيرة تنتظر توقيعك...

سمع أصواتاً متألمة متأوهة:

- ما هذه الأصوات؟..

- إنها أصوات الذين عطّلوك عن المجيء مبكراً.. إنهم ينالون العقاب اللازم ...

- لست أفهم شيئاً، أريد أن أراهم...

رأى قاسم شباناً وجوههم مألوفة، ورأى رجالاً كان يرى صورهم في الصحف، كانوا ينظرون إليه بحقد.. وفجأة تقدم منه الرجل ذو الشارب الكث، ومعه بندقية لقّم مخزنها المليء بالرصاص، وسلمه إياها.. كانت الأوامر تقضي بإطلاق النار عليهم.. رأى الرجال الذين قابلهم إبان مراسم تثبيت عضويته في الجمعية، وهم يلبسون ملابس القضاة ويشيرون إليه بأن يطلق النار...

شعر أن عيونهم تتحّول إلى نار متقدة، وأصواتهم الهادرة تأمره بإطلاق النار والقضاء على أولئك الشبان وأولئك الرجال الذين كانوا ينظرون إليه

بحقد..

شعر بيده تضغط على الزناد فيختلط صوت الرصاص مع أصوات قهقهات من أعطوه الأوامر، ثم نهض فزعاً من نومه..

- «هه... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ماهذا الحلم الغريب؟ هه.. أين أنا؟»

- أنت في ضيافتنا يا دكتور.. أهلاً بك...

(٣)

رأى قاسم امرأة صارخة الجمال، تقف قرب سريره باحترام، واستوعب بسرعة وجوده في ذلك المركز الغريب لجمعية غامضة اقتنصته من المطار، وأقامت مراسم تنصيبه بين أعضائها العاملين...

- أمرت أن أكون في خدمتك.. سأقف أمام الباب في انتظار أن تغسل وجهك لأرافقك إلى صالة الطعام، لا بدَّ أنك جائع...

هزَّ رأسه مستوعباً ما حوله:

- حسناً.. فعلاً أشعر بالجوع...

- افتح الخزانة، ستجد فيها ملابس نظيفة على مقاسك.. الملابس التي ترتديها يجب أن تغيرها.. سنغسلها ونكويها بسرعة.. سأنتظرك أمام باب الغرفة؟..

- حسناً... حسناً...

كانت الغرفة مفروشة بأثاث فخم، وحين فتح باب الحمام الملحق بها، وجده أنيقاً فاخراً.. ربما أكثر أناقة من فندق خمس نجوم...

قضى دقائق يرتب نفسه، قبل أن يخرج ويرى المرأة الجميلة في انتظاره أمام الباب لترافقه إلى صالة الطعام.

- أتريد أن آمرهم بإحضار طعام معيّن، أم تختاره بنفسك من المائدة المفتوحة؟

- لا بأس سأختاره من المائدة المفتوحة...

- سأكون إلى جانبك، تفضّل..

استقبله رجل كهل سمين يصبغ شعره بلون أشقر لم يستطع إخفاء سنه الحقيقي:

- أهلاً بك يا دكتور قاسم، نحن سعداء لوجودك بيننا...

همست الفتاة:

- كأنك لم تميّزه.. إنه أحد القضاة الذين شهدوا قسمك، وأنت تصبح عضواً في جمعيتنا..

ردّ بصوتٍ آلي على تحية الكهل:

- أهلاً بك يا سيدي..

اختارت له الفتاة أنواع الطعام الذي بدا أنها تفضلها له، ومشت معه حتى المنضدة التي يجلس عليها الكهل:

- تفضل اجلس هنا.. ضع صينية الطعام هناك على المنضدة.. سأحضر لك صحناً من سلطة الموسم المنوعة..

سأله الكهل:

- هل زرت رومة من قبل؟ هه.. زرتها؟

- نعم.. نعم.. منذ نحو أربع سنوات.. لماذا تسأل؟.

- لأنني رأيتك في (البانثيون) وكنت تقف بين مجموعة من الفتيات تتحدث إليهن عن المعمار الفنان الذي صمّم (البانثيون).. أحمل صورة جميلة لك وأنت معهن.. تذكرتك فور دخولك للقَسَم.. هه.. لماذا كنت متعلقاً بذلك المعمار الفنان لدرجة أن بعض الناس كادوا يهاجمونك وأنت وسط الفتيات؟..

- آه تذكرت.. كنت أتحدث عن (أبولّودوروالدمشقي) الذي أقام عمائر بديعة في العديد من بلدان أوربة منها إيطالية.. وروما تزخر بعمائره.. ولكن بعض المتعصبين الذين لا يعرفون شيئاً عن تاريخ الحضارة، رفضوا فكرة أن أبولو دورو هو من صمّم (البانثيون).. آه.. كنتَ هناك إذن؟

- نعم... نعم.. وذاكرتي نشطة في هذا الاتجاه...

جلبت له الفتاة صحناً من الخضراوات

- تفضل يا دكتور، صحن (السلطة) إنه منتقى جيداً.. من خضراوات موسمية مفيدة..

- شكراً لك..

تابع الكهل:

- نحن نتابعك جيداً منذ زمن بعيد يا دكتور قاسم.. وهناك آراء تتبناها نحن نختلف معها كجمعية.. وستعرف أننا على حق..

- مثل ماذا يا..؟ لم أتعرف عليك بعد..

- لا يهم اسمي.. ولكن من جملة الآراء، حماسك في الحديث عن أبولو دورو الدمشقي... نحن لا نهتم بإثارة بعض القضايا التاريخية التي تدعو أحياناً

للخلاف.. جمعيتنا تدعو للسلام، وتعمل من أجله على حساب العديد من القضايا.. على كل حال ما دمت قد أصبحت واحداً منّا فستعرف الكثير عن مبادئنا فيما بعد، أعتذر الآن، عليّ أن أغادر، طائرتي بعد نحو الساعة.. ويجب أن ألحق بها...

انحنى له باحترام وهو يودعه:

- مع السلامة..

انضمت إليه الفتاة تحمل طبقها:

- هل انتهيت؟ لا أراك تمد يدك إلى الطعام، مازال على حاله.. لم تأكل سوى بضع لقيمات..

- لست جائعاً، شكراً لك..

- أتريد شيئاً، أنا جاهزة لألبي كل رغباتك..

همهم:

- هكذا طلبوا منك...

- ليس طلباً، إنه أمر، ولكنه أمر لذيذ مع رجل قوي الشخصية ينتظره مستقبل كبير.. مادمت قد أصبحت منّا، فكل الطرق ستنفتح أمامك..

- رافقيني إلى غرفتي، عليّ أن أغادر، ألم تنتهِ فترة حجزي؟..

- ابقَ بعض الوقت، لدينا حفل صاخب في الليل، ستروّح عن نفسك..

- يجب عليّ أن أذهب لا بدَّ أن أهلي قلقون من تأخري..

- لا تقلق من هذه الناحية ليسوا قلقين كما قيل لي.. يعلمون أنك ستأتي إليهم فيما بعد.

- متأكدة؟..

- نعم.. أرجوك ابق معنا سنحضر الحفل سوية..

- لكن..؟

- أرجوك يا عزيزي، ستكون مسروراً، أعدك..

- حسناً.. سأبقى..

ابتسمت:

- شكراً لك يا عزيزي، هل تريد أن تشرب الشاي هنا أم في صالة الضيافة؟..

- صالة الضيافة؟ لا بد أنها مزدحمة..

- هناك صالات ضيافة خاصة، تعال ،، سأعرفك بإحداها..

ورافقته إلى صالة صغيرة في زاوية فيها منضدة حافلة بأنواع الشراب البارد والساخن، وفيها طنافس ومفروشات على أرضها، تؤمن للذي ينعزل فيها كل وسائل الراحة..

وحالما وصلت المرأة إليها مع قاسم أغلقت الباب بالمفتاح، لتؤكد لقاسم أنهما أصبحا وحيدين.. شعر قاسم برائحة عطرها تكاد تسكره، وقاومها كثيراً.. وبدأا يتحادثان في مواضيع متفرقة.. ثم أخذ يسألها مباشرة عن الجمعية وأعضائها وفروعها وأهدافها..

ولحظ فوق المصباح أسطوانة صغيرة، تمكن بحسّه الفطن أن يتعرف فيها بعدسة مصوّرة (كاميرا) سريّة، يبدو أنهم يتابعون ما يجري بدقة.. تظاهر بأنه لم يكتشف شيئاً، وتابع أسئلته التي بدأ ينتقيها بسخافة مضللة، وقلبه يكاد ينفجر من الغيظ..

ولما شدته المرأة إليها، أبعدها برفق وهو يعتذر، أن الوقت غير مناسب، ثم بدأ يبعدها عنه، يروي لها شيئاً عن حياته في أمريكة، ويستفسر منها بالمقابل عن حياتها، وكانت تبدو شديدة الذكاء، وهي تراوغ في إجاباتها محاولة أن تعيده إلى جوّ الغزل الذي أرادته، دون نتيجة..

- اسمعي يا عزيزتي.. أنتِ امرأة رائعة، ولكني غير مستعد الآن للقيام بأي مبادرة عاطفية.. أوصليني إلى غرفتي، سأنام بعض الوقت، ثم نذهب سوية إلى الحفل في المساء...

- سأزوّدك ببعض المشروبات التي تريح أعصابك..

ثم همست بغنج:

- بدأت أنشدّ إليك، لست أدري ماذا جرى لي؟.. أشعر بالضعف أمامك.. هل بدأت أتعلق بك، وأنت تبعدني عنك، يا لحظي التعس...

همس معتذراً:

- لا تغضبي أرجوكِ... أعدك أن أصلح كل شيء في الليل..

- لقد أرحتني.. يا.. يا.. عزيزي... هيا سأوصلك إلى غرفتك...

(٤)

كان قاسم في داخله يتعرض لعذاب كبير، وقد شعر أنه أسقط في يده، وهو يُسحب إلى داخل دائرة غامضة، قد تسبب له الخروج على كل مبادئه وأخلاقياته...

أية جمعية هذه التي تسيطر على أصحاب القرار، وتملي عليهم إرادتها، وتستقطب ولو بالقوة أصحاب الكفاءات والمبدعين؟.. ظلَّ يتقلب على

سريره، وقد جافاه النوم.. وكان يغفو سريعاً بعد تناول طعام الغذاء، ولكنه اليوم في عالم آخر جلب له الهمّ والقلق والخوف...

في نحو السابعة سمع نقراً خفيفاً على الباب، وأتته تلك المرأة الفاتنة تستعجله في الذهاب إلى الحفل الصاخب.

- سيبدأ الحفل بعد قليل، إنه الحفل الشهري الذي يحضره كبار القوم وأثرياؤهم.. ستفاجأ بوجود شخصيات مشهورة تتصدر صورها صحف العالم ومحطات التلفزة الفضائية...

- سأرتدي ثيابي بسرعة هل المكان بعيد عن هنا؟..

- إنه في مبنى الحفلات المركزي، وهو لا يبعد سوى بضعة مئات من الأمتار عن هنا..

ارتدى البذلة المعلقة التي تناسب قياسه بدقة وانضمّ إليها..

- تبدو أنيقاً.. هذا أفضل.. ستثير غيرة الفتيات مني..

خرجا إلى ممر في حديقة خضراء أنيقة، انضم إليهما رجل قاسي الملامح بشارب كث:

- سيدي.. أنا مكلّف باصطحابك إلى (مقصف المسبح) هناك اجتماع خاص..

سألت الفتاة:

- هل سأرافقكما يا ديراك؟..

- لا بأس تفضلي..

دخلوا المقصف المرتب حول المسبح، سمع قاسم تعليقات النسوة المنتشرات على المناضد..

- هه.. صيدك الجديد؟ أنت بارعة يا (مالا).

- أنا (مالا)، مهمتي هي إدخال العناصر الجديدة في دائرة المجموعة ثم ترويضهم..

- أنتِ داهية...

- تفضل من هنا يا سيدي

وجد قاسم نفسه وسط جمع محتشد، وقد غصَّ المكان بالمصورين والصحافيين والإعلاميين، شدته مالا من يده إلى زاوية قريبة من المسبح، ليجلس على طاولة مع رجل وامرأة.. تبسّط له الرجل وهو يستقبله بابتسامة عريضة.. عرف فيه الرجل الذي قابله في أول دخوله للبناء...

- أهلاً بك يا دكتور قاسم.. أنا أنتظرك لأعرّفك ببعض الشخصيات التي يهمّك معرفتها.. انتظري هنا يا مالا قليلاً.. وتبادلي الحديث مع هذه السيدة التي ترافقني، سوف لن نتأخر.. هه تفضّل يا دكتور قاسم، مع الأسف، أنك ستغادرنا في الصباح، لقد هيؤوا لك استقبالاً كبيراً عند دخولك إلى المدينة... هه.. أترى ذلك الرجل البدين الذي يجلس هناك؟..

- نعم.. نعم.. إنني أراه..

- إنه أحد أهم ملوك المال في هذا البلد.. سوف يزورك بعدما تتسلّم منصبك، وسيؤدي طاعته لك.. اطلب منه ما تشاء دون تردد.. أما ذلك الرجل الأنيق قربه فهو بمنصب استشاري كبير ستلجأ إليه حين الضرورة القصوى يبدو هزيلاً نحيفاً، ولكنه قويّ ويملك ذاكرة مخيفة.. أما تلك المرأة الأنيقة الجميلة، فستكون وسيلتك للوصول إلى أعقد الصفقات مع أهم المسؤولين..

عرّفه الرجل بشخصيات كبيرة كانت تتصدّر صورها الصحافة المكتوبة والمرئية، وحين أنهى جولته كانت مالا تنتظره مع تلك السيدة التي قدمها الرجل كرفيقته..

استأذنا بالذهاب سريعاً ووجد نفسه مع مالا وحيداً... سألها:

- تبادلتما الحديث.. أنتِ وتلك السيدة؟..

- إنها تتمتع بمقام رفيع في الجمعية.. كان حديثنا سطحيّاً...

فكّر قلقاً:

- أية أقدار قادتني إلى هنا؟ وما هو المنصب الذي سأتسلمه؟..

- ماذا بك يا عزيزي تبدو شارداً؟..

- لا شيء... أشعر بالجوع..

- سنشرب بعض المثلجات، ثم نطلب الطعام، وعدتني أن نقضي وقتاً ممتعاً هذه الليلة؟..

- وأنا عند وعدي..

كانت مالا فتاة هرب منها الحظّ، تورطت في العمل في مركز إدارة الجمعية، كانت تحكي له قصتها وهي منتشية بالشراب، وتتصنّع الابتسام وهي تشير له إلى فوهات المصوِّرات (الكاميرات)، شعر قاسم بمدى المعاناة التي تعانيها الصبيّة، ورغب بمساعدتها، ولكن لم يكن في يده شيء، وهو في رأيها من يستحق المساعدة..

اصطحبها إلى غرفته بعد أن رقصا كثيراً، وأشارت إليه إلى مكان وجود عدسة المصوِّرة (الكاميرا) التي تراقبه في الغرفة، ثم قادته بيده إلى الحمّام وقالت له هامسة:

- اسمع يا دكتور أعرف أنه ليس لك يد في الحضور إلى هنا.. وليس بإمكانك الانسحاب، فهم لا يرحمون، سأحكي لك بعضاً من المخططات التي سيأمرونك بتنفيذها، حاول أن تطلق ضحكات كل فترة الآن.. نحن في الحمام.. هم لا يروننا ولكنهم يسمعون أصواتنا..

أطلق ضحكاته وهو يصرخ:

- يا لكِ من فتاة لذيذة يا مالا...

ضحكت بفجور ثم همست له بصوت متهدج حزين:

- أنا أشفق عليك.. ولست أدري ما الذي جعلني أطمئن إليك يا لي من بائسة..

- اهدئي أرجوك يجب ألاّ يسمعوا إلاّ أصوات ضحكاتنا و آهاتنا..

- معك حق..

(٥)

حين صحا في الصباح لم يجد مالا إلى جانبه، وجد ورقة صغيرة قربه وحين فتحها وجد فيها تحية من مالا وأمل باللقاء ثانية.. إلى جانب رقم طويل عرف أنه رقم هاتف نقّال تركته للاتصال بها إن رغب.. وضع الورقة في جيبه وقد سمع طرقاً على الباب.. ثم فتح ديراك الباب:

- الإفطار جاهز يا سيدي..

- شكراً لك يا ديراك.. ماذا عن حقائبي؟..

- إنها في السيارة، سأوصلك بنفسي إلى منزلك في المدينة.. كل شيء منظم عندنا يا سيدي..

- حسناً يا ديراك..

تناول إفطاره ورافقه ديراك إلى الباب الخارجي... فاستأذنه للحظات للذهاب إلى الحمّام، حيث فتح ورقة مالا من جديد.. فوجد فيها عبارة صغيرة تطلب منه فيها حفظ الرقم الذي كتبته ثم إتلاف الورقة...

لم يعرف السبب ولكنه مرّن نفسه على حفظ الرقم، ثم مزقها بعدما تأكد من أن الرقم أصبح في ذاكرته.. وترك قطعها تنجرف مع المياه في البالوعة...

حين وصل إلى الباب، كان ديراك بانتظاره...

- سنذهب إلى نقطة التفتيش قبل أن نغادر المكان صوب المدينة..

- نقطة تفتيش؟..

- عمل معتاد يطبق على الجميع، إنها الأوامر؟..

وصلا إلى غرفة قرب بوابة الخروج، كان هناك عدد من الحراس، قال أحدهم:

- ضع كل مافي جيوبك هنا.. كل شيء حتى المحارم الورقيّة..

وبعد أن تفحص الحارس مافي جيوبه سأله:

- هذا كل شيء..؟

- نعم.. كل شيء.. يمكنك تفتيشي..

- آسف يا سيدي.. ولكن هناك ورقة التقطتها من السرير ووضعتها في جيبك.

- ماذا تقول؟ أية ورقة.. آه تذكرت كانت تحوي عبارات قليلة الأدب.. ألقيتها في المهملات بالطبع..

- ولكنك احتفظت بها بعض الوقت..

- أتهمك مثل هذه العبارات الفاجرة، سأكتبها أمامك إن رغبت..

سمع صوتاً هادئاً ينطلق عبر (الميكرفونات):

- اترك الدكتور قاسم، ولا تزعجه..

- آسف يا سيدي.. تفضل يا دكتور..

شعر قاسم بالخوف، لقد أحصوا عليه أنفاسه.. ولا ريب أن الكثير من الأمور الغريبة، وربما المخيفة أيضاً تنتظره..

شعر ديراك بتوتره، والسيارة تقطع الطريق نحو المدينة..

- لا تنزعج من الأوامر يا سيدي.. قيودنا صارمة في هذا الاتجاه..

- لست منزعجاً، وإنما مدهوشاً من نقطة التفتيش هذه..

- لا عليك.. أحياناً يشدُّ الفضول بعض الضيوف، فيوردهم موارد العقوبة حين يحاولون حلّ بعض الألغاز التي تحيرهم عن الجمعية، أنت لست من هؤلاء يا سيدي.. لذلك تكلموا إليه ألاّ يزعجك.. المدير تحدّث معه شخصياً..

هز رأسه وهو يفكر قلقاً:

«جيّد أنني أتلفت تلك الورقة..»

استغرب قاسم أن يصطحبه ديراك إلى أرقى أحياء المدينة، حيث توقف أخيراً أمام (فيلا) أنيقة بطابقين.. على بابها الخارجي حارسان وبعض الخدم..

فتح الباب الخارجي والحارسان يؤديان التحية باحترام، ثم توقفت السيارة أمام البناء الداخلي، حيث هرع الخدم يتناولون الحقائب ويستقبلون قاسماً بالانحناء والطاعة... شعر أنه يعيش في حلم، وهم يعرفونه على تقسيمات

(الفيلاّ) الأنيقة بأثاثها الفخم، ثم أوصلته وصيفته الشابة، كما دعت نفسها إلى مخدعه ...

تركت له على السرير ملابس للراحة، ثم انسحبت بهدوء، وهي تبتسم بولاء مطلق، غيّر ملابسه وارتدى لباساً خفيفاً، قرع الباب، فدخلت الوصيفة تحمل فنجاناً من القهوة..

- اسمي (هنا) يا سيدي، قهوة وسط.. كما تحبها.. ماذا تريد أن تأكل مع الغذاء؟ ورق عنب أم ملوخيّة بالدجاج؟ أم ترغب بالدجاج المشوي مع الثوم؟..

- لا فرق بين هذه الأنواع من الطعام بالنسبة إلي.. إنها الأنواع التي أفضلها..

ابتسمت:

- نحن نعرف كل شيء عنك يا سيدي، وسنلبي رغباتك كلها، أنت سيدنا الآن.. رغباتك أوامر.. آسفة يا سيدي هذه هي أرقام هواتفك حتى في المكتب...

- حسناً يا هنا..

- أتريد شيئاً آخر؟ يمكنك الجلوس في غرفة مكتبك إن أحببت، سأرافقك إليها..

- شكراً لك.. بعد قليل، ليس الآن...

شعر قاسم بالرعب بعد خروج الوصيفة، لقد أصبح رقماً عند المتنفذين في الجمعية، ويعلم الله ما الذي ينتظره من أحداث..

لقد درسوه جيداً واصطادوه ببراعة، وهم يحصون عليه أنفاسه بالتأكيد..

لا بدّ أن البيت بمن فيه يخضعه لرقابة شديدة، إضافة للرقابة التي تتضمّن مصورات (كاميرات) سريّة و(ميكرفونات) وأجهزة تنصّت...

كما أن كل من في البيت من خدم وحشم وظفتهم الجمعية، وهم يأتمرون بأمرها، وربما سيقدمون لها تقارير يومية عنه...

وصل توتره إلى الذروة ولم يعرف كيف يتصرّف، ورن جرس الهاتف قربه فرفع السماعة..

- آلو.. نعم... من المتكلّم..

- أنا مفيد يا قاسم... حمداً لله على سلامتك..

- مفيد، كيف أنت؟ ماهذه الفرصة الطيبة التي تجعلتني أسمع صوتك؟ كيف عرفت رقم هاتفي؟..

- صورك تملأ الصحف، وهناك مقالات مدبّجة عنك وعن نشاطاتك العلميّة، ورغباتك في التطوير هنا..

فكّر حانقاً:

«أولاد الكلب كل شيء حسبوه بدقة شديدة»

تابع مفيد عبر الهاتف:

- تساءلت إن كان بإمكاني رؤيتك.. أنا أعرف العنوان.. هل من المناسب أن ألقاك الساعة السادسة مساءَ اليوم أو غداً؟ أعرف ازدحام مواعيدك..

- انتظر قليلاً

قلّب دفتر المواعيد قرب الهاتف، لا بدّ أنهم كتبوا مواعيده.. قلّب أوراقه ثم قال لمفيد:

- أنتظرك في السادسة غداً..

استرد أنفاسه بعد ذلك الهاتف من مفيد، هو ليس وحيداً، وسيقاوم محاولاتهم في استعباده وإعطائه أوامر قد لا يقبل عليه ضميره تنفيذها..

خرج من غرفة نومه الفخمة فوجد (هنا) جالسة أمام الباب، تنتظره، انحنت بين يديه ورافقته إلى مكتبه. كانت غرفة فخمة الأثاث فيها كتب وموسوعات، وملفّات قرأ اسمه على جانب أحدها...

كان يتضمّن شهاداته وسيرته الذاتية والمؤتمرات التي شارك فيها والجوائز التي حصل عليها.. لم يستغرب وجود الملفّ، فلن يستغرب شيئاً بعد اليوم..

إنهم يعرفون كل شيء عنه، قضى وقتاً يقلّب في الكتب قبل أن تحضر إليه (هنا) لتصطحبه إلى غرفة الطعام..

وهكذا قضى يوماً مريحاً، سبح في المسبح الملحق بالفيلاّ.. ثم أوى إلى فراشه مبكراً..

أمعقول أن يمتلك مثل هذه الفيلا وكل هذا الجمع يخدمه؟ هكذا بكل بساطة وهو الذي اعتقد أنه سيعاني الكثير في بداية عودته إلى بلده...

(٦)

وتستمر اللعبة، بغرابتها، من حوله... وبعد أن يقضي ليلة مريحة في مسكنه الجديد، توقظه خادمته الخاصة، للتهيؤ للذهاب إلى مكان عمله...

يفاجأ بأن سائقه هو (ديراك) نفسه، الذي يفتح له الباب ويغلقه لتتحرك السيارة إلى مقرّ عمله الذي تأكّد له أن الجمعية قد وضعته فيه مع بداية عام ٢٠٠١ م.

كان بناءً عالياً بعدة طوابق استقبل على بابه الرئيسي من قبل الموظفين الذين انتشروا على الجانبين يحملون الزهور وينثرونها فوقه... وهو يمر صاعداً الدرجات الرخامية العريضة في المقدمة قبل أن يلج الباب الرئيسي، دون أن تقل نسبة ازدحام الموظفين الذين ينثرون الزهور فوقه حتى باب المصعد المخصص له.. قال ديراك:

- تفضل يا سيدي سأرافقك إلى مكتبك.. إنه في الطابق الثامن..

- ستظل معي يا ديراك؟..

- لا يا سيدي مهمتي تنحصر بإيصالك إلى هناك وإعادتك إلى البيت فقط... وإذا أردت القيام بزيارات أو جولات، سأكون جاهزاً لقيادة السيارة إلى أي مكان ترغب.. وصل المصعد الطابق الثامن، تفضل يا سيدي استقبله الموظفون في الطابق واقتربت منه فتاة أنيقة جميلة.

- أهلاً بك يا سيدي.. تفضل..

كان ديراك قد انحنى مودعاً، ووجد قاسم نفسه يسير خلف الفتاة وهو يشعر كأنه رآها من قبل..

- اسمي سالي يا سيدي.. أنا (أمينة سرك) الخاصة، هناك ثلاث (أمينات سر) لكل أقسام الأعمال المختلفة.. شعر كأنه في حلم.. يبدو أن لهؤلاء الناس نفوذاً كبيراً، حتى يعينوه موظفاً على هذا القدر من الأهمية.. ولكن حتى الآن لا يعرف شيئاً عن وظيفته، قدمت له سالي كتاباً صغيراً كان يحكي عن وظيفته، كتب في مقدمته..

- اقرأ بدقّة.. ستعرف الواجبات الملقاة على عاتقك.. وستعرف ماهيّة الوظيفة التي تتبوؤها.. أدخل الرقم السرّي الذي أعطي لك.. على مفاتيح الأرقام سينفتح الكتاب من صندوقه المغلق الزجاجي السطح..

بدأ قاسم يقرأ في الكتاب بعد أن فتحه من صندوقه المحكم وقد اعتقده كتاباً صغيراً في البداية، إلا أنه اكتشف فيه تاريخ الجمعية، والأشخاص الذين توالوا على المنصب الذي سيتبوؤه.. أو الذي تبوّأه فعلاً...

كان مكتوباً بلغة بدت له غامضة.. وقد اكتشف أن الأوامر التي سينفذها تصل إليه يومياً، وأن سلطة إدارة الجمعية، هي السلطة العليا بالنسبة إليه وأنه قد يتعرّف بأعضاء الجمعية من إشاراتهم ورموزهم التي وصفها الكتاب بدقّة...

وبعد أن أنهى استعراض الكتاب ووصل صفحته الأخيرة، رأى عبارة تطلب منه إغلاقه بإحكام ووضعه في الدرج الأول لمكتبه...

ووجد بعد ذلك ظرفاً مختوماً بالشمع الأحمر فتحه فإذا (بديسك) من أقراص الحواسب، طلب منه بجملة بسيطة التعرّف من خلاله بأوامر اليوم...

وضع القرص في جهاز الحاسوب على مكتبه فرأى مجموعة من الصور لشبان وفتيات طُلِبَ منه مقابلتهم وإعطاؤهم تعليمات أخذ يستعرضها بالتدريج وهو يكاد يتجمّد من الرعب...

كان من بينها أوامر بالقتل، وأوامر بحرق مكاتب وبيوت، وأوامر بوضع بيوض حيوانات زاحفة في بحيرات وخزانات مياه.. وحين انتهى من استعراض كل هذه الأوامر، أعاد القرص إلى غلافه.. ووضعه حسب التعليمات في الدرج نفسه الذي وضع فيه الكتاب...

ثم فتح الباب لتدخل سالي.. ومعها جدول المواعيد اليوميّة.. وعدد من الكتب والمعاملات..

- ستوقع بريدك في البداية يا سيدي.. ثم تبدأ مقابلاتك..

- هذا البريد كلّه؟..

- نعم.. فقط لهذا اليوم.. كل شيء جاهز.. يمكنك الاطلاع على ملخص كل معاملة، سأظل إلى جانبك إن رغبت..

- لا بأس يا سالي...

حدّدت وظيفته الفعلية كما هو مذيَّل أسفل القرارات باسم المدير العام للتكنولوجية التطبيقية - الفرع الإقليمي.. كانت المعاملة الأولى تتضمّن الموافقة على شراكة تكنولوجية إقليمية... والثانية صرف أربعة ملايين دولار لدعم جمعيات قطاع خاص.. لا بدّ أنها جمعيات تتفرّع عن الجمعية، أو لها علاقة مباشرة بها.. وكانت هناك معاملات بسيطة، طلبات شراء وكشف..

همس إلى أمينة السر:

- رائحة عطرك جميلة يا سالي...

همست دون أن تحرك شفتيها:

- شكراً لك يا سيدي.. أنا خاصتك يا سيدي، سأنفذ أي أمر تطلبه مني..

- لا بأس.. بعد أن ننهي مقابلاتنا اليوم.. سأراك وحدك..

سألته:

- هل أدخل الشبان والفتيات يا سيدي؟..

- نعم... نعم...

- ستقابل كل واحد على حدة، ملفه سيكون معه.. أعتقد أنك تعرف كل شيء عنهم.. أتريد مساعدتي؟ من المفروض أن تقابلهم دون وجود أحد..

- لا بأس يا سالي.. سأتدبر الأمر.. أدخليهم واحداً واحداً..

- حاضر يا سيدي..

(٧)

تذكر قاسم زوجته المتوفاة، إنها تشبه سالي شبهاً عجيباً، أشفق على نفسه من الميل الذي أحسّه نحوها، هل انتقوها أيضاً لشبهها بزوجته؟.. إنها تبدو صغيرة كيف أصبحت متورطة بهذه اللعبة الخطرة؟.. هل هي الحاجة؟..

تنهَّدَ بعمق وقد ازدادت همومه.. إنه يدخل في دائرة الرمال المتحركة، وستغرقه حتماً إن لم يكن هناك من مخرج.. طرق الباب ودخل الشاب الأول.. كان مفتول العضلات طويل القامة.. وقف مستعداً أمام قاسم كجندي أمام قائده...

- أتعرف مهمتك أيها الشاب؟..

- بالطبع يا سيدي.. سأستلم صندوق العينات منك، وأوزعها في المناطق المعينة، في البرك الشرقيّة حول تلك المدينة، وفي خزّان المياه الرئيسي في المدينة.. وفي القرى المجاورة لها...

- أتعرف محتوى تلك العينات؟..

- لا يا سيدي، ولا أريد أن أعرف.. أنا أنفّذ الأوامر فقط، دون أن أسأل عنها، هكذا تعوّدنا يا سيدي..

- معك حق..

فكر قاسم بخوف:

«كيف سأسلمه صناديق بيوض الزواحف إليه؟ وما الذي سيحدث بعد أن تفقس تلك البيوض؟..»

وكأنما شعرت سالي بتردده:

- هل أسلمه الصناديق يا سيدي؟..

- بعد قليل يا سالي.. اذهب وانتظر قليلاً سأستدعيك بعد دقائق..

- حسناً يا سيدي..

- أين الصناديق يا سالي؟..

- إنها في المخزن المجاور لغرفتي، إنها غرفة بشكل برّاد..

- سأرى تلك العينات وأتحقق منها..

همست متوسلة:

- أرجوك يا سيدي هذا لا يجوز.. الأوامر صارمة في ذلك..

- صارمة في ألاَّ أراها أبداً؟..

- نعم يا سيدي.. أرجوك، نَفِّذ الأوامر ولا تناقش.. إنهم يراقبوننا..

قال بصوتٍ عالٍ:

- أرسلي خلف الشاب وسلميه الصناديق بنفسك.. وليوقع على إيصالات الاستلام.. وأريد أن يقدم تقريراً عن عمليته بعد تنفيذها

- سأفعل يا سيدي...

ثم دخل الشاب التالي ووقف أمامه باستعداد واحترام:

- أنا جاهز لتنفيذ الأوامر يا سيدي..

كانت الأوامر الموجهة إليه تتلخص بحرق بيت أحد الناس.. كان العنوان مكتوباً وكمية المواد القابلة للاشتعال السريع موجودة...

سأله:

- أتعرف مهمتك أيها الشاب؟..

- بالطبع يا سيدي، وقد قمت بمهمات سابقة أصعب منها بكثير...

عاد الخوف يقلقه، يبدو أنها سلسلة طويلة لا تنتهي من الأوامر.. طلب من سالي أن تجهز الشاب بكل ما يلزمه لتنفيذ مهمته... ثم قال له:

- قدم لي تقريرك عن العملية وآثارها بعد الانتهاء منها...

ارتبك الشاب:

- تقرير عن العملية؟.. حسناً سأفعل ذلك يا سيدي..

فَكَّر «لماذا طلبتُ هذا التقرير منه؟ ألأرى الدمار الذي سيحصل بعد العملية؟ ألأرى مقدار ما أسببه من كوارث للناس؟ يا إلهي..»

سألته سالي:

- هل أدخل الفتاة التالية يا سيدي؟..

- هي فتاة؟ لا بأس.. أدخليها...

وبعد فترة قصيرة، أدخلت سالي فتاة في نحو العشرين من عمرها، بدت لقاسم صارخة الجمال، كانت مهمتها وضع قنبلة في سيارة أحد الكبار الذين يحيطون أنفسهم بمجموعة من التابعين والمرافقين.. تاجر ثري يبدو أنه خرج على خط الجمعية، هكذا خمّن قاسم...

تأمل الفتاة وهو يفكر بالدافع الذي دفعها للقيام بمثل هذا العمل الإجرامي.. وكأنما لحظت الفتاة تحديقه بها، فقالت هامسة بغنج:

- هل أعجبك؟..

- بالطبع أنت جميلة جداً..

- إن رغبت سأزورك زيارة خاصة بعد أداء مهمتي؟

- لا بأس ستسلمك سالي الصندوق.. تعرفين مهمتك جيداً؟

- بالطبع.. الضحيّة المطلوبة متيّم بحبّي، تنفيذ المهمة سهل جداً.. هل آتي اليوم؟ في المساء مثلاً؟..

- لا بأس.. في العاشرة في بيتي؟ تعرفينه؟..

- بالطبع..

خرجت وهي تحمل الصندوق الصغير، ثم عادت سالي مرتبكة وهي تقول هامسة:

- هناك امرأة عجوز تنتظر تقول: إنها والدتك..

- ماذا..؟ أمي؟..

- هدّئ نفسك، كل شيء مراقب هنا، ممنوع مقابلة الأقرباء في مكان العمل..

- حسناً.. حسناً..

- أكمل مقابلة بقية الشبان والفتيات وأعطهم الأوامر.. ثم قابل والدتك في غرفة الاستراحة، إنها غرفة خارج إطار المراقبة.. سأخالف الأوامر وأدعك تدخل فيها معها..

(٨)

أنهى قاسم تسليم الصناديق المفخّخة وأوامر القتل، وقلبه مشغول بوالدته.. كيف أتت إليه من المكان البعيد الذي تقيم فيه؟ ولماذا ممنوع مقابلة الأقرباء في العمل؟ وكيف سلّم أوامر القتل بسهولة لأولئك الشبان والفتيات؟..

هل بدأ يفقد إحساسه الإنساني؟ أم ما الذي جرى له؟..

ثم تبادل حواراً مع سالي أسمع فيها من يراقبه أنه سيدخل الحمّام بعض الوقت.. ثم تسرّب إلى غرفة الاستراحة التي حددت له سالي موقعها مراوغاً المصوّرات السريّة المنتشرة..

ووجد نفسه بعد دقائق وجهاً لوجه أمام والدته التي انفجرت بالبكاء..

«قاسم حبيبي.. أوصلوا إلي الصحيفة وفي صدرها صورتك.. قطعت مسافة طويلة حتى وصلت إلى هنا.. لولا ذلك البواب الشهم الذي أوصلني إلى أمينة سرك اللطيفة لما تمكنت من لقائك.. أي مركز غريب أنت تستلمه؟»

- إنه مركز هام يا أمي، وجدتهم ينتظرونني لأستلمه من المطار فور وصولي..

- لست مرتاحة إلى هذا التضييق لحركتك.. أمتأكد أن كل شيء على ما يرام؟

- نعم.. نعم يا أمي.. ألم يأتِ أحد معك؟ ألا يزورك إخوتي؟

- أختك المسكينة تزورني مرّة كل شهر، معذورة مسؤولياتها كبيرة وزوجها مريض.. أما (ضاحي) أخوك فبعد أن تزوج لم أره أبداً.. أما زهرة حبيبتي الصغيرة فمنذ زمن طويل لم تزرني ولا أعرف عن أخبارها سوى القليل.. آه..

- لا عليك يا أماه.. لن أدعك تفارقينني بعد الآن..

- لا يا بني.. لن أقيم معك.. سأعود إلى القرية.. تعلم كم أحب بيتي الصغير، وصديقاتي هناك؟.. أنا أعيش حياة هادئة أنتظر الموت.. ولكني لست مطمئنة عنك.. لا يعجبني حالك هذا.. حاول يا بني أن تسأل عن أختك زهرة.. لماذا ليس سوى أخبار نادرة عنها؟ ثم انتبه لنفسك.. كما قلت لك حالتك لا تعجبني..

- لماذا يا أمي؟ أنا بخير صدقيني..

- لا أدري.. أشعر بالانقباض، وأنا أقرأ وجهك.. لست في حالة مرضية.. أنت تتعذّب في داخلك، أكاد أحسّ بعذابك..

قطعت سالي خلوتهما:

- سيدي، أحد المسؤولين الكبار في طريقه لمقابلتك سيصل بعد عشرة دقائق.. أرجو أن تسرع..

- حسناً يا سالي.. أمي، يجب أن تأتي إليَّ في البيت، هناك سنتحدّث طويلاً..

قالت سالي بهدوء:

- سأوصلك إلى هناك يا خالة بسيارة خاصة..

لا يا ابنتي، لا أريد ذلك، أريد العودة إلى القرية.. وإن كان لديك وقت يا بني، حاول أن تزورني.. أقرأ الكثير في عينيك..

- سأفعل قريباً يا أمي.. سالي أرسلي سيارة لتوصلها إلى القرية، هي بعيدة قليلاً وأوصي السائق بالحرص الشديد، أمي هل تحتاجين إلى المال؟

- لا يا بني.. لن آخذ شيئاً.. تعال إلى القرية.. أريد أن أراك هناك..

- سآتي، أعدك بذلك..

شعر قاسم بالحزن الشديد وهو يودع أمه.. وقد أيقن أن ما يفعله يشكل نسفاً لكل المبادئ والقيم التي تربّى عليها..

عاد من الطريق نفسه الذي رسمته له سالي إلى مكتبه، ينتظر قدوم ذلك المسؤول وقلبه يضرب بعنف.. وبعد دقائق دخلت إليه سالي ومعها ملف ضخم..

- اطّلع على هذا الملف يا سيدي، قبل أن يدخل إليك هذا المسؤول.. إنه يخصه..

- يخصّه، يجب أن أوافق على ما فيه؟..

- اطّلع على قرص الحاسوب فوقه، ستعرف كل شيء عن الموضوع بسرعة..

همس:

- أرسلتِ من يوصل أمي..

- لقد رفضت بحزم.. لم نستطع إقناعها حتى لإيصالها إلى الكراج فقط..

فكر متنهداً:

«إنها عنيدة، كنت متأكداً في داخلي أنها سترفض»

قالت سالي:

- إنها سيدة عظيمة كما تبدو يا سيدي..

- شكراً لك يا سالي، أنا أراقب مافي الديسك.. أبلغيني عندما يحضر الرجل الذي ننتظره.

- حاضر يا سيدي...

(٩)

قرأ قاسم شيئاً عن المسؤول الذي يزوره، كان رجلاً مهماً قراراته نافذة، وكان يزمع إنشاء جامعة تكنولوجيّة خاصة مع شريك له.. خمّن قاسم أن الشريك هو أحد الأعضاء البارزين في الجمعية..

كان المطلوب منه أن يحاوره، ويعده بتزويده بالجامعيين والمهندسين اللازمين لتحقيق المشروع.. أليس هو المدير العام للتكنولوجية التطبيقية.. الفرع الإقليمي؟.. أي الفرع الذي يشمل الإدارة في عدة دول في المنطقة..

وأتى المسؤول، كان رجلاً قصيراً، بكرش منتفخ، قام بعدة حركات تبيّن لقاسم بعدها أنه عضو في الجمعية، لم يجبه بإشارات مماثلة، وإنما بالغ في الترحيب به.. ثم وعده بتلبية كل طلباته في الوقت المحدد.. كانت الساعة قد قاربت الثانية والنصف..

أصرَّ عليه المسؤول أن يذهب معه لتناول الطعام في أحد الفنادق الضخمة، لكن قاسم أصرَّ على الاعتذار، مؤكداً للمسؤول أنه سيلبّي دعوته حالما يبدأ مشروعه...

ودّعه بجفاوة، وعاد إلى مكتبه، مع سالي.. كان يبدو عليه الإرهاق الشديد..

- أنت متعب يا سيدي، يجب أن تذهب إلى البيت وترتاح، ليس بالضرورة أن تأتي في المساء.. قد تكون هناك مواعيد مسائية خاصة، يمكنك إنجازها في البيت..

- وأنت يا سالي؟..

- كما ترغب يا سيدي..

- مارأيك لو نتناول الطعام سوية..

- لم يحن الوقت بعد لمثل ذلك، إن رغبت سآتيك عند العصر بعد أن تستيقظ من نومك..

- اتفقنا.. سأذهب الآن إلى البيت..

خرج قاسم من المبنى وسط انحناءات الموظفين الذين قابلهم، وقد قادته سالي في طريق خلفي إلى المرآب حيث وجد (ديراك) بانتظاره.. وهو يفتح له الباب باحترام..

لم يتكلم في الطريق، وقد لحظ (ديراك) إرهاقه.. وحين وصلت السيارة إلى الفيلا ودخلت الباب، استقبلته (هنا) الوصيفة كما دعت نفسها.. وقادته باحترام إلى غرفة نومه ليبدل ملابسه تمهيداً لتناول الطعام..

تناول طعامه في مائدة مفتوحة تعجُّ بالخدم والحشم، يشرف رجل كهل على سكب الصحون وتلبية أوامره.. وحينما انتهى من الطعام المتعدد الشهيّ، توجه صوب غرفة نومه تصحبه هنا..

- أتريد أن أدلّك جسمك يا سيدي؟ ستنام بعمق..

- ولكن؟..

- دقائق يا سيدي.. سترتاح، تأكد..

- حسناً..

هل بدأت النعمة والبطر تسلب فيه إرادته.. خلال دقائق كان يغطّ في نوم عميق، وأصابع هنا الرشيقة تستل تعبه.. غرق في أحلام وردية، رأى نفسه فيها تارة مع هنا، وتارة مع سالي التي تقمصت شخصية زوجته، وقادته إلى المكان الذي قابل فيه والدته..

ورأى فجأة كأنه ووالدته في القرية وطرقات القرية ودروبها تزدحم بضفادع كبيرة الحجم.. شعر بالخوف، وقد رأى تلك الضفادع الضخمة تهاجمه ووالدته ثم استيقظ مرعوباً.

كانت هنا قد فتحت الباب ودخلت على شهقته..

- كابوس؟.. اشرب الماء تفضّل..

- يبدو أنني أكثرت من الطعام، كنت جائعاً..

- تشرب القهوة؟..

- لا بأس..

نظر إلى ساعته، ستأتي سالي بعد قليل، في السادسة لديه موعد مع مفيد، يجب أن يراه، أتت هنا ومعها القهوة..

- القهوة يا سيدي.. تتناولها هنا أم في مكتبك؟..

- في مكتبي أفضل..

- سالي تنتظرك هناك، ومعها بعض البريد السريع..

(١٠)

وقفت سالي باحترام لدى وصوله، وكانت تحمل بعض المغلفات المختومة، تركتهما هنا، وجلس قاسم يشرب القهوة، ثم دعا سالي للجلوس، فجلست على طرف المقعد باحترام..

- في العادة تجلبين البريد إلى هنا؟..

- أنت طلبت ممن نفذوا الأوامر أن يقدموا تقاريرهم عن عملياتهم.. أعتقد أنها بعض تلك التقارير، وهي مختومة لتراها بنفسك فقط..

لم يكن يرغب أن يفتحها الآن..ولولا عدسات التصوير وأجهزة التنصت لتبادل الحديث بشكل مفتوح وسالي.

سألته:

- ألن تفتح المغلفات؟..

- لا.. بعد قليل أريد أن أتبادل الحديث معك يا سالي بعيداً عن العدسات وأجهزة التنصت..

- لندخل في الغرفة الجانبية هنا، إنها خالية تماماً من مثل هذه الأجهزة والعدسات..

- متأكدة؟ هذا شيء مريح تماماً.. تفضلي..

أغلق الباب خلفهما سألته:

- معجب بي يا سيدي؟..

- بالتأكيد.. أنت تشبهين زوجتي شبهاً عجيباً.. وتضعين الرائحة نفسها.. كيف تورطتِ يا سالي وأصبحت جزءاً من اللعبة؟..

- آه يا سيدي.. توفيت أمي وأنا في العاشرة من عمري.. وأصلتني زوجة أبي عذاباً مستمراً، أخرجتني من المدرسة وتحولت إلى خادمة ذليلة مهانة..

- ألم يدافع عنك والدك؟..

- لم أجرؤ على البوح له بشيء، وقد هددتني بتعذيب أخويّ الصغيرين، واستمر الوضع نحو أربع سنوات، وفي السنة الأخيرة بدأت اكتشف علاقة مريبة لها برجل غريب.. ولم أجرؤ على مفاتحة أبي.. ولكن النذل حاول مغازلتي، فصحوت يوماً لأرى أخوي الصغيرين قتيلين، وهي تمسك بي وتصرخ..

- تعال يا فهد وانظر ما فعلته ابنتك...

- المجرمة؟ كيف فعلت هذا؟..

- انتفضت مفجوعة وقد انفجر قهري:

- ويلي عليهما.. آه.. قتلتهما أيتها المجرمة الدنيئة.. أين عشيقك، لابدَّ أنه ساعدك في قتلهما.

انفجر والدي:

- اخرسي أيتها المخبولة، كيف تجرؤين على الكلام مع المرأة التي ربّتك و حتضنتك؟

- تريد أن تتستر على جريمتها، لقد أطلقت تهديداتها بقتلهما، لم تعد تحتمل لعناية بهما.

- أيتها الشيطانة الشريرة، أيمكن أن أقتل أخويَّ، أيمكن أن أقتل طفلين بريئين؟ لم أعد أحتمل كذبك وخيانتك وتعذيبك لنا.. أنت وعشيقك الذي يزورك على أنه أخوك.. آه يا أبي تزوجت شيطانة قاتلة خانتك وخنقت أولادك..

نهرها:

- اسكتي قلت لك.. كانا طفلين بريئين.. اسكتي.. اسكتي..

- لن أسكت، أنت من قتلهما وقتلني، ودمرت حياتنا بزواجك من هذه المرأة.. التي تخونك في فراشك، وتعاملنا أنا وأختي كالخدم، وتسلط علينا كل صنوف العذاب.

قالت المرأة متظاهرة بالتأثر:

- سامحك الله، لم أرَ في حياتي فتاة ناكرة للجميل، شيطانة شريرة مثلك..

وحضر رجلها:

- ماذا يجري؟ يا إلهي ما هذا؟ هل هما ميتان؟.. ماذا حدث يا أختي؟..

قلت لوالدي:

- وأتى الوغد ليكمل مسرحيته.. هو يعلم أنكَ لست بأخيها، يعلم أنكَ عشيقها..

- اخرسي.. سأريك أيتها المأفونة ما سأفعله بك..

قال الرجل بسخرية وهو يشير إلى أبي:

- عرف أخيراً.. لا يهم، هو لا يملك شيئاً في هذا البيت.. يكفي، اطرديه واطردي هذه المتعجرفة الحمقاء

- ماذا يحدث؟ أمعقول؟..

قلت مفجوعة:

- آه.. كنتَ تعاملنا كالغرباء، وهذه هي النهاية المنتظرة لنا يا أبي.. آه يا إلهي..

سألها الرجل:

- هل أطردهما؟..

قالت بحقد:

- لا.. يجب أن نخابر الشرطة ليروا جريمة هذه الحمقاء.. نحن نشهد، وهو سيصمت، ولن يتكلم، انظر إليه إنه يصفرّ ويزرقّ..

هزَّ رأسه:

- فكرة ممتازة.. سأخابر الشرطة..

رغم صراخي ورفضي فلقد اقتادتني الشرطة وسط تهويل تلك المرأة وعشيقها، أما أبي فلقد نقل إلى المستشفى، حيث فارق الحياة هناك.. وضعت

في سجن الأحداث، وهناك درست وتعلمت وأتى رجل كبير السن يخرجني، وأنا في التاسعة عشرة من عمري..

- هيا يا ابنتي ستعيشين معي وستكملين تعليمك..

- من أنت يا عماه؟ لم أرك من قبل؟ ثم ماذا عن فترة حكمي التي أقضيها هنا؟..

- تمكن المحامي الذي وكلته من إخراجك بحيثيات وضعك الصعب مع زوجة أبيك.. أنا أحد أعمامك كنت مغترباً، وجئت لأستقرّ هنا، علمت بوضعك، وجئت لأخرجك لتعيشي معي..

- عمي؟ لم يحدثني أبي عن أعمامي أبداً؟..

- هذا تقصير كبير منه.. على كل حال قَصَّر كثيراً في حقكم.. وانتزعت تلك المرأة منه كل شيء...

وأكملت سالي وهي تتنهد بحرقة:

- عشت معه أربع سنوات، وكان مثالاً للطيبة رغم غموض حياته، وبعد أن أنهيت تعليمي أتى من يعرض عليّ هذه الوظيفة، حيث خضعت لدورة تدريب، علموني فيها أن أنفذ أوامرهم دون اعتراض.. ولم أرَ عمي بعد ذلك، برغم أنني أعيش في البيت نفسه الذي كان يعيش فيه..

- وهل أصبحتِ عضواً في الجمعية؟..

- نعم.. تعرضت لتجارب صعبة قبل أن أخضع لمراسم الانضمام للجمعية.. وكانت مرهقة متعبة.. وعلمت فيما بعد أنهم تابعوا وضعي في سجن الأحداث، ثم أرسلوا ذلك الكهل الذي قال: إنه أحد أعمامي، وربما

كان كذلك، وهو عضو في جمعيتهم ليدفعني في طريق لا أرى وسيلة للخروج منه أبداً.. أترغب بشيء يا سيدي؟..

- ولو أردتكِ، أتقدمين لي نفسك؟..

- سأنفذ أوامرك مهما كانت، وتأكد أنني لم أسلم نفسي لأحد من قبل..

- وكيف وثقتِ بي كل هذه الثقة وبحتِ لي بأسراركِ؟..

- لا أعرف يا سيدي.. أشعر أنك مدفوع للعمل، دون أن تكون بيدك حيلة.. مثلي أنا.. هه.. كاد الوقت أن ينتهي إنها السادسة إلا الربع..

- اسمعي يا سالي أشعر بميل إليك، وأريد أن تزداد علاقتنا قوّة مع الزمن.. أحتاج إليك كثيراً أحتاج إلى أحدٍ أثق به إلى جانبي..

- وأنا يا سيدي.. في حاجة إلى من يقف إلى جانبي.. أشعر أنني وحيدة في صحراء..

لم يدرِ كيف ضمَّ الفتاة إلى صدره وقد شعر أن طيف زوجته يباركه.. ثم خرجا إلى المكتب.. ودخلت (هنا) لتهمس إليه أن الحمام جاهز لاستقباله قبل أن يبدأ بمقابلة زواره.. فشعر بالضيق ولحظت سالي ذلك..

- اعتقدوا أنني قضيت معك وقتاً محموماً... لا بأس يا سيدي لا تتأثر..

- حسناً... سأراك في الغد يا سالي...

- إلى الغد يا سيدي...

(١١)

هزَّته قصة سالي من الأعماق.. وعرف أن أغلب من يحيط به من الخدم والوصيفات دفعوا من ظروفهم إلى العمل في مراكز تلك الجمعية الدولية الغامضة، والخضوع لأوامر قادتها مهما كانت تلك الأوامر..

في نحو السادسة، كان مستعداً لاستقبال مفيد صديق طفولته، وهو في كامل أناقته، كان مفيد مبهوراً بفخامة ما يرى، وهما يجلسان في غرفة أُعدّت للزوار.. وكان قاسم خائفاً أن تكون خاضعة للمراقبة والتنصّت... لذلك كان حديثه مع مفيد متكلفاً، ولم يجد بدّاً من اصطحابه إلى الشرفة، التي خمّن أنها قد لا تحوي تلك الأجهزة المخيفة...

- إنه مكان أشبه بالجنّة يا قاسم.. أنت محظوظ بهذه الوظيفة التي تستلمها الآن، وفور وصولك كانت جاهزة.. كم هو مرتبك؟ لابدّ أن يكون عالياً جداً...

- نعم.. نعم.. حدثني يا صديقي عن أحوالك وأحوال العائلة.. وأحوال أهلي.. لم أرَ أحداً منهم..

- سأحدثك بكل شيء.. ولكن عدني أولاً بأن تحقق لي هذا الطلب..

- أي طلب؟..

- أن توظف ابنتي هنا، نحن نحتاج إلى وظيفتها، هي تحمل شهادة عالية في الاقتصاد..

- لا بدَّ أن حالتك الماديّة ليست على ما يرام..

- بالطبع، ظروف الحياة شديدة الصعوبة يا دكتور.. أرجو ألاَّ أكون أثقلت عليك.. وأرجو أن تعينها في مكان مناسب مع راتب من تحمل الخبرة... رغم أنها لم تعمل من قبل.. ولكني أطمع في كرمك، وألاَّ تنسى ذكرياتنا معاً، وقد كنّا صديقين لفترة طويلة من الزمن.. هذه هي إضبارتها.. وكل الأوراق اللازمة حسناً يا مفيد، سأرى ما أستطيع فعله... وسأبلغك الخبر في القريب العاجل إن شاء الله..

حالما خرج مفيد، من مكتبه امتدت يده إلى المغلفات المختومة ليطالعها ويقرأ التقارير عن تنفيذ العمليات التي طلبتها الجمعية..

فتح المغلّف الأول كان تقريراً من الشاب الذي نشر بيوض الزواحف وزرعها في خزان المياه الرئيسي في المدينة المقرر نشرها فيها، إضافة لبرك ومستنقعات القرى المجاورة، وكانت البيوض تحتوي على بيوض ضفادع وبرمائيات وأفاعي مائية... وكاد يتجمّد من الرعب وهو يقرأ اسم القرية التي تعيش فيها أمه، بين أسماء القرى التي وزعت فيها البيوض... ظلَّ للحظات يشعر بالذهول والقلق، قبل أن يقرر استدعاء والدته إليه لتعيش معه قبل أن تبدأ كارثة تفقيس البيوض ...

امتدت يده إلى المغلف الثاني، كانت عملية حرق البيت قد تمّت بنجاح، ويعتقد الشاب الذي نفّذ العملية أن من كان في البيت قد تعرّض لخطر الحريق، دون أن ينجح في النجاة نظراً لأن المواد التي سبّبت الحريق كانت سريعة الاشتعال.. ولم تحضر سيارات الإطفاء إلا بعد أن أصبح كل شيء رماداً..

شعر قاسم أنه يغوص في كابوس مريع.. أمعقول أن تسير حياته في هذا الاتجاه المخيف؟ لم تمضِ أيام على مجيئه، وهو متورط إلى أذنيه في قضايا اعتبرها مزحة في البداية، ثم بدأ يستشعر خطرها، ولكن بعد فوات الأوان...

أما الآن فهو ينقل أوامر من الكبار للتدمير والحرق والتخريب، وينفذها متورطون مثله، مسحوا من أذهانهم نزعة الخير، وأصبح أذى الإنسان أمراً طبيعياً عندهم.. ولكن أليس هو واحداً من هؤلاء؟.. وما السبيل إلى المقاومة؟.. كيف يستطيع التمرّد عليهم؟.. لقد رأى ما يمكن أن يفعلوه به إذا حنث بقسمه للجمعية

فتح قاسم المغلف الثالث، كان يحوي تقريراً من الفتاة الصارخة الجمال، لقد نفّذت أوامرها ببساطة، وانفجرت سيارة ذلك الثري ليصبح أثراً بعد عين.

تذكر تلك الفتاة، ستأتيه في العاشرة.. هو من أوحى إليها بالمجيء، لماذا؟ هل شدّه جمالها أم قسوتها وهي تعلم أنها ستقتل رجلاً متيّماً بها؟ شعر بدوار يصيبه.. ورنَّ جهاز الهاتف إلى جانبه...

- آلو.. نعم أنا الدكتور قاسم..

- أنت تؤدي جيداً يا دكتور.. نحن فخورون بهذا الأداء... سنوظف ابنة صاحبك مفيد..

- عفواً أنت من...

رد مقاطعاً:

- نعم.. أنا المسؤول عن أدائك، نحن نعرف كل شيء عنك، وعمّا تفعله وعمّا تريد فعله.. أراك تشعر بالتردد والقلق.. احذف هذا من قاموسك تماماً.. كما قلت لك: أنت مرشح لمناصب أكبر بكثير..

أغلقت السماعة، تنهد برعب إنه المسؤول عن مراقبته وأدائه، يبدو أن كل شيء يُحصى عليه حتى أنفاسه..

ويتذكر قاسم تلك الصبيّة (مالا) التي رافقته في أثناء إقامته في ذلك المركز السرّي للجمعية، ويتذكر ذلك الرقم ولكنه يقرر تأجيل الاتصال بها حتى يتمكن من الزوغان إلى مكان ليس فيه مصوّرات مراقبة سرّية وأجهزة تنصت..

كان القلق والخوف يسيطران عليه، وهو يرى أن البشرية لم تستطع الخلاص من الطغيان مع بدء القرن الحادي والعشرين الذي كان الخبراء يتوقعونه أفضل من القرن السابق..

ولكن ومضة ضوء لمعت في وجدانه، فانتشى وهو يشعر أن دم التحدي لهذا الواقع البغيض، قد بدأ يسري في عروقه... فنهض وقد صمم على الخروج من حصاره مهما اشتدت الصعاب..

وقد بدأت في مكان ليس بعيداً عنه، آلاف البيوض الصغيرة لزواحف وبرمائيات تفقس في خزانات المياه، والبرك والتجمعات المائية الصغيرة، تنتشر زاحفة مهددة تلك المنطقة بخطر كارثي مخيف..

(١٢)

في نحو العاشرة من تلك الليلة جاءت تلك الفتاة الصارخة الجمال وهي في كامل أناقتها، كان ذهن قاسم مشوشاً مضطرباً، ولكنه أحبَّ أن يعرف قصتها.. أدخلها الغرفة الخاصة حيث لا أجهزة مراقبة وتنصّت.. الغرفة التي قابل بها سالي..

- أهلاً.. أهلاً بك... ذكريني باسمك..

- (نيللّي).. نسيتني؟..

- كيف؟ معقول؟ جمالك الصارخ لا ينسى.. كيف كانت نتائج العملية؟..

- ألم تقرأ التقرير يا سيدي؟.. ابتسامة وغمزة مني جعلت العملية شديدة السهولة، كان المسكين متيماً بحبي..

- اجلسي لماذا تقفين؟ ماذا تشربين؟..

- اطلب ما تشاء، سأشرب أي شيء تطلبه، أثق بذوقك يا سيدي..

- لا بأس...

طلب شراباً منعشاً كأسين من عصير البرتقال الطازج... سألها:

- أراكِ تدققين النظر فيما حولك؟ لا تقلقي الغرفة خالية من عدسات التصوير..

- هل آخذ راحتي؟..

- بالطبع.. وأريد أن أستمع لقصتك حتى نصبح قريبين بعضنا من بعض..

- تبدو مختلفاً عن الآخرين..

لم يكن يبدو عليها أنها في وضع من لها قصة محزنة... قال لها:

- اسمعي يا نيللّي..

- نعم يا سيدي.. أنا جاهزة لخدمتك..

- كيف أصبحت تعملين معنا؟ ومنذ متى؟..

- منذ سنتين وأنا أشعر أنني في العالم الذي أحبّه.. أعمل مع أناس أقوياء لا يهمهم شيء في الوجود سوى مصالحهم.. يغدقون عليّ المال والمتعة... أستطيع أن أشتري أي شيء، أستطيع أن أتمتع بحياتي دون ضابط.. إيقاعات حياتي مختلفة، ودوماً هناك المثير والممتع..

- يبدو أنك نفذتِ مهامَّ كثيرة؟..

- بالطبع يا سيدي.. مهمّات خطيرة، مثيرة.. قتلت حتى الآن أكثر من عشرة أشخاص، من بينهم ثلاث نساء.. لا تنظر لي كضعيفة، أنا شديدة القوّة..

- والداك موجودان؟..

همست بغنج:

- هذا الشيء الوحيد الذي أعاني منه.. أنا لا أعرف عنهما شيئاً.. يقال

إنهما قتلا في انفجار، ما نوع هذا الانفجار؟ لا أعرف.. كنت طفلة صغيرة حين تبنّاني شخص كثير الثراء.. وحينما كبرت تزوجني.. بعض الوقت قبل أن يموت.. أصابه احتشاء قلبي..

شعر بالدهشة.. تزوجها من ربّاها، معقول؟.. لابدّ أنه أحد العناصر الخطيرة في المنظمة، وربما هو المسؤول عن الانفجار الذي قتل والديها؟..

سألها:

- لم تستفسري عنهما؟..

- ولماذا؟ لم أتذكر شيئاً عنهما، شيئاً من ملامحهما، ربما كنت أصغر من أن تعلق بذاكرتي صورة أي منهما...

تململت وثوبها ينحسر عن ساقيها:

- هل أنهيت أسئلتك؟ هل أبدأ بـ...

قاطعها:

- سنشرب العصير.. ألا تشعرين بالعطش؟..

- كما تشاء يا سيدي..

شعر قاسم أن الفتاة تشكل أداة كبيرة مرعبة في أيدي المشرفين على تلك المنظمة الدولية الغريبة، التي وضعته في دائرتها... دون أن يملك الرفض..

كانت مبرمجة لتنفيذ أي شيء، دون أن تلقي بالاً للأعراف والعلاقات الإنسانية، فالمهم أنها كانت تتصيّد المتعة، والنفوذ..

إنها أشبه بحيوان مدَجَّن، لا إحساس لديه بالحريّة.. شعر قاسم بأنه لم يستطع مجاملتها أكثر من ذلك، فضغط زراً خفيّاً لتحضر سالي.. لم يكن يتوقع ظهورها.. كان ينتظر أن تطلّ عليه وصيفته (هنا)..

- لديك بريد طارئ يا سيدي؟ عذراً على هذا الإزعاج..

- لا بأس، نيلّلي ليست غريبة..

- سأحضر البريد، إنه عاجل جداً..

- لا بأس، أنا جاهز..

قال لها بعد خروج سالي:

- تعالي إليّ غداً في المكتب أنا معجب بك، سأمنحك مكافأة مالية..

- شكراً يا سيدي.. أنا لم أؤدِ واجبي تجاهك..

- أمامنا أيام مقبلة ملأى بالمتعة، قد نتمكن من استغلالها...

- وأنا جاهزة لأي إشارة منك..

دخلت سالي:

- البريد يا سيدي على مكتبك ينتظر التوقيع..

- أوصلي نيللي إلى الباب يا سالي..

- سأفعل يا سيدي..

جلس على مكتبه وهو يتنهد بارتياح:

«الحمد لله أتت في الوقت المناسب.. يا لسالي من فتاة حاذقة؟..»

وحين عادت سالي قالت له:

- أبلغتني (هنا)، أن نيللي هُنا.. هي فتاة جميلة، ولكنها تثير الأسى.. جئت بسرعة، لأنني تأكدت أنك ندمت على إعطائها هذا الموعد...

- معك حق..

قلّب الرسائل:

- إنها رسائل هامة لا تحتمل التأجيل فعلاً... لماذا لم ترسليها عبر الحاسوب؟..

- نحن لا نتعامل مع الحاسوب كثيراً، قد يدخل الغرباء علينا.. ويكشفون أسرارنا..

- معك حق، كيف فاتتني هذه الملاحظة الهامة...

- حسناً يا سيدي أنا ذاهبة.. سنلتقي في المكتب غداً..

همس إليها:

- ألا تستطيعين المكوث بعض الوقت؟..

- لا يا سيدي، لديَّ بعض الأعمال في البيت..

- مع السلامة، أراكِ غداً..

وأتت (هَنا) تسأله إن كان يرغب بتناول العشاء.. فطلب عشاءً خفيفاً، ثم تذكر فجأة الرقم الذي كتبته له (مالا)، لابدَّ أنه لهاتف نقّال، كيف له أن يتّصل بها، إنه يحفظ الرقم جيداً..

كان لا يعرف كيف يتصل بها، وبأية واسطة، كل أجهزة الهاتف مراقبة في المنزل والمكتب، وهناك من يحصي حركاته وأنفاسه في كل مكان..

دخلت (هَنا) إليه بعد قليل، تدعوه للعشاء.. رافقها إلى صالة الطعام..

- هل تناولت طعامك؟..

- ليس بعد، أنا أنتظر أن أنهي التزاماتي يا سيدي..

- اجلسي هَنا.. أنا أدعوكِ لتناول العشاء معي..

- هذا لا يجوز يا سيدي.. لم يفعلها أحد قبلك..

- لا بأس.. أنا آمرك.. اجلسي إلى جانبي..

- ولكن هذا؟..

- لا بأس، لست أشعر بشهية، قد تساعدني مشاركتك لي في تناول الطعام.. قولي لي يا هنا منذ متى وأنتِ تعملين في هذا البيت؟..

- منذ أربعة أعوام.. كنت قبلها أعمل في مصنع التبغ.. مراقبة عمّال.. أتى ذات يوم رجل أعمال وتعرّف بكفاءتي التي شهد بها الجميع، ثم اصطحبني معه كأمينة سر خاصة مسؤولة عن شؤونه الخاصة فقط..

- وكيف تعلمتِ هذه المهنة الدقيقة، التي تحتاج إلى استيعاب أوامر معلمك بسرعة وفهم رغباته؟..

- أخضعني الرجل لدورة في معهد متقدم لمدة شهرين.. كان رجلاً صعباً أتعبني كثيراً في البداية، حتى نجحت أخيراً في فهم أسلوب حياته..

- وكيف حضرت إلى هنا؟..

- هو من قدمني للمدير السابق.. الذي عرض عليّ العمل وصيفة خاصة، بأجر مغرٍ ولم يمانع معلمي الأول...

- أليس لك أهل؟..

- كان لي، ولكني لا أعرف شيئاً عنهما الآن..

- وكيف انفصلتِ عنهم؟..

- إنها قصة طويلة يا سيدي.. لا أحب الخوض فيها.. إلاّ إذا أمرتني..

- لا.. لا.. لا أريد أن نخوض في حديث يزعجك...

- أعجبتك نيلّلي يا سيدي؟..

- هي جميلة، ولكني لم أنجذب إليها..

- تقصد أنك..؟

- نعم.. ليس من السهل عليّ أن أمثل دوراً مع امرأة لا تعجبني..

- وسالي، ماذا عنها؟ ألا تعجبك..؟

- إنها أمينة سر ممتازة.. وهذه ميزة كبيرة بالنسبة إلي.. وماذا عنك؟ أنتِ فتاة جميلة ولكِ تجارب خاصة

- لا يا سيدي، يبدو أن أنوثتي ليست كاملة، لم يشعرني أحد بأهميتي كأنثى..

- معقول؟ أنت أنثى رائعة.. جميلة ودافئة..

نظر إلى ساعته:

- لقد تأخر الوقت يجب أن أستعد للنوم..

- لم تأكل سوى لقيمات؟..

- إنها كافية..

- هل أدلّك لك جسمك لتنام بسرعة..

- إن شعرت بحاجة لذلك سأطلبك..

شعر قاسم بالشفقة عليها، ولجأ إلى فراشه، يستعرض أحداث يومه.. ثم غفا أخيراً، ورأى أحلاماً مزعجة عن أناس يطاردونه، وحيوانات مفترسة تحاصره، ثم رأى أمه وسط النيران وهي تستغيث به..

واستمرت أحلامه المزعجة حتى أيقظه قرع هنا على الباب، ليستعد

للذهاب إلى العمل.. بعد الإفطار السريع، صعد في السيارة مع (ديراك) متجهاً إلى المكتب.. وقضى ذلك اليوم في عمل معتاد حتى نحو الواحدة والنصف حين دخلت إليه سالي ومعها أوراق.. وهي تهمس وقد بدا عليها الحزن:

- بريد آخر الدوام يا سيدي، يبدو أن الزواحف والبرمائيات قد خرجت من بيوضها تنتشر في المنطقة، وقد وصلت أخبار أنها تزداد حجماً بسرعة كبيرة حتى الضفادع وصلت إلى حجوم كبيرة أرعبت الناس..

- يا إلهي وأمي.. إنها تتعرض للخطر الآن.. ماذا أفعل ياسالي؟..

قالت له دون أن تحرّك شفتيها:

- رتبت لك كل شيء، لا تقلق..

أعطته سالي هاتفاً نقّالاً صغير الحجم، وكانت قد أخبرت ديراك أنه يريد الذهاب لمنزل المتعة المنزوي، الذي يلجأ إليه المدير حين يرغب.. وكانت قد رسمت له كيفية الخروج من باب خلفي والصعود بسيارة أجرة، بعد أن يغيّر بعض ملامحه ليتجه صوب المنطقة المنكوبة..

(١٣)

كان الوضع غريباً في تلك المنطقة، فلقد تسربت يرقات تلك الحيوانات إلى البيوت عن طريق (مواسير المياه) واستقرت في الخزانات.. وخلال فترة قصيرة نمت وكبرت وبدأت تنتشر في البيوت حيوانات زاحفة، مختلفة.. ضفادع، أفاعي ماء، برمائيات، ديدان.... وانتشر الرعب في المنطقة... وفي منزل والدة قاسم كان الوضع غريباً.. كانت العجوز وخادمتها (لمعة) تقاومان الوضع الصعب ولحظت لمعة ضفدعاً كبير الحجم يتسلل عبر النافذة فصرخت برعب..

- لا تخافي يا (لمعة) سنطرده إلى الخارج..

- كيف يا سيدتي آه.. شيء لا يصدق..

- تعالي معي يا لمعة، وارتدي الحذاء المانع للماء والمطر.. هيّا..

- وماذا تريدين أن تفعلي؟..

- سنتفقّد الخزانات وننظفها ونغلقها جيداً.. ثم نهجم وننظف كل آثار الزواحف هنا في المنزل..

- هذا عمل صعب يا سيدتي.. وهو عمل شديد الخطورة.. قد تهاجمنا تلك الزواحف وتقتلنا..

- سيساعدنا الله... لا تقلقي..

وفَحَّتْ أفعى قربهما وقفزت لمعة خائفة:

- أفعى تتجه صوبك يا سيدتي؟..

- من أين أتت هذه اللعينة هي ليست حيّة ماء..

لاحقتها بالعصا دون أن تستطيع إصابتها.. ولكنها أخرجتها خارج البيت ..، حاولت العجوز وهي ترتدي ولمعة كفوفاً سميكة، أن تجرف مافي الحوض الأول، ولكنها فوجئت بالضفادع كبيرة الحجم تقفز منه، وتنتشر على السطح، ورأت أن الحوض يمتلئ بالحيوانات الزاحفة السارحة...

رأت أن عملية المقاومة مستحيلة.. فأعادت غلق الحوض وأخذت ولمعة تطاردان الضفادع كبيرة الحجم لدفعها خارج البيت.. ولكن الضفادع هاجمت لمعة بأصابعها وأسنانها الصغيرة، فكاد يغمى على المسكينة من الرعب، ونجحت العجوز في تخليص لمعة منها ودفعها خارج البيت..

كان طعم الماء قد اختلف، بل وأصبح ساماً في بعض الأمكنة، لما تطرحه تلك الكائنات فيه من مخلفات وسموم.. وفي تلك الليلة وصل قاسم إلى بيت والدته، فرأى حالة الرعب التي تعيشها وخادمتها لمعة.. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً..

لابدَّ أن لأولئك سبباً في فعل ذلك، صفقة رابحة، أو القضاء على خصوم، أو حتى استثمار تلك العملية من أجل غايات معينة.

كان عليه أن ينقل والدته إلى بيت آخر، وهذه كانت مشكلته الأولى..

- لا يا بني، من المستحيل أن أترك هذا البيت، للخراب، كيف؟ ستتكاثر فيه تلك الحيوانات لدرجة أنها قد تخربه إن هجرته وسيصبح موطنها.. أمعقول أن أسلمه لها بهذه البساطة؟..

- هذا يشكل خطراً عليك يا أماه.. يجب أن نبتعد لأيام على الأقل.. سأكلف فرق المكافحة بتنظيفه، اطمئني..

- مستحيل، لن أغادر بيتي أبداً، لأن هذه الزواحف الكريهة تنتشر فيه..

سألته لمعة:

- ما الذي حدث حتى ظهرت هذه الحيوانات المرعبة فجأة؟ أتعرف السبب يا دكتور؟..

- لا.. لا.. لا أعرف..

لحظت والدته تململه من السؤال:

- ما بك ترتبك هكذا؟ لابدَّ أنك تعرف..

- ماذا تقولين يا أماه؟ معقول؟

اتصل بشاهدٍ صديقِ طفولته في القرية ليطمئن عنه فقال شاهد:

- نحن في أسوأ حال... بدأ الناس يموتون هنا.. اتصل بالمسؤولين، وحرضهم على إرسال فرق مكافحة لإنقاذ المنطقة.. السكان يفرّون برعب..

- ألم يتصل أحد حتى الآن؟..

- اتصل الكثيرون، ولكن يبدو أن لا أحد يكترث لما يحصل هنا..

- معقول؟..

- أشك أن تنفجر منطقتنا هكذا بالأحياء الزاحفة المتلويّة القافزة فجأة دون سابق إنذار..

- ما تقصد يا شاهد؟.

- لابدّ وأن العملية منظّمة بفعل فاعل.. اسمع يا قاسم، هل نستطيع أن نلتقي، منذ سنوات لم أرك قد تشير علينا برأي نستطيع أن نقوم به لإيقاف الكارثة..

- والدتي تعيش وحيدة في بيتنا القديم، وهي ترفض أن تغادره، والحيوانات تنتشر في كل الزوايا، أنا خائف عليها من خطر هذه الحيوانات، وهي ترفض أن تغادر..

- سأرسل لها أمي واثنتين من أخواتي لمساعدتها.. أنا بانتظار قدومك إلينا.. أرجوك لا تتأخر..

- سأحاول.. مع السلامة

كانت لمعة تصرخ وتبكي:

- آه.. الضفادع تعضّني.. أرجوك يا سيدي.. أنقذني..

- لا تخافي، إنها غير سامة.. أمي أرجوك.. يجب أن تذهبي معي إلى مكان آمن، وأعدك أن أنظف البيت، ثم تعودين إليه بعد أن يصبح آمناً.. انظري إلى لمعة تكاد تموت من الرعب، أشفقي عليها على الأقل

- سأرسل لمعة إلى أهلها، وسأبقى هنا، أشرف على إعادة تأهيل بيتي..

كان منهاراً متعباً:

- «لا فائدة.. يا إلهي.. الضفادع والزواحف تتَّجه صوب أمي.. إنها تردّها بالعصا دون خوف.. آه ماذا أفعل؟ أنا من سببت هذه الكارثة، لو استطعت إلغاءها لكان ذلك أفضل، حتى لو احتجّ أولئك الناس عليّ..»

وشارك قاسم أمه في التصدي للحيوانات، وبعد قليل حضرت والدة شاهد وأختاه، كنَّ مسلّحات بأدوات فاعلة لقتل وجرف الحيوانات التي بدأت تتدفق من كل مكان.. ولم يتمكن قاسم من مغادرة المكان لخوفه على والدته...

ولكن هاتفاً غريباً وصل إليه:

- يسألون عنك يا سيدي، يريدونك أن تلتحق بالعمل فوراً..

- وماذا قلت لهم يا سالي؟..

- قلت لهم إنك ترتاح في مكان منعزل مع بعض النسوة..

- ماذا؟ أرتاح؟..

- آسف يا سيدي.. كان يجب أن أذكر لهم شيئاً، لا يشكون فيه ويصدقونه.. أغلب المديرين الذين سبقوك كانوا يقضون أوقاتاً طويلة أحياناً مع النساء...

- شكراً لك يا سالي.. سأحاول أن أعود بسرعة... مع السلامة...

كان عليه التحرك بسرعة، والالتقاء مع شاهد، والحرص الشديد على التخفي حتى لا يكشف أمر وجوده في المنطقة أحد من العاملين في المنظمة...

ترك والدته أخيراً، بعدما رأى أن مقاومة الحيوانات من قبلها، ومن قبل والدة شاهد وأختيه، بدأت تنجح فعلاً، وكانت الحيوانات تنتشر متحركة في كل مكان حوله...

كانت أعصابه متوترة، حين التقى مع شاهد.. وكان بيت شاهد يغلي بالحركة.. خاف أن يراه أحد، فاتصل على هاتفه النقّال ليدخله من باب خلفي...

- أهلاً بك يا قاسم.. اشتقنا إليك.. ويبدو أن وظيفتك الجديدة أبعدتك عنّا..

- ماذا أفعل؟ رأيت نفسي منساقاً لقبول العقد وبدء العمل فور عودتي..

- إنه مكان هام كما أسمع عنه.. هه.. قل لي ماذا سنفعل لإيقاف الكارثة؟...

- بدأنا في البيت نوقفها، ونخفف من آثارها...

- والدتي ماهرة في مثل هذه القضايا.. ولكني أبلغت قبل قليل أن جموع الحيوانات الزاحفة خرجت من النهر ومن البحيرات الراكدة في شرق المنطقة متجهة إلى القرى والمدن الصغيرة هنا... ويبدو أن تلك الحيوانات فرّخت بكميات هائلة... إنه خطر بيئي مخيف...

- وأنت المسؤول الأول عن البيئة هنا؟ ماذا ستفعل أمام هذه الكارثة المتفاقمة؟ إنه عمل غير عادي.. يجب أن يتعاون الجميع في الوقوف ضد الخطر..

- المسؤولون لا يردون علينا.. يبدو أن الرصاص أصبح أحد صنوف مقاومة الحيوانات عندنا.. إنه غير فعّال للكفاح ضد الحيوانات الصغيرة.. بطلقات الرصاص من الصعب إصابة هذه الحيوانات، ربما يمكن إبادتها بالنار، ولكن قد تسبب النار الحرائق في اتجاهات أخرى..

ورن الهاتف النقّال من جديد.. كانت سالي على الخط:

- أرجوك اتجه فوراً إلى عملك.. تحتاج إلى وقت حتى تصل إلى هنا.. أنا أتحمّل مسؤولية عدم معرفتهم بمكانك..

- حسناً يا سالي.. أنا قادم فوراً..

سأله شاهد بقلق:

- خير؟ يطلبونك؟..

- اسمع يا شاهد.. أنت صديقي وفي مقام أخي، لا أريد أن أوصيك بأمي.. أنا ذاهب للالتحاق بعملي فوراً، وسأبذل جهدي لمساعدتكم هنا.. سأتصل بأكابر القوم دون تردد..

- في حفظ الله يا قاسم، ولا تقلق.. والدتك في مقام أمي.. مع السلامة..

(١٤)

شعر قاسم بالقلق والخوف، وانطلق صوب العاصمة بسيارة الأجرة التي استأجرها حتى لا يثير الشكوك.. وكان متأكداً أن التغيير الذي يقوم به في تحركاته، بعيداً عن الناس الذين يعرفونه جيداً، قد لا ينجح كثيراً في تضليل من يحصون عليه أنفاسه...

كانت السيارة تقطع الطريق بسرعة كبيرة، وأمكن لقاسم أن يتابع مجموعات الحيوانات الصغيرة المتحركة في كل اتجاه، وحين وصل مفترق الطرق المطلّ على النهر، شاهد عربات مقلوبة وأناساً ممددين على الأرض والحيوانات تنهش أعضاءهم..

كانت مشاهد مرعبة، شعر أن مكافحة تلك الحيوانات ليست بالأمر السهل، وعادت الوخزات المؤلمة تثقب وجدانه، هو من أعطى الأمر، وهناك من نفّذ أوامره... والنتيجة كارثة، يعلم الله كم سيكون حجمها كبيراً. ظلّت المشاهد المؤثرة تلوح أمامه، حتى اجتاز منتصف الطريق إلى العاصمة حيث بدأت السيارات تزدحم في الطريق.. وهذا ما اضطره إلى سلوك طريق جانبي قديم، أوصله بسرعة إلى بيت المتعة الذي من المفترض أن يقضي وقته فيه مع نسوة جميلات، كما هو الحال بالنسبة إلى الذين سبقوه في تبوء منصبه هذا..

دخل من باب سرّي، ثم ارتدى ثياباً جديدة، مزيلاً آثار التنكر، وخرج ليجد (ديراك) بانتظاره، كان صامتاً، ساكناً يوحي وجهه الجامد بالغموض..

- إنها السادسة مساءً، يبدو أنني تأخرت قليلاً..

- نعم يا سيدي.. طلبوك في اللاسلكي، لم أشأ إزعاجك..

- طلبوني؟ متى؟

- قبل ساعتين، يبدو أنك قضيت وقتاً طويلاً داخل شقتك هذه..

- لم أنتبه لنفسي.. هه.. اسمع يا ديراك.. كنت السائق الخاص لجميع من سبقوني، أليس كذلك؟.

- نعم يا سيدي.. ولكن لم أكن أتدخل بشؤونهم..

- ولكنك تقدم تقريراً عن تحركاتهم باستمرار..

- عندما يطلب مني، أنا أنفذ الأوامر.. حتى الآن لم يطلبوا مني شيئاً حولك..

استغرب من ديراك أن يسترسل بالحديث دون تحفظ، هل هي ثقة كبيرة بالنفس؟.. أم سذاجة؟ إنه لا يعتقد أن رجلاً مثله يمكن أن يكون ساذجاً...

- اسمع يا سيدي، كدنا نصل المؤسسة، سأقول لك شيئاً هاماً، عندما اتصلوا يسألون عنك، كانوا غاضبين تماماً..

- كانوا غاضبين؟ ألا تعرف لماذا يا ديراك؟..

- ربما اكتشفوا أن غيابك عن عيونهم قد زاد عن الحدّ..

- شكراً لك يا ديراك..

كانت سالي تنتظره على أحرّ من الجمر.. وكان هناك بعض الناس ينتظرونه في الصالة الرئيسية المطلّة على مكتبه...

دخل وأغلقت سالي الباب وتظاهرت بأنها تقدم البريد العاجل...

- هذه الكتب تحتاج لتوقيع سريع يا سيدي

ثم همست:

- هناك أناس ينتظرونك في الصالة، أرسلتهم المنظمة..

- هل سأوقع هذه الكتب سريعاً؟..

- نعم يا سيدي.. يجب أن تقابل مراجعين مهمّين بعد أن تنتهي من التوقيع..

- راجعت هذه الكتب جيداً؟..

- نعم يا سيدي.. المطلوب أن توقع فقط...

حملت البريد واتجهت صوب الباب تفتحه وهي تقول:

- تفضّلا، سيدي ينتظركما في الداخل..

- كيف حالك يا دكتور؟..

- أهلاً وسهلاً.. خير؟..

قال أحدهما:

- ألم تعرفني؟ التقينا في قاعة «قَسَم الولاء للمنظمة»

- نعم.. نعم.. أنا آسف..

- في الواقع أرسلنا إليك على جناح السرعة.. يبدو أنك تبالغ في علاقتك مع النساء، في الخارج أناس، ينتمون إلينا، طلبنا منهم الإعلان عن إمكانية التدخل لإيقاف زحف الحيوانات الصغيرة.. مقابل شروط وضعناها نحن، ويهمنا أن تنفذ من قبل السلطات هنا...

- تريدني أن أقابلهم؟..

- نعم.. وستلبّي مطالبهم، وسنتدخل في الحوار كمستشارين، نوجهك الوجهة المناسبة..

- حسناً.. ولكني أريد أن أسأل سؤالاً..

- لا وقت للأسئلة..

- قال الرجل الآخر:

- لا بأس.. دعه يسأل..

- لماذا هذا الاهتمام بوجودي هنا بهذه السرعة؟.. أعلم أن الوقت بين لثانية والنصف والخامسة والنصف هو ملكي تماماً.. هكذا أكّدوا لي...

- سأجيبك عن ذلك باختصار، فقست بيوض الحيوانات في تلك المنطقة، بسرعة أكبر مما توقعناها، وهي تهدد بكارثة سريعة، ستتدخل أنت بمساعدة أولئك الناس الذين ينتظرون مقابلتك، وتوقف الكارثة، وتعيد الأمن للمنطقة، وعندها نفرض شروطنا نحن..

- فهمت، هل أطلب إدخالهم؟..

- بالطبع.. وبسرعة..

(١٥)

ودخل أولئك المراجعون كانوا رجلين وامرأة.. تبادلوا الحديث مع الدكتور قاسم، ورجلَيْ المنظمة اللذين قدمهما كمستشارين له..

كانت المنظمة قد رسمت كل شيء بدقة مدهشة، وهيّأت حيوانات قارضة من نوع السناجيب المتطاولة التي تلاحق الزواحف وتقتلها... إضافة إلى نوع آخر من الديدان التي تحبها الضفادع، وقد حقنت بمواد سامة تقتل الضفادع التي تتغذّى بها بسرعة مدهشة..

وهكذا تمَّ الاتفاق مع الممولين، وكانت المؤسسة العلمية التي تقدم عناصر المكافحة الحيوية لغزو الحيوانات الزاحفة، هي مؤسسة الدكتور قاسم نفسه.. وبدأ المستشاران (عضوا المنظمة) يتصلان بالمسؤولين في الدولة، الذين تنادوا بهلع لإنقاذ المنطقة التي بدأت جحافل الحيوانات الزاحفة تغزوها من كل اتجاه.. وفرضت المنظمة شروطها، ولم يعرف قاسم تفاصيل تلك الشروط، ورضخ المسؤولون لها، وانتهت المباحثات وجلسوا جميعاً يتحادثون في كيفية تنفيذ طرق المكافحة الحيوية..

- سآمر فوراً بتحريك العينات ونشرها في المنطقة هناك..

- نعم.. وقد جهزنا الرجال الذين سينفذون العملية، إنهم مختصون بيولوجيون يعملون هنا.. وجهزنا السيارات المرافقة، والخرائط اللازمة.. يجب ألاّ يدخل فجر اليوم التالي إلاّ والعينات موزعة في كل مكان لإيقاف زحف الحيوانات المتكاثرة..

- ازداد أعداد القتلى، ووصل حسب آخر الإحصائيات إلى (٢٤٠) قتيلاً عدا عن آلاف الجرحى..

شعر قاسم بفداحة المصيبة، لابدَّ أن والدته وأصدقاءه وأهالي المنطقة التي ولد فيها، يعانون من خطر حقيقي.. وربما قضى بعض منهم من لسعات الأفاعي، أو سموم البرمائيات والزواحف الأخرى..

حتى المياه الموجودة في المنطقة أصبحت غير صالحة بعد أن فقست فيها ملايين البيوض وخرجت منها حيوانات زاحفة كريهة تنشر الرعب في كل مكان...

ازداد قلقه، ومَنْ حوله يبالغون في شروطهم وصفقاتهم وأحاديثهم، دون أن يلقوا بالاً لعذاب الناس ومصائبهم كأنهم بلا قلوب ولا عواطف، وكأن ذلك صفة من يحكم العالم بمصالحه ورغباته الخاصة، مستهتراً بكل قيم الإنسان وتراثه..

خرج الجميع وانفرد الرجلان بقاسم، وقد بدت على وجه كبيرهما أمارات الجديّة والعبوس..

- اسمع يا دكتور.. نحن نتابعك في كل مكان، ونحصي عليك أنفاسك، لا تفكر أبداً أنك تستطيع الاختفاء في مكان ما نحن لا نتابعك فيه..

- أعلم كم أنتم أقوياء، وتملكون تقنيات عالية لذلك؟..

- لذلك حاول ألاّ تخفي تحركاتك، نحن نتابعك تماماً.. وثق أننا نستطيع العثور عليك في أي مكان تظن أنك ستكون فيه بعيداً عن الأعين..

- حسناً سأفعل ذلك..

- نحن نستطيع حتى أن نسمع همسك.. لذلك كن حذراً..

- هل ارتكبت خطيئة يا سيدي حتى تتكلم معي بهذه اللهجة..؟

- لا أخفيك لقد تملكنا الغضب من تأخرك عن الظهور، لم نرغب أن نفاجئك في مكان متعتك كما كنت تتظاهر باللجوء إليه.. مرة ثانية أقول لك لا تتأخر عن مواعيدك، وكن حذراً في التعامل معنا..

- حسناً يا سيدي..

- الأمور ستكون بخير، وستتبوأ منصباً هاماً آخر عن قريب.. المهم ألاّ تخطئ..

جلس بعد خروج ذلك الرجل المتغطرس ورفيقه يتنفس بارتياح، ثم دخلت إليه سالي ومعها فنجان من القهوة وانحنت محاولة الخروج فاستوقفها..

- كل شيء على ما يرام؟..

- نعم يا سيدي.. تحركت المجموعات بدقّة إلى أهدافها..

- الهاتف النقّال الذي أعطيتني، هل هو برقم سرّي لا يعرفه سوى أنت..؟

- نعم يا سيدي، لا تقلق..

- أنا متعب يا سالي أريد أن أراكِ في الغرفة الملحقة..

- بعد قليل، يجب أن تستقبل الآن رجلاً قابلته في مركز المنظمة..

- اسمعي يا سالي، ألا أحد في الخارج أيضاً؟ سأنهي المقابلات وأتفرّغ لكتابة تقاريري..

- هناك ضيف مهم ينتظر الإذن بالدخول.. هذه الورقة تلخص مطاليبه..

- أدخليه بعد دقائق..

- حسناً يا سيدي..

كانت التقارير تتحدث عن رجل له سلطات كبيرة، ويشارك العديد من الأثرياء في مشاريع تنفّذ لصالح الدولة، ما الذي يريده هذا الرجل؟.. إنه يريد أن يتعهد بعض شركائه بتنظيف جثث الزواحف والحيوانات في تلك المنطقة..

ودخل الرجل بعد دقائق، كان سميناً حليق الوجه يضع قبعة عريضة ...

- كيف حالك يا دكتور؟..

- أهلاً بك.. تفضل.. ماذا تريد أن تشرب؟..

- قهوة سادة من فضلك مع كأس من الماء البارد..

- حسناً أحضري له ما يطلب يا سالي..

- حاضر يا سيدي..

قال له بعد خروج سالي:

- حسناً أنا جاهز لأستمع إليك.. تذكرت وجهك جيداً، تقابلنا في حفلة التعارف في المركز..

- نعم.. نعم.. على كل حال فرصة طيبة يا دكتور أن نلتقي من جديد.. في الحقيقة أنا جئت لأقدّم عرضي، بتنظيف منطقة هجوم الحيوانات تلك..

- قد يحتاج الأمر إلى عدة أيام..

- كلما تخلصنا من الجثث بسرعة، كلما منعنا المشاكل البيئية من التفاقم..

- ولكن السناجب قد لا تبقي الكثير من الحيوانات..

- السناجب قد لا تأكل الزواحف، وإنما تقتلها، وكذلك الضفادع، لا تقوم السناجب بمهاجمتها بل ستسممها الديدان الحاملة لمواد سامة، أي إن الجثث ستكون كثيرة، وستتفسخ بسرعة وتنتشر الروائح والجراثيم، وربما سبّب ذلك انتشار الأوبئة..

- حسناً.. ما هو عرضك؟..

- أن تقدم لنا الأجهزة اللازمة للتجريف، وإزالة الجثث كهربائياً.. ونحن سنتولى الاهتمام بموافقة السلطات والتمويل مقابل عمولة لمؤسستكم.

- هذا هو دفتر الشروط؟

- نعم يا دكتور.. وستكون لك عمولة خاصة..

تردد قليلاً فهو لم يتلق التعليمات بعد من المنظمة...

ولكن الهاتف رنَّ قربه:

- انظر جهاز حاسوبك الشخصي، ستتلقى التعليمات الآن حول الصفقة وانتبه.. عمولتك الخاصة، يمكنك المساومة عليها إنها ملكك..

أقفل الرجل الخط، وتابع قاسم حاسوبه، وقد وردت التعليمات وهي تأمره بالموافقة، وتطلب منه شروطاً أخرى.. قال للرجل..

- أرجو أن تسمح لي بذكر شروط إضافية، بعدها سأوافق على الصفقة..

- تفضّل يا دكتور..

- سأؤمن لك أجهزة التجريف وإزالة والسيارات الخاصة بذلك، وكل

العمال والتقنيين الذين يحركون هذه الأجهزة.. ولكن لدي بعض أسماء شبان أرغب بأن توظفهم في إحدى الدوائر التابعة لك..

- لا بأس هذا سهل..

- وهناك مناقصة في شركة الاتصالات، ستتنازل عنها لأحد رجالنا..

دهش الرجل فقال متردداً:

- ولكنها بمبلغ كبير..

- لن ننساك، سنهيئ لك موافقات على مناقصات أخرى بمبالغ أكبر، ولكن هذه المناقصة تهمنا..

- لا بأس أنا موافق..

وذكر قاسم شروطه الأخرى للرجل الذي وافق عليها، ووقعا العقد ثم بدأ يصدر تعليماته لوضع الأجهزة والآليات تحت تصرّف الرجل تمهيداً لبدء عملها في جرف جثث الحيوانات الزاحفة والبرمائية..

(١٦)

حين انفرد بسالي كان متعباً منهكاً قلقاً على والدته خائفاً من أن يتصل بشاهد ويسأله عن آخر الأخبار..

- آه يا سالي ماذا أفعل الآن؟..

- بعد قليل تصل فرق المكافحة الحيوية، وتعالج المشكلة..

- ولكن ذلك قد يستغرق عدة ساعات وربما يومين..

- إنها أول تجربة مريرة تصادفك يا سيدي.. أرجو أن تنجو والدتك من تلك الكارثة.. هناك أناس كثيرون قتلوا..

- سالي.. أصبحت كل شيء في حياتي لولاك لدمروني.. أنا أتنفس وأحيا بك.. اسمعي عاطفتي صادقة تجاهك أنا أحبك كثيراً.. أنت أملي بالحياة..

- ولكننا محكومون يا سيدي.. محاصرون.. ربما لا أمل لنا بحياة مستقرّة..

- ارتكبتُ أخطاءً قاتلة.. وكنت مدفوعاً إليها رغم أنفي.. ولكني سأبدأ معركتي الآن وستكونين إلى جانبي. عديني يا سالي..

- أعدك يا سيدي.. ولو كلفني ذلك حياتي..

- لا تقولي يا سيدي.. على الأقل عندما نكون وحدنا.. أنت عالمي يا سالي..

- أنا خادمتك المطيعة..

- بل أنت حبيبتي..

عادا إلى المكتب وهو يمسك يدها.. ثم شدها إليه وقد تملكه الانفعال.. ألقى رأسه على كتفها وقد شعر بعاطفة شديدة، فهمست إليه أنهما في المكتب، وتحت عدسات مصوَّرات المراقبة، وأن من يراقبهما يتوقع منه أشياء فاضحة.. فمدَّ يده إلى صدرها فتراجعت وهي تقول بغنج..

- ليس الآن يا سيدي.. أنت في عملك سآتيك في مكان راحتك في الوقت المناسب لك..

- نعم.. نعم..

يجب أن يرى ذلك النذل الذي يراقبه أنها لا تشكل له سوى جسد، وإلا رفع تقريراً ينسف كل ما يفكر فيه من مقاومة..

- أتشرب القهوة يا سيدي؟..

- لا بأس.. ولو أن جسدك الجميل أخرجني عن التفكير في قراءة هذا البريد والردّ عليه.. أحضري القهوة....

- أتريد شيئاً آخر يا سيدي؟

- أريدك أنتِ.. بعد أن ننهي عملنا اليوم..

- في المساء سأكون تحت تصرفك يا سيدي.. عذراً الآن..

خرجت.. شعر أنها تملكت قلبه يا للمسكينة.. مثّلت دوراً لا تجيده.. يجب أن يتصل بالرقم الذي أعطته (مالا) قبل أن ينساه.. قلّب الأوراق، أوامر جديدة بالقتل والحرق والتخريب.. في الصباح يجب أن يسلم هذه الأوامر لشبان وشابات جدد.. فتح الباب ودخلت سالي:

- القهوة يا سيدي..

- شكراً لك..

همس إليها مستفسراً:

- سأستخدم الهاتف النقّال الذي أعطيته لي..

- ليس هنا.. سيلتقطون إشارته.. الأفضل أن تستخدمه وأنت في مكان خارج منزلك ومكان عملك، أتريد شيئاً آخر؟..

- لا يا سالي... يمكنك الانصراف..

ظلَّ قاسم مسمّراً في مكتبه يقوم بأعماله وهو شارد الذهن، يفكر بوالدته وبوضع المنطقة التي انتشرت فيها الزواحف والبرمائيات..

وفي الساعة الثانية والنصف استقلَّ سيارته التي كان ديراك يقودها واتجه صوب المنزل...

فكّر أن يطلب من ديراك الوقوف، بحجة شراء بعض الحاجيات، ثم يستغل الفرصة ويتصل بالرقم الذي أعطته له مالا.. ولكنه خاف أن يكشفه فضول ديراك.. فألغى الفكرة من ذهنه..

أوصلته السيارة إلى المنزل، دون أن يتبادل الحديث مع ديراك.. الذي ذكّره بموعد اصطحابه ثانية إلى العمل.. كانت (هنا) بانتظاره... حيث ساعدته في تهيئة نفسه لتناول الطعام..

- كيف حالك اليوم يا (هنا)؟

- بخير يا سيدي..

- أليس من رسائل خاصة لي..

- لا يا سيدي..

- ولا اتصالات خاصة؟..

- شخص واحد اتصل بك ليذكرك بموضوع توظيف ابنته، قال إنه صديقك..

- آه.. تذكرت..

- الطعام جاهز يا سيدي.. تفضّل..

شدها إلى جانبه لتتناول معه الطعام:

- هذا لا يجوز يا سيدي..

- حسناً.. اجلسي هنا.. وشاركيني الحديث.. اسمعي يا هنا سآخذك معي إلى البيت الآخر..

- أنا؟ هل أعجبك يا سيدي؟..

- نعم.. ستكونين معي.. بعد نصف ساعة..

- سأهيئ نفسي جيداً..

- لا بأس.. أنت تملكين جسماً جميلاً يا هنا.. ثم إنك جذابة، وطيبة وحلوة المعشر، وأصابعك رشيقة في التدليك..

- شكراً لك يا سيدي...

(١٧)

قرر قاسم أن يصطحب (هنا) للمنزل الذي خصص لمتعته.. ليذرّ الرماد في عيون من يراقبونه.. ليتصل بصديقه ويطمئن على والدته.. ثم ليتصل بالرقم الذي أعطته له مالا في مركز الجمعية الغربية..

طلب من (هنا) الاتصال بديراك، وإحضاره في الثالثة والنصف لينقله إلى البيت الآخر، وتابع تناول طعامه، وهو يرى أنه سيقوم بعمل شديد الأهمية، رغم خطورته..

في نحو الثالثة والنصف، كان ديراك بانتظاره خارجاً، حيث اقترب من السيارة ويده تحيط بكتف (هنا) التي بدت غير مصدقة..

وفي الطريق حرص على أن يغازلها أمام ديراك الذي كان صامتاً.. وحين وصلا إلى البيت، وهبطا من السيارة.. همس إليه ديراك..

- كنت تستطيع إحضار امرأة أكثر جمالاً من هذه البلهاء..

- هي معي دائماً، يجب أن أجربها بعيداً عن مكان سكني..

- سأعود في الخامسة؟..

- في الخامسة والربع.. لا بأس..

- حسناً يا سيدي..

أحاطها بذراعه، استقبلهما خادم المنزل الخاص، قال له قاسم:

- اجلس أمام باب الحديقة.. وحين يعود ديراك اطرق الباب بطريقتك خاصة..

- ألا تحتاج إليَّ بشيء يا سيدي؟ على كل حال المرطبات وكل أنواع الشراب موجود في البار.. سأذهب الآن إلى الخارج وأنتظر حضور (ديراك)...

قال لها:

- هيئي نفسك... استحمي وخذي راحتك، سأكون بانتظارك في هذه الغرفة بعد (٢٠) دقيقة..

- بعد (٢٠) دقيقة؟

- أتريدين وقتاً أكثر؟ حسناً بعد (٣٠) دقيقة..

- لا يا سيدي.. يكفي (٢٠) دقيقة..

كان قاسم يريد أن يتسلل متنكراً ليخابر (مالا) ويطمئنَّ عن أمه...

لم يضع قاسم وقته، فتنكّر سريعاً، وخرج من قبو صغير دلته عليه سالي، ثم استأجر سيارة أقلته إلى منطقة تطل على السوق حيث أوقفها بعض الوقت مع سائقها، وحين توقف ليتكلم بالنقّال، خطر على باله الاتصال بالرقم الذي أعطته له مالا، كأنما أراد أن يخفف توتره من قلقه بشأن أمه...

حين انتهى من الرقم سمع صوتاً مسجلاً..

«يرجى تبديل الأرقام بعكس ترتيبها من اليمين إلى اليسار..» بدا له أنها

عملية دقيقة لزيادة الحيطة ثم سمع صوتاً آخر: «أعد الأرقام الأربعة الأولى» وبعد أن أعادها من جديد سمع صوتاً جديداً «أعد الأرقام التسعة من جديد» بدا له أنها تبالغ بالحيطة، ومالبث أن سمع صوتاً على الطرف الآخر من الخط:

- مالا.. هذا أنت..

- آسف تأخرت عليكَ.. كنت في مكان بعيد، أختلط مع كبار القوم.. وضعت هذه الرسائل المسجّلة لأتمكّن من الوصول إلى مكان منعزل ومحادثتك بعيداً عن الأعين...

- خير يا مالا؟ أردتُ أن أتصل بك؟..

- اسمعني جيداً، هل أنت تتكلم من مكان أمين؟

- نعم.. لا تقلقي.. وهو ما أخرني عن الاتصال بك..

- سيسلمونك منصباً كبيراً ستخدمهم كثيراً فيه، ولكنك ستدمر الكثير من البيوت وتقتل الكثير من الأبرياء، وإذا لم تستمر في خضوعك لهم، سيدمرونك.. بوسيلة لا تخطر على بالك..

- وكيف بإمكاني رؤيتك يا مالا؟..

- هذا مستحيل.. أنا أعرف معدن الرجال الذين أرافقهم، أنت من نوعية مختلفة، لذلك أردت أن تتصل بي، خذ حذرك يا دكتور، الأيام القادمة ستكون خطيرة في حياتك..

- وكيف سأراك؟ يجب أن أراك؟..

- إن تمكنت من النجاة بحياتي اليوم، فسأرى الوسيلة المناسبة للاتصال بك.. وإلاّ.. لن تراني أبداً.. لأنني سأكون تحت التراب..

- لا تيأسي يا مالا.. سنلتقي إن شاء الله..

- كانت حياتي سلسلة من الأخطاء.. وأرجو ألاَّ تصبح مثلي.. آه.. آه.. لا.. لا..

كانت تصرخ من الرعب والألم على الطرف الآخر من الخط، ثم سمع صوتاً يقهقه:

- سنصل إليك.. حتى لو كنت خلف حدود المستحيل..

أغلق الخط بخوف شديد فسمع رنين الجهاز، خاف من أن يفتحه، ولكنه كان يرن بإلحاح سمع صوت شاهد:

- أين أنت يا قاسم.. حاولت المستحيل الوصول إليك ألم يبلغوك في المكتب؟..

- لا.. أبداً.. ماذا جرى؟..

- كارثة كبيرة.. البقيّة بحياتك...

- ماذا تقول؟ ماتت أمي؟

- ظلّت تقاوم وأمي وأختي.. ولكن حيوانات كثيرة تمكنت من الدخول إليهن.. فقدت أمي وأختي أيضاً. حددنا موعد الجنازة غداً..

- يا إلهي.. سأحاول أن آتي اليوم..

عاد إلى سيارة الأجرة.. التي أقلته من جديد إلى المنزل المنزوي.. ليدخل من القبو الصغير، ويزيل من تنكره، لينفذ إلى داخل غرف النوم..

كانت (هنا) بانتظاره، وهي بكامل أناقتها وهي ترتدي لباساً خاصاً حاولت أن تظهر فيه أنوثتها..

لم يستطع تقبل فكرة مداعبتها، وصورة أمه الميتة تتخايل أمامه.. وقد لحظت (هنا) ذلك..

- ألا أعجبك يا سيدي؟..

- بالعكس أنت رائعة جداً يا هنا.. ولكن رأسي يؤلمني..

- سأزيل منك كل تعب وتوتُّر.. تعال إليّ يا سيدي.. سأقوم بتدليك رأسك وجسمك.. سأزيل كل آلامك..

وبرشاقة وحرفيّة متقنة تمكنت (هنا) من استلال تعبه، وأنسته قليلاً متاعبه، فنام على صدرها وهي تهدهده كالأم الرؤوم.. ولم يصحُ سوى على طرقات الخادم الذي حضر ليبلغه أن ديراك بانتظاره...

ارتدى ثيابه.. واصطحب (هنا) في رحلة العودة إلى المنزل تمهيداً للذهاب إلى العمل، كان يشعر بالغثيان وقد طافت في ذهنه صورة أمه وهي تصارع تلك الزواحف والبرمائيات القبيحة..

شرب القهوة، وكانت (هنا) تبالغ بالعناية به وهي سعيدة جداً، بالرغم من أنه بدا حزيناً متعباً، ولكنه كان يجاملها بابتسامته الباهتة كل حين...

استقل السيارة مع ديراك في طريقه إلى العمل، وهو يرجو ألاَّ يكون العمل كثيفاً، متواصلاً.. ولحظ ديراك حزنه..

- هه.. لا تبدو سعيداً يا سيدي.. لم تعجبك بالطبع تلك البلهاء.. كنت واثقاً من ذلك..

- آه.. معك حق..

- كنت متأكداً أنها لن تعجبك لا بأس ياسيدي... انتقِ في المرة القادمة شريكة جديرة بك..

معك حق يا ديراك..

ليته يعرف كم هو يتمزّق من الداخل، ولكن ماذا سيفعل الآن؟ كيف سيهرب لحضور جنازة أمه.. وماذا سيفعل تجاه هؤلاء الناس الذين دمروه ودمروا العالم من حوله..؟

(١٨)

وصل إلى المكتب كانت سالي تنتظره ومعها البريد.. لحظت وجومه وحزنه، فهمست تستفسر منه.. فأخبرها بموت أمه... وأخبرها بما قالته مالا.. وماذا قال له صاحب الصوت الأجش الذي أنهى مكالمتها.. شعرت بالحزن وعرفت أنه يخطط للقيام بعمل ربما سيكون خطيراً.. ومتهوراً فهمست إليه أن يتروّى.. وبعد أن وقّع بريده أتت إليه تهمس إليه أن ضيفاً طارئاً قد حضر..

- يبدو ضيفاً مهمّاً.. ليس في قائمة الزوّار اليوم.. ولكن رسالة خاصة استقبلتها من المنظمة تطلب مني إدخاله..

- حسناً أدخليه..

دخل إليه الرجل، كان وجهه مألوفاً لديه تعرّف به، إنه ذلك الرجل الذي أشرف على قَسَم ولائه للجمعية.. الرجل الذي يتمتع بمنزلة رفيعة..

- أنا آسف يا دكتور قاسم... أريد أن أبلغك خبراً محزناً..

- خير؟ خير يا سيدي؟..

- بلغنا خبر وفاة أمك.. جئت بالنيابة عن قيادة المنظمة لأعزيك..

- أمي؟ ماذا تقول يا سيدي؟..

- كان حادثاً.. تلك الزواحف يبدو أن تكاثرها زاد عن الحدّ، فهاجمت الناس وفتكت بالكثيرين، وكانت والدتك من بين الضحايا..

انفجر حزنه المكبوت:

- يا إلهي وكيف حدث ذلك؟ ومتى؟.. آه..

- أمس في الليل، جنازتها غداً.. جهزنا كل شيء.. ستكون جنازة لائقة، سيشارك فيها الجميع..

- كنت مقصّراً معها، كان يجب أن أطمئن عنها وأزورها..

- وهناك أمر آخر مهم جداً.. قررنا ترقيتك، ستتبوأ منصباً جديداً.. ولقد عرفنا أنك معجب بسالي.. ستكون أمينة سرك في المنصب الجديد أيضاً.. على كل حال سننفذ إجراءات تعيينك بعد أن تنتهي مراسم جنازة أمك، رحمها الله...

وجاءت سالي بالقهوة همس إلبها الرجل بوقاحة:

- أنت محظوظ يا دكتور قاسم بها.. أمينة سر ذكيّة، جميلة.. لبقة..

أراحته زيارة الرجل المهم قليلاً.. فهو سيشارك بالجنازة أمام الجميع وستكون جنازة لائقة كما قال الرجل.. أسند رأسه إلى المقعد، وبدا حزيناً متعباً، لم يكترث لعدسات المصوِّرات التي تراقبه.. انتهى وقت دوامه.. فطلب من سالي مرافقته إلى المنزل... بحجة إكمال العمل في مكتبه الخاص هناك..

كانت تشعر أنه يغلي من الغضب والقهر، حاولت أن تهدئه، وتبعده عن التفكير بالقيام بأي عمل متهوّر، فجنازة أمه يجب أن يشارك فيها ويبدو هادئاً، صابراً كما ينبغي أن يكون..

كان وجودها إلى جانبه في المكتب تلك الليلة قد عزّاه قليلاً، وهدّأ من روعه..

ورغم أن (هنا) بدت منزعجة.. إلا أن جديّة (سالي) وحزن (قاسم) قد أزالا إحساسها بالغيرة..

- أنا خائفة عليك.. ما الذي تخطط له؟..

- لا أعرف.. سيأتي الحل سريعاً، هكذا أشعر..

- انتبه لنفسك.. وحاول أن تهدأ اليوم، وفي الغد يأتي الفرج بإذن الله.. كنت مجبراً على تنفيذ الأوامر..

- ولكني بهذه الأوامر قتلت أمي وقتلت الكثيرين من الأبرياء..

وقفت تستأذن بالانصراف رجاها:

- ابقي إلى جانبي الليلة يا سالي هذه الليلة..

- ليس الآن.. يجب أن أعود إلى البيت..

أشارت إلى (هنا) وهي تلوح مودعة:

- اعتني بسيدك جيداً يا هنا..

- سأفعل يا سالي... سأفعل..

وتّمت مراسم جنازة أم قاسم.. مع جنازات بعض أهالي القرية، ولكن الزواحف التي قلّت أعدادها ما انفكت تضايق الناس، الذين لجؤوا إلى سياراتهم هرباً منها..

وبعد عودة قاسم إلى منزل العائلة في القرية، حكى له شاهد عمّا حدث بالتفصيل لوالدته وأخته اللتين كانتا تساعدان أمه بكل قوة، وقد تكاثرت عليهما البرمائيات والزواحف..

كان منظراً محزناً رآه شاهد، وقد تكاثرت البرمائيات والزواحف فوق الجثث.. وحكى له عن الكوارث التي أحدثتها تلك الحيوانات الخطيرة، وعن الرجال الذين زرعوا صناديق الحيوانات التي تهاجم الزواحف والبرمائيات.. خرجت تلك الحيوانات من الصناديق، وبدأت تهاجم وتقتل أعداءها من الزواحف والبرمائيات، ولكن البيوض كانت تفقس باستمرار ولم تكفِ الحيوانات التي أحضرت للمكافحة الحيوية لعلاج هذا الخطر الداهم باستمرار..

ولجأت فرق المكافحة للنيران والدخان السام.. للتقليل من تكاثرها

المخيف.. ظلّ قاسم يستمع ذاهلاً حزيناً، حتى نبهه (ديراك) إلى ضرورة مغادرته.. وحين وصل مكتبه وجد جمعاً بانتظاره..

كان حفلاً هادئاً، لترقيته إلى منصب أعلى، اقتصر على بعضّ أعضاء مجلس إدارة الجمعيّة، وكان منصبه الجديد تحت اسم (المدير الإقليمي للمنظمات والهيئات ومراكز البحوث العلميّة في الشرق)..

عرف عندها أن الأوامر التي سيعطيها من خلال منصبه الجديد ستكون أكثر بشاعة ودماراً.. فبدأ يخطط للقيام بأعمال معاكسة تدمر رؤساءه والمشرفين عليه.. وتمكن بمساعدة سالي والحاسوب المركزي والأسرار التي أهّله مركزه الجديد للاطلاع عليها أن يقتنص عناوين العديد من أولئك الناس..

وحين استلم مركزه الجديد، وبدأ يعطي أوامره بالقتل، بدأت المجازر تحصد أرواح المشرفين على أعماله. وطالت أعضاء في مجلس إدارة الجمعية الدولية التي تسيطر على العالم..

ولم ينتبه المسؤولون إلى أنه المسبب لحوادث القتل إلا بعد أن حصد بأدواتهم هم، الكثيرين منهم..

ورغم أجهزة الرقابة والأيادي الطويلة لأولئك المتسلطين، فقد اختفى قاسم وسالي يوماً، تاركاً لغزاً محيّراً وراءه.. ولكن القدر كان يخبئ له أحداثاً أخرى.. أحداثاً قد لا يصدّقها العقل...

☆ ☆ ☆

مسرحيات علي مولا

الفصل الثاني

الدخول في عالم الغد

(١)

لم ينس كيف خسر أربعة من أحبائه خلال عام، اعتاد على القبور والمآتم، وعلى الوجوه الحزينة الباكية.. حتى أصبح يرى الحزن والجنازات في أحلامه، ويرى الموت يغلف كل شيء، ويتغلغل إلى داخله..

ومرت أشهر على آخر مأتم، وكاد ينسى، لولا أن حدث ذلك الحادث الفظيع الذي هز أركان حياته وزعزعها.. وقبل وقوع ذلك الحادث بيوم واحد رأى حلماً غريباً.. كان يسير في شارع قريبٍ من منزله حين سمع خطوات راكضة خلفه، كان رجلاً كهلاً يرتدي زياً غريباً:

- أين أنت ياد. هاني؟ بحثت عنك في كل مكان.. الحمد لله أني وجدتك أخيراً..

- وماذا تريد مني ياعم؟ لماذا تبحث عني؟ لم أرك من قبل..

- يطلبونك في القصر.. يجب أن تقابل الحاكم.. أمروني بالبحث عنك وإحضارك.

- القصر؟ الحاكم؟ خير؟

- لاأدري.. المهم أن تأتي معي، وستعرف كل شيء حين تصل..

- حسناً تفضل.. أنا أتبعك..

وإذا بأربعة جنود يحيطون بهما وهم يقولون للرجل:

- هل نقيده ياسيدي؟

- لا..لا.. هل طلب منك أحد ذلك؟

- لا ياسيدي.. ولكن رجلاً مثله، يطلب بهذا الإلحاح، يعني أنه خطر.. قد يسبب لنا المتاعب في الطريق..

- أنتم جاهزون للتدخل.. إن قام بحركة ما.. سنقيده بالأصفاد..

- تتكلمان عن قيود.. ومقاومة، ومتاعب..خير؟ هل يمكن أن تشرح لي ياعم، سبب وجود هؤلاء الرجال المدججين بالسلاح؟ هل أتوا من أجلي؟

- لاتقلق يا د. هاني.. لست أعتقد أن طلبهم لي بإحضارك على جناح السرعة قد يسبب لك متاعب، ربما احتاجوا إليك في استشارة..

- كما تشاء.. لن أقاومكم.. سأرى مايريدون مني..

ورأى هاني نفسه يدخل مع الجنود والرجل الكهل إلى قصر كبير، تعج بوابته بالحراس، قطعوا به ممراً مرصوفاً، تنتشر الخضرة على جانبيه..

ثم اقتادوه إلى غرفة واسعة، فاخرة الأثاث، ليجد نفسه أمام رجل متقدم في السن، بلحية بيضاء، ولباس أبيض..

- أحضرنا الدكتور هاني ياسيدي.. هاهو ماثل أمامكم..

- حسناً، اقترب مني أيها الرجل..

- خير ياسيدي؟ ماذا تريد مني؟

- لديك مهمة ستؤديها، ثم تقابل بعد أدائها مولانا الحاكم..

- أية مهمة؟

- ستطلع عليها بسرعة.. ولكني أحذرك إذا لم تؤد تلك المهمة على الوجه الأكمل ستغضب مولانا الحاكم..

- أطلعني على المهمة أرجوك، أنا جاهز لتنفيذها..

أشار إلى أحد الجنود:

- أحضر المرأة العجوز وابنتها.. بسرعة..بسرعة يافارع..

- في الحال ياسيدي..

دفع الجنود امرأة عجوزاً وابنتها كانت العجوز تحتج:

- لاتدفعني هكذا.. أنت تعرقل حركتي..

- ادخلي وابنتك.. وقفي أمام هذا الرجل..

نظرت إليه بدهشة: - من؟ أنت يابني.. إنها مهمة ثقيلة عليك..

وقف مذهولاً: - أنت ياخالتي.. معقول؟

رأى نفسه أمام المرأة التي ربته بعد وفاة والديه، وظل يعيش في كنفها حتى كبر واختص بالجراحة وانفصل عنها..وظل يكن لها المحبة والاحترام ويزورها بين وقت وآخر.. كانت تقف بذل هي وابنتها، أمام الشيخ ورجاله المسلحين.. الذين كانوا يحيطون به، وينتظرون كلمة من الشيخ.. الذي قال أخيراً..

- بعد أن بحثنا طويلاً بين أفراد الولاية.. لم نجد سوى هذه المرأة وابنتها.. تطابق النسيج الخليوي لكل منهما مع النسيج الخليوي لسمو الأميرة.. أنت جراح ماهر.. الجميع يشهد بذلك، نحن نحتاج أن ننقل بعض أعضائهما، ونزرعها بدلاً من الأعضاء التالفة في جسم الأميرة.. كل شيء جاهز لذلك، نثق بمهارتك يا دكتور..

- ولماذا أنا بالذات؟ هناك العديد من الجراحين يستطيعون القيام بذلك..

- قلت لك، نحن نثق بمهارتك، أنت متفوق على الجميع.. غرفة العمليات جاهزة والأعضاء المطلوبة تجدها في هذه الورقة.. اطلع عليها جيداً، وابدأ عملية الاستئصال بكل عناية..

- ياإلهي، أنت تقتل المرأتين..

- لابأس، المهم أن تعيش سمو الأميرة بصحة جيدة، وتتمتع بحياتها..

(٢)

ورأى هاني نفسه يدخل غرفة العمليات.. ومعه العجوز وابنتها.. كانت هناك عدة أسرّة، تنتشر عليها نساء في أواسط العمر.. ممددات دون حركة.. يحملقن في السقف، ويسرقن أنظارهن إلى العجوز وابنتها وبريق الشفقة يتوضح في الأعين المتعبة..

دفعت العجوز إلى سرير، ودفعت الابنة إلى سرير آخر، واجتمع حولهما بعض من العاملين، ينتظرون أوامر الطبيب لإعطاء الحقن..

- ماذا سنفعل الآن؟

- يجب أن أرى المريضة..

- تقصد سمو الأميرة؟

- نعم..حتى أرى من أين أبدأ..

- سأطلب من السيد فارع أن ينقل طلبك إلى المشرف الأول على صحة سموها.. اسمع يافارع الطبيب الجراح يريد أن يرى سمو الأميرة، ويعاين حالتها بنفسه..

- الذي أعرفه أنه ممنوع عليه ذلك الآن، يجب أن ينهي استئصال الأعضاء المطلوبة من هاتين المرأتين ثم يحضرونها إلى هنا.. عندها يمكنه معاينتها قبل البدء بالجراحة..

قال هاني:

- ولكني مصر على ذلك..

- سأنقل طلبك إذن إلى الشيخ..

اقترب من العجوز وابنتها وهمس مشجعاً:

- لاتقلقي ياخالة.. الأمور ستكون بخير، لن أسمح لأحد أن يؤذيكما..

- ماذا سيفعلون بنا؟

- بعض الفحوصات والاختبارات لاتقلقي..

قالت الصبية:

- إنهم يجهزون الحقن، والمشارط.. ينظرون إلينا.. كأنهم سيقومون بإجراء الجراحة.. ولكن جراحة ماذا؟ لسنا نشعر بالمرض..

قال مشجعاً:

- لاتقلقي يا أمينة.. سيجرون كما قلت بعض الاختبارات..

- لماذا؟ ما الذي يريدونه منا؟ لماذا هذا الاهتمام بصحتنا؟

- أعتقد أنهم يختبرون صحة الناس، كأنهم يخافون انتشار وباء معين، أنتما بخير لاتقلقا..

اقترب الرجل المدعو فارعاً منه:

- تفضل يا دكتور سأرافقك إلى سمو الأميرة..

صاح هاني محذراً:

- اسمعوا أنا أوجه كلامي للجميع، لاتقومواباًي عمل، أو اختبار على هاتين المرأتين قبل أن أعود.. انتبهوا لذلك جيداً.. قد يعرض ذلك حياة الأميرة للخطر..

قال الطبيب المناوب:

- حسناً يا دكتور.. سأنتبه جيداً لذلك لاتقلق..

واستمر الحلم.. ورأى هاني نفسه يدخل إلى جناح مددت فيه فتاة في مقتبل العمر، بدا جسمها مكوراً، ووجهها شاحباً، هزيلاً، كأن ليس في عينيها حياة، عاينها جيداً، ليرى فيها بقايا كائن حي، يحاولون إنقاذه بأية وسيلة.. أشفق عليها، ولكنه حين تذكر العجوز وأمينة، وتلك الأعداد من النسوة اللواتي جهزن للتضحية، شعر بغصة تكاد تخنقه.. ولكن آهة صدرت من تلك الفتاة المريضة، جعلت من حولها يقفزون وينتشرون مستنفرين بكامل حواسهم.. اقترب هاني منها..

- أتسمعين ما أقوله ياسمو الأميرة؟

- من أنت؟ لم أرك من قبل..

- أنا الطبيب المكلف بعلاج بعض حالتك.. بماذا تشعرين؟

- أشعر أن أحشائي تتقطع، وأن بطني ثقيل ككتلة حديد هائلة..

حاول معاينتها ولكن الشيخ صرخ به:

- لاتضع يدك عليها أنا أمنعك..

- يجب أن أعاينها ياسيدي.. ربما هناك خطأ في التشخيص..

- مستحيل، لدينا أمهر الأطباء.. كنا نحتاج لجراح ماهر يدير عملية جراحة الطويلة.. لزرع أعضاء جديدة..

ولكنه تجرأ وحكى مع الأميرة:

- أتسمحين لي ياسمو الأميرة؟

صرخت بالرجل: - اتركه.. دعه يرى حالتي..

عاينها فاكتشف شيئاً غريباً أن هذه الكائنة تحمل جنيناً في بطنها..همس لشيخ:

- مابك؟ تبدو مذهولاً؟

- ألا تعلم أن سموها حامل..

- ماذا تقول أيها المخبول؟ أجننت؟

- لست مخبولاً إنها الحقيقة..

- سآمر بمعاقبتك..ليس لك دخل بهذه الأمور..

- أنا طبيب.. ومن واجبي علاج المرض

ثم صرخ بهم جميعاً:

- اخرجوا من هنا سأبقى مع الأميرة وحدنا..

- زادت وقاحتك عن حدها..

- أرجوك ياسمو الأميرة، اطلبي منهم الخروج،يجب أن أعاينك جيداً أنا طبيب، وأرى أنهم شخّصوا حالتك تشخيصاً خاطئاً..

تأوهت: - نفذوا مايقوله هذا الطبيب.. بسرعة..

قال له الشيخ وهو يخرج: - سيكون حسابك عسيراً..

وبعد خروجهم قال لها بهدوء:

- سمو الأميرة.. أنت حامل، أنت تحملين جنيناً في بطنك، أيمكن أن أعاين الجنين على هذا الجهاز..؟

- افعل ماتشاء.. ذلك الوغد السكير، اغتصبني.. كان نذلاً حقيقياً، اعتبرني مثل كل الفتيات الأخريات من رعيته..

- ومن هو ياسمو الأميرة؟

- زوج أمي، النذل.. إنه يسيطر عليها.. ويبتزها، وأعلم أنه يريد قتلي حتى لا أكشف سره..

- ومن هذا الشيخ الذي أحضرني إلى هنا؟

- إنه مستشاره الأول، الذي ينفذ له كل شروره وآثامه..ماذا سأفعل أيها الطبيب؟ أخبرني..

- هل تستطيع والدتك التدخل؟

- لاأدري.. أحياناً أشعر بها قوية، وأحياناً أشعر أنها بلا حول ولاقوة..

- أتشعرين بوجع هنا؟

- جسمي كله يؤلمني، لقد قتلني ذلك الوغد.. آه، ليت عامراً كان هنا..

- ومن هو عامر هذا؟

- ابن معلمي، إنه الصديق الوحيد لي في العالم..إنه ذكي أريب، شجاع.. كان يشترك أحياناً في تعليمي.. معلمي رجل نادر، إنه موسوعة متحركة.. يعرف الكثير.. وليس في قلبه سوى الخير..

- ولم لا يأتي عامر إليك؟ أين هو الآن؟

- اختفت آثاره هو ووالده.. لا أحد يعرف أين هو.. تعبت من الكلام..آه..

- لابأس..

أخذت تسعل وهي تردد : - أنا آسفة..

واقتحموا عليه المكان من جديد:

- هاهو الطبيب يامولاي..

همست الأميرة:

- حضر النذل.. انتبه لنفسك جيداً أيها الطبيب، ولاتستفزه..

كان رجلاً طويلاً قاسي الملامح، حدج هاني بنظرة احتقار:

- أنت الطبيب الجراح؟ هه.. انتهيت من معاينتها؟

- نعم..وقد أستطيع علاج حالتها..

- أحضرناك من أجل هذا الأمر.. كليتها اليمنى معطوبة، واليسرى تالفة وقلبها مصاب بتهتك.. وجزء من معدتها مصاب بقرحة.. والكبد والطحال..وبعض الشرايين الإكليلية.. هه قرأت التقارير جيداً..

- نعم، وأستطيع أن أشرف على إصلاح أعطال كل هذه الأعضاء، وزرع أعضاء جديدة بدلاً عن التالف منها..

- قلت: إنها حامل.. أصحيح ماسمعته؟

- يبدو أنني أخطأت في التشخيص..

حاول أن يصرف انتباهه عن هذا الموضوع، وقد عرف مدى خطورته..

- عظيم.. وهذه الجراحات ألا تشكل خطراً على حياتها؟

- الخطر كبير.. ولكن ما باليد حيلة..

- أحسنت أيها الطبيب.. قدموا له مايحتاجه.. وليبدأ في علاج الأميرة.. وإجراء الجراحات التي يرتئيها..

ولكن الشيخ اعترض على ذلك:

- ولكن يامولاي..إنه..

شده إليه يوشوش في أذنه:

- أيها الغبي، إنه يبحث عن حتفه.. دعه يتورط بالجراحات المعقدة.. جراحة واحدة فقط قد تنهي لها حياتها..

واندفعت امرأة أنيقة تضع التاج وسط حاشيتها:

- أين ابنتي؟..لم لم تقل لي: إنها في وضع صعب إلى هذا الحد؟

- لم أشأ إزعاجك ياعزيزتي..

- آه.. تبدو منهكة مريضة.. اعتقدتها حالة طارئة ستشفى منها سريعاً..

- لاعليك ياعزيزتي، نحن محظوظون بهذا الطبيب، تكفل بعلاجها وإصلاح أعطال جسمها.. إنه ماهر حاذق كما يصرح بذلك الجميع..

- لابأس..أرجوك انتبه جيداً لها.. إنها ابنتي الوحيدة..

- سأبذل المستحيل لكي تشفى يامولاتي..

- هه.. يا ابنتي.. ألا تسمعين؟ أنا أمك..

- أنا متعبة..

قال هاني: - إنها لاتستطيع أن تتكلم إلا بصعوبة..

- ويلي عليك يا ابنتي، لم تفرحي بشبابك بعد.. ابذل جهدك أيها الطبيب، وسأكافئك جيداً..

حاول أن ينفرد بها وهو يهمس:

- أرجوك يامولاتي.. أريد أن أنفرد بك من أجل حالتها.. تظاهري أنك لاتسمعين ماأقول.. واخفي الأمر عن زوجك..

- ماذا هناك أيها الطبيب.. أنا لاأخفي شيئاً عن زوجي..

- أرجوك، إنه أمر خطير يتعلق بابنتك ويجب ألاّيعرفه أحد سواك.. تظاهري أنك تحيطينها بحنانك.. يجب ألاّ تقولي ذلك لزوجك..إنه أمر كما قلت لك في منتهى الخطورة..

- حسناً سأحاول أن أرسل في طلبك..

- الأفضل أن تأتي إلى هنا منفردة، في الليل بحجة زيارتها والاطمئنان عنها.. ولكن حاذري أن يرافقك أحد من رجالات زوجك..

- سأحاول..

أخذت تقبلها وتبكي فأبعدها زوجها:

- يكفي ضماً لها، وتقبيلاً، اتركي الطبيب يقوم بواجبه..

- معك حق..انتبه لها جيداً أيها الطبيب..

- سأبذل المستحيل يامولاتي..

(٣)

واستمر ذلك الحلم الغريب، ورأى هاني نفسه بعد قليل أمام الشيخ، الذي قالت عنه الأميرة إنه مستشار الحاكم.. كان ينظر إليه بغضب وهو يحرك في وجهه سبابته مهدداً..

- أنت المسؤول عن كل شيء يحدث لسمو الأميرة..أفهمت..

- نعم..نعم..

- ستبدأ الآن بإجراء الجراحات اللازمة لاستئصال الأعضاء المطلوبة من العجوز وابنتها..هيا..

- اتركوني أؤدي واجبي، ولاتتدخلوا..

كان قد صمم أن ينقذ العجوز وابنتها أمينة.. لن يستأصل شيئاً منهما.. ويجب أن يبعدهما عن الخطر..

قال الشيخ:

- سيعاونك هؤلاء الأطباء في عملية الاستئصال.. إنهم يعملون في القصر، ولديهم خبرات ممتازة..

- أرجو ألاَّ تتدخلوا كثيراً في عملي..

قال أحدهم:

- هل نبدأ بالعجوز يا دكتور؟

- ألديك فكرة عما سنفعله؟

- بالطبع، سنستأصل كليتيها، وجزءاً من كبدها..

- يجب إجراء الفحوصات اللازمة للتأكد من سلامة الكليتين والكبد..

- أجرينا كل شيء بدقة، لاتقلق..

- وهؤلاء النسوة؟ لماذا هن ممددات هكذا؟ أجريتم عليهن جراحات 'يضاً؟

- فحصنا أعضاءهن بشكل مباشر، كلهن يشتكين من أمراض عديدة، نسن مطابقات لنسيج مولاتنا الأميرة.. هه.. سنبدأ في تخدير العجوز..

رأى نفسه عاجزاً عن القيام بشيء لإنقاذ العجوز.. التي استؤصلت كليتاها بكل وحشية، وماتت تحت تأثير المخدر، وحاول بكل جهد تأجيل إجراء جراحة أخرى لاستئصال أعضاء من أمينة..

ولكن الأطباء كانوا يدفعونه للإسراع بالقيام بهذا العمل، وهو عاجز عن مقاومتهم.. ولكنه نجح أخيراً في الإشراف الكامل على عملية أمينة..

- ابتعدوا عنها، واتركوني أجري الاستئصال بنفسي، بذلتم جهداً كبيراً في استئصال أعضاء العجوز.. وانقلوا جثة العجوز إلى البراد..بسرعة..

اقترب منه طبيب شاب أشقر الشعر أزرق العينين:

- هل أساعدك ياسيدي؟ أنا معجب بمهارتك كثيراً..

- وأين تعمل حالياً؟ في القصر؟

- نعم..خالي هو أحد رجال الحاكم..

- شكراً لك، لا أحتاج إلى مساعدة، من الأفضل أن ترتاح مع زملائك، أمامنا عمل مرهق في زرع الأعضاء الجديدة في جسم سمو الأميرة..

- هل أستطيع مراقبة ما تفعل؟

- لا.. الأفضل أن ترتاح..

- كما تشاء ياسيدي..

هز رأسه وهو يحمد الله.. ويرمق أمينة المخدرة الممددة أمامه..

كان قد أصبح وحده تقريباً، وليس سوى النسوة الممددات، خطرت له فكرة سريعة، فحرك جسم أمينة المخدر على السرير المتحرك، وأبدلها بفتاة بدا عليها أنها تحتضر..

وغطى وجهها، وبدأ يقوم بجراحته بحرية، حتى تمكن من استئصال الأعضاء المطلوبة، وقلبه يخفق بعنف لنجاحه في إنقاذ أمينة.. وحين حضر الأطباء والطاقم المساعد من جديد كان قد أنهى كل شيء..

واستمر الحلم الغريب.. ورأى هاني نفسه يقف محتاراً، فكيف سيتصرف مع حالة الأميرة المريضة، والأطباء يدفعونه لاستئصال أعضاء منها وإبدالها بأعضاء جديدة.. شعر بالاختناق وأخذ قلبه يضرب بعنف..

(٤)

وامتدت إليه يد تهزه لتوقظه من حلمه الطويل المرعب.. وقد بدأ يتنفس بصعوبة ويطلق حشرجة حبيسة.. فاستيقظ ليجد زوجته إلى جانبه وبيدها كأس من الماء ..

- كان كابوساً مزعجاً بالتأكيد، اضطررت لإيقاظك..

- آه.. زهرة.. أنت؟ ياإلهي مستحيل، كنت في زمن آخر يازهرة.. كأنني لم أكن أحلم..

- اشرب الماء.. يبدو عليك التعب..

- كان حلماً غريباً يازهرة.. غريباً لدرجة لاتصدق.. مسكينة تلك الأميرة الصغيرة، كنت أستعد لتبديل أعضائها التالفة..

- أية أميرة ياهاني..؟

- سأحكي لك القصة..

وحكى هاني لزوجته زهرة حلمه الغريب، ولم يستطع متابعة النوم، أصابه الأرق وهو يستعيد تفاصيل حلمه، والوجوه التي رآها فيه..

كانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً وهو يدور في البيت قلقاً ساهماً، ورغم محاولات زهرة إقناعه بالتمدد ومحاولة النوم إلا أنه لم يستطع أن يجاريها في إلحاحها.. ثم طلب منها فنجاناً من القهوة كان يبدو عليه أنه لن ينام بعد ذلك.. لذلك سارعت لتلبية طلبه..

- القهوة ياهاني..

- شكراً لك، عودي إلى النوم.. لديك عمل مرهق والعام الدراسي في بدايته..

- هل أتركك وحدك؟ يبدو عليك الإرهاق، يجب أن ترتاح.. أمامك عمليات جراحية ستقوم بها أيضاً.. وهي ليست عمليات سهلة..

- لابأس يازهرة! سأحاول القراءة بعض الوقت، قد أشعر بالنعاس عندها سألجأ إلى السرير.. تعلمين أن القهوة تهدئني ولكنها لا تمنعني من النوم.. عودي إلى النوم أرجوك..

- كما تشاء ياحبيبي..

جلس في الشرفة يفكر في حلمه.. وعاد إلى الصالة وفنجان القهوة بيده.. يقلب في أحد الكتب الطبية وذهنه شارد، ولم يدر كيف غفا من جديد..

غطى الضباب كل شيء.. وبدأ إحساس بالاختناق يعتريه.. ثم انفلت من جسده، وانطلق في الفراغ حيث لاملامح ولا أشياء.. وفجأة شعر أن الحركة حوله تضطرم ووصلت إليه أصوات كثيرة.. ميز صوت فارع وصوت الشيخ..

- هيا يا دكتور كل شيء جاهز لنقل الأعضاء البديلة..

- حياة أميرتنا بين يديك.. الخطيئة تعني الموت..

- حسناً حسناً.. أين وضعتم سمو الأميرة؟

- إنها جاهزة للجراحة.. كل الأعضاء التي استأصلناها من العجوز والفتاة، هنا، ستبدأ بالتبديل..؟

لم تكن الأميرة قد خدرت، بعد همست إليه متوسلة:

- أرجوك يا دكتور، انتبه جيداً، لست أثق بأحد غيرك..

- لاتقلقي.. لن يجري إلا مافيه الخير لك..

ثم صرخ بجميع الموجودين:

- اخرجوا جميعاً من الغرفة المجاورة لغرفة العمليات.. غير مسموح أن يوجد أي شخص هنا.. سوى من أنتقيه من المساعدين والمخدرين..

وبعد أن خرج الجميع قال لطبيب التخدير:

- هيئ المخدر بشكل تدريجي..

وبدأ هاني عمله وكل من حوله منشغل بالمهمة التي أوكلت إليه..

ذلك الرجل الوغد، اختلق قصة الأعضاء التالفة والأعضاء البديلة، وقتل العديد من الناس وأجرى تجاربه عليهم، من أجل وضعها في جسم سليم هو جسم الأميرة.. إنها منهكة معذبة مغتصبة، تعاني من يأس قاتل.. وزوج أمها هو المعتدي..

اندفع طبيب شاب:

- و ماذا أفعل أنا ياسيدي؟

- قف في تلك الزاوية وراقب أجهزة الضغط والتنفس فقط..

- ألن أشاركك العمل..

- لا.. سأقوم بذلك بنفسي، وستعتني الممرضة بتقديم الأدوات المناسبة..

سيقوم باستئصال الجنين الميت الذي يرهق الأميرة.. إنه أشبه بورم، غير قابل للإزالة إلا بالجراحة..

وتمكن هاني في وسط ذلك الجو الغريب من إجراء الجراحة.. واستئصال الجنين الميت، وإلقاء أشلائه مع الأعضاء المستأصلة من المرأتين، والإيحاء بأن الجراحة كانت لاستبدال الأعضاء التالفة بالأعضاء السليمة..

ولم يدع للطبيبين فرصة للانتباه، إذ كان صارماً بأوامره.. ولكنه لم يكن حذراً بشيء غاب عن ذهنه.. فتلك العمليات كانت من أجل قتل الأميرة وقتل سرها معها..

لذلك عندما خرج وهو يزف البشرى بنجاح العمليات، رأى التجهم والعبوس على وجه الشيخ.. ولم يفهم في البداية السبب، ثم لمع في ذهنه خاطر الأميرة المغتصبة، المساقة للذبح..

كانت الملكة وزوجها في القاعة الرئيسية للمستشفى، أشرق وجهها بالحبور، وهي تسمع الطبيب يزف لها البشرى، واربدت سحنة زوجها.. فأيقن هاني أن الأميرة مازالت في خطر.. فقرر أن يحرسها بنفسه..

ولكن الشيخ لم يترك له فرصة لذلك، إذ قال ببساطة أمام الملكة..

- لقد بذلت جهداً كبيراً، يا دكتور الأفضل أن ترتاح.. أليس كذلك يامولاتي؟

- بالطبع.. سترتاح يا دكتور.. ستقيم في جناحك الفاخر..

- ولكن..

- إنه أمر مولاتي.. لاتخالفه.. ستغضب..

فكر قلقاً لقد بذل جهداً كبيراً لإنقاذها، كيف سيتركها للخطر من جديد..؟

- هيا يا دكتور، لا تخالف مولاتي، ستغضب كما قلت لك..

- نعم.. يجب أن ترتاح، يبدو عليك التعب..

- سأبقى بعض الوقت، حتى أطمئن عنها..

- كما تشاء.. قلت: إن حالتها استقرت؟

- نعم في الوقت الحاضر.. ولكن قد تحدث مضاعفات..

- بضع دقائق أخرى.. لابأس ياعزتي.. ليبق بضع دقائق معها حتى يستقر وضعها..هه.. ابق معه يافارع..

- حاضر يامولاي..

- يجب أن نراك يا دكتور، ستكون مكافأتك مجزية..

- شكراً لك ياسيدي..

همست الملكة في أذنه:

- سأحاول أن أراك يا دكتور في وقت مناسب..

- بأسرع ماتستطيعين، أرجوك..

- أوصيك بها يا دكتور، إنها بائسة الحظ..

- لاتقلقي يامولاتي..

قال فارع بعد خروج الملكة والحاكم وحاشيتهما:

- أتريد شيئاً يا دكتور؟ سأبقى إلى جانبك..

- لا يا فارع..انتظر في الخارج، سأطمئن عن حالتها وألحق بك..

- سنكون حولها جميعاً، لا تقلق يا دكتور.. لقد قمت بعمل عظيم..

- من المستحيل أن تتعرض لكل هذه العمليات من تبديل الأعضاء التالفة، وهي تحافظ على استقرار أجهزتها الحيوية..

(٥)

عاد الضباب يغطي الملامح والأشياء، شعر هاني بوهن شديد، فجلس قرب الأميرة وعيناه تدوران في محجريهما.. والدوار يعصف به، واختلطت المشاهد معه، وهو يستند إلى ظهر المقعد قرب سرير الأميرة..

ثم رأى كأنه يدخل في نفق مظلم ويسمع أصواتاً مخرشة للآذان، قبل أن يشعر بضربات تأتي على رأسه بشكل متلاحق..

شعر أنه يستيقظ من حلم مزعج، وحين فتح عينيه رأى نفسه في السرير، ولم تكن زهرة إلى جانبه..

كانت الساعة تقارب السادسة صباحاً.. وهو لم يستطع بعد تجميع أفكاره وفهم طبيعة الوضع الذي رأى نفسه فيه.. ولكن شعر بالتعب فأغمض عينيه..

كانت زهرة قد استيقظت ولم تشأ إيقاظ هاني، وقد لحظت كيف الأرق نتيجة الأحلام الغريبة التي رآها في تلك الليلة، حول الأميرة المر... المغتصبة وواقعها البغيض..

أيقظت هاني الصغير وقد أعدت إفطاره، وهيأت حوائجه المدرسية، تمهيداً

لمرور الحافلة التي تقله إلى مدرسته، كان هاني في الحضانة، وهو لم يكمل الرابعة من عمره..

عادت الأحلام الغريبة تتراءى لهاني، وجد نفسه من جديد، يغيب في ضباب ينقله إلى ذلك العالم العجيب، ليرى نفسه في غرفة عمليات، على مقعد قرب سرير الأميرة..

كانت تتأوه وهي في سريرها، وتتقلب.. وحين فتحت عينيها ورأته قربها.. انفرجت أساريرها..

- الحمد لله أنت هنا يا دكتور؟

- أنت بخير.. لا تقلقي.. لن أدع أحداً يؤذيك..

- كنت أرى كابوساً، كان النذل يحاول أن يخنقني.. ليتني أهرب إلى أقاصي الأرض حتى لا أرى وجهه القبيح..

فكر قلقاً.. وماذا يفعل؟ إنهم ينتظرون الفرصة للإجهاز عليها، فاجأهم نجاح عمليتها.. اعتقدوها ستموت.. أتته الممرضة:

- أتريد شيئاً يا دكتور؟ هل أحضر حقنة مسكن..

- لا..لا داعي لذلك.. إنها بخير.. يمكنك العودة إلى عملك..

- حسناً..إن احتجت إليَّ فاضغط على الجرس..

- انتظري.. هل هذا الباب مفتوح هنا؟

- نعم.. إنه يؤدي إلى غرفة النسوة اللواتي استؤصلت أعضاؤهن، من أجل سمو الأميرة..

سألته الأميرة:

- زارتني أمي؟

- نعم.. واطمأنت عن حالتك..

- ليتني أموت كيف سأعيش وذلك النذل يسد علي كل الأبواب لسحنته الكريهة؟

- أنا أفكر بمخرج، يجب أن أبعدك عنهم..

- ليتني أبعد إلى الأبد عن وجهه.. لاتتصور كم أشعر باليأس والإحباط عندما أراه.. إنه وحش.. وحش..

- اهدئي يا سمو الأميرة.. خطرت ببالي فكرة.. يجب أن تساعديني في تنفيذها.. سأشرحها لك...

تمكن بسرعة غريبة من إحضار جثة مربيته، ووضعها في سرير الأميرة، ثم نقل الأميرة إلى الغرفة الأخرى، وهي غرفة النسوة اللواتي يعانين من التجارب التي يجريها أطباء الحاكم عليهن، كفئران في مخابر.. فئران تجارب، وهن بشر لهن مشاعر وأحاسيس..

غطى وجه العجوز جيداً، ونادى على فارع ليبلغه أن الأميرة ماتت.. وكان هذا الخبر كلسان من اللهب انتشر سريعاً، ليرى الحاكم بعد لحظات فوق رأسه..

- ماتت؟ ألم تقل إن حالتها استقرت؟

- لا ياسيدي.. كنت خائفاً من المضاعفات، وقد حدثت.. رحمها الله.. منظرها ليس مريحاً ياسيدي.. لقد انتفخ جسمها، وتغير شكل وجهها.. المشهد مرعب ياسيدي.. مازرعناه فيها من أعضاء مكان التالفة، قد أحدث اضطرابات في كل الأجهزة الحيوية.. أنا آسف ياسيدي.. لم أستطع رد القضاء..

لا عليك.. بذلت جهدك..

كان يبدو مسروراً رغم محاولة إخفائه ذلك، ثم صرخ بمساعده الشيخ:

- أعلنوا الحداد الرسمي..

ثم قال لهاني:

- ستصل إليك مكافأتك لا تقلق.. بذلت جهدك..

- أرجوك، ادفنها بسرعة.. قبل أن يتفسخ جسمها، وتنبعث رائحة التفسخ.. مايحدث في جسدها، قد ينقل الفيروسات التي هشمت أعضاءها، إلى الناس من حولها.. الأفضل دفنها بسرعة..

- وهو ماسنفعله.. يبدو عليك التعب..

- نعم ياسيدي.. أنا متعب لدرجة لاتصدق..

- اذهب لترتاح.. سنتكفل بالباقي..

- شكراً لك ياسيدي..

خرج هاني من الغرفة الخاصة بالأميرة، واتجه صوب الغرفة الثانية، وتذكر فجأة أمينة، أين هي الآن؟ شعر بالرعب من أن يكونوا قد وضعوها في البراد، وقد أبدلها بشق النفس. ولكنه رآها في مكانها، وقد بدت يدها من تحت الغطاء..اقترب منها، وأزاح الغطاء عن وجهها، كانت مازالت تحت تأثير مخدر العملية التي تظاهر بإجرائها لها لاستئصال بعض أعضائها، دون أن يجريها.. أيقظها بحقنة صغيرة.. فتنهدت..

- آه.. أين أنا؟

- أنت في المستشفى يا أمينة، أنت بخير، أجريت عليك اختبارات بسيطة لا تقلقي، أنت في وضع صحي جيد..

- أشعر أنني دائخة..

- سيزول تأثير المخدر بسرعة.. الحمد لله الكل منشغلون بموت الأميرة، يجب أن أنفذ الخطة بسرعة..

- أستطيع النهوض؟

- نعم..نعم.. يجب أن تنهضي.. سأحضر لك لباس التمريض، ستقومين بما أطلبه منك بالحرف.. هيا يا أمينة..

تنهدت متعبة دائخة:

- سأفعل ما تريده.. ولكن أين أمي؟

- ستعرفين كل شيء فيما بعد.. ارتدي بسرعة هذا اللباس، ادخلي إلى الحمام هنا بسرعة واغسلي وجهك.. وابتلعي هذه الحبة ستنشطك..

- حسناً يا دكتور..

كما رسم هاني، دفعت أمينة وهي ترتدي لباس الممرضة سرير الأميرة التي غطى هاني بحرص وجهها، وهو يمشي إلى جانب أمينة.. حتى تمكنا من الوصول إلى مصعد المرضى..

أنزل السرير إلى القبو، بواسطة المصعد، وألبستها أمينة ثيابها الأصلية وأخرجتها إلى سيارة الدكتور هاني، وسط خلو الأمكنة، تقريباً..

وحالما انطلقت به السيارة، ومعه أمينة والأميرة الصغيرة، شعر براحة لاتوصف.. ولكن شيئاً حصل له.. فلقد عاوده الدوار والضباب الذي غطى الأفق.. وقبل أن يغيب من جديد في العتمة، رأى أمينة قربه تبتسم، وهي تتولى قيادة السيارة..

. . .

(٦)

شعر بالإعياء والدوار.. ثم سمع ضجة غريبة ورأى أضواء شديدة قبل أن يسمع من يتلفظ باسمه.. كانت زهرة قد فتحت الستارة لتتدفق أشعة الشمس وفتحت النافذة وقد رأت أن هانياً تأخر عن موعد استيقاظه، والساعة تقارب السابعة والنصف، ويجب أن يلتحق بالمستشفى سريعاً.. وتذهب هي إلى مدرستها.. وهكذا استيقظ وفي جعبته الكثير من المعلومات التي سجلها في جمل داخل دفتر يومياته..

ولكن أحلام هاني توقفت، ورغم شغفه بمعرفة ماجرى للأميرة الصغيرة، فقد مرت عدة أيام عليه دون أن يرى حلماً.. بدأ يستعرض شخصيات حلمه، وتوقف مع شخصية العجوز، تلك المرأة التي ربته بعد وفاة أمه..

ولكن أمه لم تمت في الواقع، ولم ير تلك العجوز ولا أمينة ابنتها، رغم أنهما في الحلم كانتا قريبتين منه.. ما الذي جرى للأميرة وأمينة تقود السيارة بهما؟ هذه آخر صورة رآها، وهو تحت تأثير المخدر..

لقد رأى تلك الشخصيات في أحلام عادية،كيف له أن يعود لذلك الزمن ليرى ماجرى.. ليته ينفذ من جديد إليه.. ولماذا لايكون ذلك الزمن مقبلاً، وليس ماضياً؟ لقد رأى تقنيات متطورة، وإبدال أعضاء سليمة بأعضاء تالفة..مجموعة أعضاء وليس عضواً واحداً فقط.. كلية وجزءاً من الكبد والطحال وبعض الغدد.. كلها دفعة واحدة.. أي إن ذلك الزمن لم يظهر بعد.. أحلامه كانت أحلاماً عن زمن ما في المستقبل.. أحلام شعر أنه يغرق في تفاصيلها..

وهو يقلب في إحدى الصحف، لمح صورة، اقشعر بدنه حين رآها كانت

حول برمجة معلومات طبية واستخلاص نتائج جديدة.. كان بحثاً جديداً نالت عليه شهادة الماجستير..

تمكن بوساطة الهاتف من الوصول إلى تلك المهندسة الشابة.. واتصل بها طالباً أن يتعرف بها لأمر هام.. بعدما عرفها بشخصيته، وكان اسمه معروفاً، كجراح ماهر بين أمهر الجراحين العرب..

زارته في المستشفى في أحد أيام العطل وتبادلا الحديث..

- وجهك يبدو مألوفاً يا دكتور.. ربما لكثرة نشر صورك في الصحف وتعدد اللقاءات التلفازية معك..

- وأنت وجهك مألوف لي.. بل مألوف لدرجة غير عادية..

- لم أفهم؟

قال مرتبكاً:

- أقصد تشبهين قريبة لي، كأنك توءمها..

- ألهذا اتصلت لي؟ وكان إلحاحك لتتعرف بي.. لابد أنك كنت تحب تلك القريبة كثيراً.. هل تزوجت؟ أقصد تلك القريبة التي تشبهني؟

- لا أدري.. أنا متزوج، وعندي طفل، وأحب زوجتي..

- آسفة.. يبدو أنني وجهت الحديث في اتجاه معين..

- ستأتي زوجتي بعد قليل وستتعرفينها.. أرى خاتماً في أصبعك..

- حفلة زفافي بعد أسبوعين.. بالطبع أنت من بين المدعوين، وهذا يشرفنا..

- شكراً لك..

أقبلت زهرة ومعها هاني الصغير، قال لزهرة:

- هدى، التي حدثتك عنها.. المهندسة الشابة..

- تشرفنا.. لم تحك لها عن أحلامك؟

- لم أر ذلك مناسباً، يبدو نوعاً من الجنون..

(٧)

وتوطدت علاقة هدى بهاني وزوجته، وبعد خروجه من المستشفى زارته وخطيبها، لتوجه إليه وإلى زهرة الدعوة رسمياً إلى حفل زفافها..

وفي أحد الأيام أجرى جراحات عديدة، وعاد منهكاً إلى البيت في وقت متأخر..جهزت له زهرة الطعام وأتت إليه فوجدته نائماً على الأريكة، أشفقت عليه فلم توقظه وكان ذلك في نحو العاشرة ليلاً..

جلست قريبة منه تقلب في بعض الصحف.. وهاني يغرق في نوم عميق، نقله إلى عالم أحلام، كان ينتظر عودتها إليه بفارغ الصبر..

☆ ☆ ☆

كانت أمينة تقود السيارة وحين رأته قد انتبه في مقعده ضحكت:

- الحمد لله أنني بدلت مكانك قبل أن يحدث لنا حادث، كنت كمن يغفو بعمق كالمخدر.. أنا أدور في السيارة منذ ساعة وقد كاد بترولها أن ينفذ.. لاأدري إلى أين سأذهب.. المريضة نائمة بعمق..

- قفي على اليمين، سأقود السيارة بنفسي.. سأتجه إلى منزلي.. أنا أعرف موقعه جيداً..

- أنا آسفة، كنت أضحك لأنني وجدت نفسي في وضع الحائرة التي

صعد مكانها وأقلع بالسيارة من جديد:

- لابأس يا أمينة، ألم تتأوه الصبية؟

- ما قصة هذه الصبية، لم تقل لي، لماذا هربتها من المستشفى؟

- سأحكي لك كل شيء.. ولكن قولي لي ألم تتأوه فعلاً؟

- تقلبت قليلاً، ثم نظرت لي بهدوء ونامت وهي تبتسم.. كأنها أحست بالأمان..

- الحمد لله.. ماذا يا أمينة؟ في أي يوم نحن؟

- أمعقول ألاّ تعلم.. نحن في اليوم السابع عشر من سبتمبر.. أيلول..

- والعام؟ لا تسخري مني، نسيت التاريخ..أقصد العام..

- معقول نحن في عام ٢٠٣٩ ميلادية.. لابأس أنت منهك.. قل لي ماذا حدث لأمي؟ أين هي؟

- يبدو أنني فقدت جزءاً من ذاكرتي.. في أي البلاد نحن؟

- أمعقول ألاّ تتذكر بلادك.. ومدينتك؟

- لا بأس.. قولي لي أرجوك.. أنا في حيرة من أمري..

- لا بأس.. سأجيبك عن أي سؤال..

وحكت له أمينة عن الوطن، والمدينة، وعن وضع الناس، وظلم الحاكم، والملكة المغلوبة على أمرها..

- أيمكِن أن تقدمي لي شيئاً من التفاصيل عن الأحداث التي وقعت مابين عامي (٢٠٠٠ و ٢٠٣٩)؟ يبدو أنني بحاجة لترميم ذاكرتي.. يا أمينة..

- لا بأس يا دكتور.. تبدو متعباً مرهقاً.. سأحكي لك ماتريد سماعه.. ولكن أما زال بيتك بعيداً؟ أنا لاأعرف موقعه..

- معك حق، يجب أن نصل إلى البيت ونرتاح فيه.. إنه في الشارع التالي على اليمين بعد الإشارة.. ذلك المدخل هناك.. أمامه نباتات زينة..

- نعم..نعم.. أرجو ألاّ تكون شقتك في دور يرتفع كثيراً..

- في الدور العاشر فقط..

أوقف السيارة في الموقف المخصص لها أمام البرج الذي يحتوي شقته سألته أمينة:

- وماذا ستفعل مع الصبية؟ هل أساعدك في حملها؟

- لابأس هي خفيفة الوزن.. رافقيني إلى المصعد..

فتحت له الباب وضغطت على الطابق العاشر، ثم تناولت منه مفتاح البيت حين وصلا

- انتبهي يا أمينة.. حتى لا ينحسر الغطاء عنها، مازالت بلباس العمليات..

- لاتقلق يا دكتور.. يبدو أن لا أحد في البيت لاأسمع صوتاً..

- لابأس.. سأمددها على هذه الأريكة هنا.. الحمد لله كل شيء جرى على مايرام.. أغلقي الباب يا أمينة..

أغلقت الباب ثم قالت له:

- حتى الآن لا أعرف ماجرى لأمي، ولا أعرف من هذه الصبية التي غامرت لأجلها كثيراً..

- سأحكي لك كل شيء، ولكن حدثيني عن هذا العصر، يبدو أنني فقدت ذاكرتي..

- آه يا إلهي كم يبدو حظي سيئاً سأحكي لك كل شيء، قد تستغرب أنه في فترة من الفترات، كادت أمي تجبرني على الزواج من أكثر من شاب أعجبها كثيراً بل وأعجبني، ولكن قراءتي لمعطيات المستقبل جعلتني أبتعد عن التفكير بهذا الموضوع، بل وألغي أية إمكانية لي للزواج، لا أريد أن أنجب أولاداً يعانون متاعب السنين المقبلة..

- إلى هذا الحد؟

- اسمع يا دكتور.. أنت بمنزلة أخي وعشنا طفولتنا سوية..قد أكون متطرفة بتشاؤمي، ولكني سأحكي لك عن هواجس مستندة إلى ماقرأته من الماضي من بداية هذا القرن أي عام (٢٠٠١) حتى الآن عام (٢٠٣٩)..

- حسناً، أنا أستمع إليك يا أمينة.. أرجوك...

- حسناً.. سأحكي لك، ولكن اسمح لي سأجهز القهوة، أشعر بالتعب لدرجة لاتوصف..

دلها على المطبخ، وعاد يتمدد على الأريكة متعباً، وبعد قليل عادت ومعها صينية القهوة، وبدأت أمينة تحكي عن العقود الأربعة من القرن الحادي والعشرين، منذ أن بدأت القوة الأكبر حرباً سمتها حرب (العدل)، بدأت تحولات العالم بشكل مختلف..وقد نهض يستمع إليها مذهولاً.

كانت أمينة تحكي ساهمة شاردة، تنفعل أحياناً وهي تنقل الأحداث كأنها تشاهدها بعينيها.

- تصوَر أبنية تنهار بمن فيها بطريقة غريبة، وتوضع الأسماء والدول والهيئات والجماعات وحتى الأفراد على لوائح، وتشن عمليات إبادة.. ولاتنتهي العمليات سريعاً، إذ إنها تأخذ شكل التعاظم بالتدريج حتى تشمل الكرة الأرضية برمتها..

- إلى هذه الدرجة؟

- وفي عام (٢٠١٥) وكنت في العاشرة من عمري، جرت لي أحداث بعد عودتي من المدرسة في يوم كنت أعتبره عادياً كغيره..

- ماذا يا أمينة حدثيني..

- لم تكن المدرسة بعيدة عن البيت، ألا تذكر مدرسة (بلابل المحبة) يا دكتور؟

- نعم..نعم.. لم تكن بعيدة عن البيت أكثر من (٥٠٠) متر..

- كنت أقطع الطريق من المدرسة إلى البيت مع بعض الأطفال من جيراننا، حين بدأ قصف أحد الأحياء المجاورة لنا..

☆ ☆ ☆

اندفع أحد جيراننا كان رجلاً طيباً صديقاً لأبي

- لا تخافي يا ابنتي؟ لماذا لم تستقبلك أمك، تعالي سأوصلك..

- أمي ليست في الدار الآن.. إنها عند أبي في المستشفى، قالت لي ذلك في الصباح..

- لاتبكي ياصغيرتي.. ستدخلين إلى دارنا حتى تعود أمك.. سنخبرها أنك هنا بأمان..

كان القصف شديداً مرعباً، وكنت أرتجف من الخوف، هدّأني الرجل الطيب:

- إنها بعيدة عنا لاتقلقي، يضربون مناطق محددة..

- كأنها قريبة منا، لماذا يضربون علينا القنابل؟

- أنت صغيرة تجاه هذا السؤال يا ابنتي.. تعالي معي.. لاتخافي ستكونين بأمان.

- قد تتأخر أمي؟

- لن تتأخر، ستسمع أصوات القصف وستأتي سريعاً.. ادخلي يا ابنتي..

استقبلتني زوجته وضمتني إليها:

- لا تخافي يا حبيبتي.. أنت بأمان هنا.. تعالي معي إلى المطبخ، البنات يتناولن الطعام..

- طعام الغذاء؟

- نعم..إنهن غير خائفات..أولئك الطيارون يضربون أهدافاً محددة.. لن يصل القصف إلى هنا.. تناولي الطعام باطمئنان دون خوف..

ولكني كنت ما أزال أرتجف، قال لها:

- لن تقبل تناول الطعام، ألا ترين الرعب الذي يأخذ بها..؟

- سأحاول معها، على الأقل قد تتخلص من خوفها حين ترى البنات غير خائفات.. تعالي يا أمينة، هيا يا ابنتي..

☆ ☆ ☆

«ولكن صواريخ مدمرة وصلت إلى بعض بيوت الحي.. اهتزت جدران بيت جيراننا الذي استقبلني.. وتكسر الزجاج، وسقطت بعض الأغراض من الرفوف وانطلقت سميحة جارتنا وزوجها، والذعر الذي بدا على البنات اللواتي رفعن أصواتهن بالصراخ والبكاء، رغم محاولات والدهن تهدئتهن.. لن أنسى تلك الأيام ماحييت كانت أياماً صعبة مخيفة»

كان هاني يستمع مدهوشاً سألها:

- وكيف عادت أمك؟

- مسكينة أمي، سقط صاروخ على المستشفى، فدمر جزءاً كبيراً منها، وأصيب الجزء الباقي بأضرار.. مات أبي المريض بشظية، وأصيبت أمي بجروح جعلتها تغيب عني عشر ساعات كاملة.. كنت أعاني عندها الأمرين، من الكوابيس والأحلام المزعجة رغم محاولات الخالة سميحة تهدئتي.. وحين عادت أمي، وهي تعصب جراحها، ضمتني وانفجرت بالبكاء، وقد أبلغتني بوفاة والدي.. وأقسمت ألاّ تفارقني أبداً.. وأذكر أن والدك ووالدتك كانا إلى جانبنا في تلك المحنة..

☆ ☆ ☆

- آه يا ابنتي يبدو أنك ستعيشين في زمن يختلف عن كل الأزمان..

- لماذا قتلوا أبي بصواريخهم ياأمي؟

- تسوية حسابات، لاتهمهم أرواح البشر، يهتمون بمصالحهم.. وهذه كارثة على الحياة الإنسانية..

- يسوون حساباتهم مع أبي؟ هل يعرفهم؟

- بالطبع لا.. والدك كان ضحية مثل غيره.. لاتسألي أسئلة أكبر من سنك يا ابنتي.هيا جهزي نفسك، سأوصلك إلى المدرسة.. دوامك اليوم كما علمت هو بعد الظهر..

- ولكنكِ لم تتعافي بعد ياأمي؟ سيوصلني جارنا مع بناته..

ولكنها أصرت مكابرة على جراحها:

- يجب أن أوصلك بنفسي، وأعيدك بنفسي.. أنت [illegible]

(٨)

- ولم تهدأ الأعمال الحربية حولنا، وقد تحولت في اتجاه آخر، أصيبت مدينتنا بأمراض غريبة، لم ينج منها سوى القليل، وكان السبب قنبلة جرثومية ألقوها علينا.. آه يا دكتور.. أمعقول أنك لم تعايش تلك الأحداث؟ أمعقول أن تكون مهنتك قد شغلتك عن متابعة مايجري؟

- أنا كمن فقد الذاكرة يا أمينة.. أكملي حديثك أرجوك..

- بدأت ملامح الكوكب تتوضح، القوة الوحيدة الظالمة مازالت في انتشارها في البلدان، تقتل من يحلولها، حتى تحولت أشكال الناس في الدول التي كانت تسمى نامية، إلى أشكال مهزومة بملامح باهتة. لم يجرؤ أحد على المقاومة بعد أن كثر الجواسيس والعملاء وأصحاب المصالح الخاصة الذين باعوا ضمائرهم بأبخس الأثمان.. أصبح سكان القوة العظمى المسيطرة، يتبجحون على غيرهم، وأصبحوا أكثر إمعاناً في إذلال الناس.. رغم أن القليل القليل منهم قد حاول دراسة هذه الظاهرة ونقدها، دون نتيجة... ولأنني كنت متفوقة في البرمجة، رشحوني وكنت في الثامنة عشرة من عمري، لأتابع في البلاد المترامية التي تسمى بلاد القوة الوحيدة العظمى..

- ألم يكن هناك بلدان منافسة؟

- مع الأسف أصبحت كلها من جملة البلدان التابعة للقوة العظمى، لأن القوة العظمى تلك، جيَّرت حكوماتها لصالحها..

- معقول، أمسح النظام الإنساني بهذه القسوة؟

- اشترت القوة العظمى وباعت بلداناً بأكملها، وحين ذهبت عام (٢٠١٩) في بعثة دراسية إلى تلك البلاد وراء المحيط.. استقبلتني امرأة صارمة الوجه جادة الملامح، من بعثتنا الدبلوماسية هناك، وكان بصحبتها امرأة أخرى من المركز العالمي للبحوث الذي سيستضيفني بين رحابه..

- أنا على درجة أمين سر أول، جئت أنبهك إلى قضايا هامة. يجب أن تلتزمي بها.. أولها طاعة الناس الذين أنت في استضافتهم، وعدم الأسئلة إلا عند الضرورة، والعمل المتواصل في خدمة المديرية التي تنتمين إليها.. لاكلام في السياسة أبداً، ولااستخدام للإنترنيت إلا بما يخدم بحوثك..

- أبلغوني بذلك عند مغادرتي..

- وأنا أعيد عليك ذلك، منبهة ومحذرة، لاتتحامقي بأي عمل قد يجلب الويل لك..

- حسناً ياسيدتي، سأكون عند حسن ظنك..

- حسناً يا أمينة..سأعرفك على (هيلاري) إنها المسؤولة عنك الآن، حتى نضمن لك استقرارك..

- مرحباً بك يا أمينة.. تفضلي ستكونين برفقتي الآن، ودّعي ابنة بلدك..

- شكراً لك ياسيدتي..

- سنلتقي يا أمينة، حين تسنح لنا الظروف.. مع السلامة..

قالت لي هيلاري:

- اسمعي يا أمينة، ستكونين معززة مكرمة، وكلما تفوقت وقدمت نتائج، كانت مكافآتك مجزية..سنأخذك الآن إلى السكن لترتاحي قليلاً.. وفي المساء سنصطحبك بجولة..

حاولت هيلاري أن تقدم لي كل مايمكن، لتشعرني بأهميتي، مسكناً صغيراً أنيقاً بين مساكن الطالبات المتفوقات، سيارة توصلني إلى العمل يقودها رجل في عقده الخامس.. وأخرى يمكنني استخدامها في ساعات الفراغ القليلة.. كان الدوام على الدراسة والبحث مرهقاً، منذ السابعة صباحاً، حتى السابعة

مساءً، مع فترة نصف ساعة للغذاء وبدأ أساتذتي يطالبونني بنتائج أصيلة، براهين مبتكرة لمسائل حاسوبية لها علاقة باختصاصي.. وكنت ألبي طلبهم كل اسبوع تقريباً.. وفي أحد الأيام.. اجتمع بنا بعض المسؤولين

- اسمعن جيداً أيتها الفتيات.. سيلقي مدير معهد الأبحاث قرارات اللجان المختصة أمام بعض المسؤولين في الدولة.. وأرجو ألاَّ توجد بينكن فتاة مقصرة.. انتبهن جيداً ستجلسن في الصف الأيمن.. بصمت وهدوء وتتلقين كل القرارات برؤوس منحنية.. هيا تحركن بانتظام

كنت أشعر أن صدري منقبض، وأنا أستمع لتلك الكلمات:

- أيها الجمهور الكريم، ويستمر احتفالنا بالمتفوقين من معهد الأبحاث المتطورة.. وتطل علينا مجموعة من الفتيات المختارات من كل البلدان، لخدمة بحوثنا حيث سيتلو الآن علينا، سيادة مدير معهد الأبحاث المتطورة عدداً من القرارات والتوصيات.

وتقدم مدير معهد الأبحاث بجثته الضخمة، وهو يستعرض الشبان من الجنسين الموزعين أمامه في المقاعدَ المزدحمة:

- باسمي وباسم زملائي أعضاء لجنة استراتيجية القرن، أشكر للسادة المسؤولين حضورهم.. وأعلن عليكم القرارات التالية: قرار رقم (١) للجنة العليا المشكلة من خبراء العلوم والتقنية العالية لهذا العام يقضي بتكريم الفائزين والفائزات ببحوثهم المبتكرة.. قرار رقم (٢) للجنة العليا بمعاقبة المقصرين والمقصرات بحرمانهم من بعض المكاسب التي كانوا يتمتعون بها، ويلح هذا القرار علَى ضرورة إعطاء هؤلاء فرصة اللحاق بمجموعة الفائزين والفائزات خلال الأشهر الثلاثة القادمة..قرار رقم (٣): يقضي بحجز الذين تمردوا على قراراتنا السابقة في معسكرات خاصة.. أنشئت خصيصاً لهم.. ستتلى عليكم أسماء المشمولين بهذه القرارات لاحقاً..

وحكت أمينة للدكتور هاني عن تكريمها بين المتفوقات، وكيف أثنى مدير المعهد عليها وعدها قدوة بين زميلاتها، ثم عدد أسماء اللواتي لم يستطعن الوصول إلى نتائج جديدة.. ووبخهن بطريقة غير مهذبة كما سمتها..

أما من كانت لديهن ظروف خاصة ومن بينها ظروف صحية ولم يستطعن فعلاً أن يقمن بأي عمل بحثي، بعد عدة محاولات، فلقد عدهن المسؤول متمردات، وقضى بحبسهن في معسكرات اعتقال خاصة لترويضهن.. سألها هاني:

- تعرفت على أنواع العقوبة التي نزلت بمن شملهن القرار الثالث؟ أقصد الحصار والعقوبة القاسية كما سموها؟

- طلبت من هيلاري أن تهيئ لي زيارة لهن.. ورأيت مشاهد تقشعر لها الأبدان.. آه يا إلهي..

- ماذا؟

- حراس قساة متوحشون، يسومون فتيات مازلن في عمر الورد، كل أنواع التعذيب

- معقول؟ لماذا؟ ألم يَكنَّ من بين المتفوقات؟

- نعم.. ولكنهن لم ينسجمن مع الجو الجديد، فحاولن الخروج على التقاليد بالخروج والاختلاط بالناس، وبناء جسور علاقات إنسانية خارج المعهد.. وهذا ماجعلهن يقصرن قليلاً، وقد نبهن لذلك، كثيراً، ولكنهن رفضن كل تلك التنبيهات لأسباب تعرفتها فيما بعد..

- حسناً احكي لي الصورة التي شهدتها عام (٢٠١٩)..

- لابأس..رغم أنها تفتق جروحي..

☆ ☆ ☆

«اصطحبتني هيلاري في أحد أيام العطل، وربما اعتقدت أن رؤية أولئك الفتيات ستدفعني لمزيد من التفوق، خوفاً من أن يحدث لي، مايحدث لهن.. دخلنا من عدة بوابات مكهربة.. يقف خلفها حراس ضخام الجثث، تبدو في عيونهم القسوة واللامبالاة.. إضافة إلى الانضباط والتقيد بالأوامر بدقة»

- انتهت البوابات يا أمينة.. الآن ندخل إلى المعسكر مباشرة..

- لماذا هذه الحواجز الأمنية والبوابات المكهربة؟

- لانريد أن تنجح إحداهن بالفرار.. ولانريد أن يدخل أحد إلا برغبتنا.. أفهمت؟ راقبي جيداً وحاولي أن تتعلمي الدروس التي أطمح أن تصل إليك..

- ماهذا ياإلهي.. إنهم يضربون الفتاتين بقسوة شديدة..

- نعم.. أحضرن إلى هنا لترويضهن، ومن يفشل ترويضها فعليها رحمة الله..

- ألسن من دول أخرى؟

- نعم.. دول حليفة، تمشي خلفنا، تتبعنا بذل، هذه هي سياستنا في العالم اليوم..

كانت إحدى الفتاتين تصرخ وتشتم جلاديها:

- آه أيها الأنذال.. لم أعد أشعر بشيء.. اضربوا لن أستسلم لكم.. حثالة.. أوغاد.. افعلوا بي ماتشاؤون أيها الأنذال.. لم يعد في داخلي حس.. قتلتم مشاعري وأحلامي.. اضرب..

كان أحد الجلادين قاسياً في التعامل معها ونحن نتفرج، وقلبي يتقطع:

- لن أضرب الآن.. سأنزع شعرك شعرة شعرة، وأقتلع أظافرك..

همست لهيلاري خائفة:

- أمعقول ياسيدتي؟ هذا غير منصف؟ إنها فتاة صغيرة..

- فتاة متفوقة، لم تستخدم عقلها لخدمتنا.. هذا جزاؤها..

- لم تعد تتحرك.. لقد ماتت..

- ربما أغمي عليها، حتى لو ماتت، يجب أن تتعظ الأخريات منها..

كانت الفتاة الأخرى مشدوهة مكلومة:

- أرجوك توقف.. سأفعل ماتشاؤون..

- لم يعد هناك مجال..

- سألبي كل مطالبكم.. سأتفوق وسأقدم كل قدراتي من جديد..

- كخادمة مطيعة.. كعبدة ذليلة..

- نعم..نعم.. كأحقر العبيد..

قال جلادها:

- لم أشف غليلي منك بعد.. خذي.. خذي..

- أرجوك..لا..

قلت لهيلاري:

- إنها تستسلم لم لا يوقف تعذيبها؟ حرام..

استجابت لندائي فأمرته:

- قف.. يكفي.. خذها وضمد جراحها..

- حاضر ياسيدتي..

قال للفتاة:

- أعتقد أن هذا سيكون درساً بليغاً..

رددت منهارة:

- نعم.. نعم.. درس مرعب..

«آه يا دكتور لاتتصور عمق المأساة التي رأيتها هناك، فتيات في سن صغيرة، يجبرن على أعمال مرعبة، وقد بلعن أحاسيسهن، وظل الرعب والخوف متجذراً في أعماقهن.. أشك أن تتمكن أية فتاة منهن، ممن انهارت واستسلمت، أن تعود إلى طبيعتها وتفوقها.. وأخيراً عدت إلى مسكني والمشاهد تتراءى أمام عيني، فلا أصدق أنها حقيقية.. وصممت في داخلي أن أعود إلى بلدي مهما كلف الأمر»

- وكيف عدت؟

- علمت أن من تقدم خمسة أبحاث مبتكرة في أسبوع واحد، وهذا كثير طبعاً، يسمح لها بإجازة تعود فيها لبلدها لمدة أسبوع، وهذا ماجعلني أسهر الليل وأصله بالنهار، لأقدم ستة أبحاث بدلاً من خمسة.. وهذا ماجعل هيلاري تهتز من الفرح..

- ستة أبحاث، معقول؟ فاجأني المشرف عليك بهذا الخبر؟

- وهذا ما أتعبني كثيراً ياسيدتي..

- سترتاحين بعض الوقت، وتزورين شلالات (نياغارا) وحديقة ألعاب ديزني وشواطئ البطريق في الشمال..

- أنا مشتاقة لأمي، أريد أن أراها..

- سنحضرها إلى هنا..

- من الصعب عليها أن تسافر، تخاف من الطائرات، مرض الأماكن المرتفعة يرهقها أيضاً..

- سأحاول أن أقنعهم بالموافقة.. أنت جوهرة ثمينة يجب أن تظل عندنا، أنت عينة عبقرية نادرة..

كنت أردد ضارعة «يارب ساعدني»

ووافقوا على عودتي، واستقبلتني أمي في المطار، وهي تكاد تقتل نفسها من الفرح، لم تكن مصدقة أنني عدت أخيراً، لحظت التعب والإرهاق على وجهي، فظنّت أنها الرحلة الطويلة بالطائرة.. تبادلنا الحديث هامستين، وسيارة التشريفات تنتظرنا، حيث صعدت فيها معززة مكرمة مع أمي:

- «وأخيراً عدت يا ابنتي، أخذوك مني رغماً عني، لم أكن أعتقد أنك ستعودين..سمعت مئات القصص عما يجري هناك.. وحاولت الوصول إلى أعلى السلطات هنا، لمساعدتي في استعادتك، ولكنهم أصموا آذانهم عن سماعي.. كيف وافقوا لك أن تعودي؟»

- سأحكي لك كل شيء يا أمي لاتتكلمي كثيراً، أنا تحت المراقبة. آه ما أشد شوقي إليك ياأمي..

- وماذا أقول عن نفسي.. أقسمت ألاّ تفارقيني بعد تلك الفترة المخيفة، إبان القصف والقنابل الجرثومية.. ولكن الناس هنا أرغموني على التخلي عنك.. هددوني بقتلك..

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم يا ابنتي.. هيا.. ياحبيبتي..

صعدنا السيارة التي أرسلت خصيصاً، من أجل العالمة الصغيرة المتفوقة أمينة.. هكذا ردد السائق ومرافقه.. ثم قال لأمي بعد أن أقلعت السيارة:

- ياسيدتي..من حقك أن تفخري بهذه الابنة المتفوقة التي بيضت وجوهنا جميعاً في تلك البلاد المتطورة التي تحكم العالم..

- معك حق.. أشعر بالفخر وبالحب الكبير لصغيرتي المتفوقة..

(٩)

وحكت أمينة للدكتور هاني، كيف تمكنت ببراعة من الاختفاء، حيث دبرت حادثاً ملفقاً، لسيارة أمها، بمساعدة أحد أصدقائها العاملين في المستشفى، حيث وضع داخل السيارة جثتين لميتتين من أموات المستشفى، وفجرت السيارة في طريق خارج المدينة، وقد اعتقدت السلطات أنه حادث مدبر قصد به مدبروه قتل العالمة الصغيرة، لما تقدمه من إنجازات علمية لصالح القوة الوحيدة..

ونشرت صورها في الصحف، وتحدث الصحفيون عن إنجازاتها العلمية وتمنوا لها الرحمة، وكرمها المسؤولون بمنحها وساماً رفيعاً، سلم لمدير معهد الأبحاث في المدينة الصغيرة، ليضعه مع صورتها بين صور الراحلين من المتفوقين.. وحكت أمينة كيف انتقلت وأمها من مكان لآخر، وقد ذاقا شظف الفقر قبل أن تنجح في أن تدبر عملاً لها في حاسوب إحدى شركات النقل..

كانت أمي صديقة حميمة لأمك، ثم ربتك بعد أن توفيت والدتك، التي لم أر في مثل طيبتها وحنانها امرأة أخرى.. مثل أمي تماماً..

وسمعنا أصوات تأوهات قالت أمينة:

- يبدو أن مريضتك استيقظت..

- أتعلمين من هي؟ إنها الأميرة الصغيرة، ابنة الملكة..

- ماذا تقول؟ ابنة الملكة؟ التي وضعت كل شيء في يد زوجها الشرير؟

- نعم.. إنهم يقيمون الآن مآتمهم وهم يدفنون جثة أخرى، معتقدين أنها الأميرة الصغيرة..

- وماذا لو رأوا وجهها؟ سيعرفون الحقيقة؟

- نصحتهم بعدم رؤيته، لأنه مشوه، قد يعطي صورة سيئة عن الميتة.. وأعتقد أن الحاكم يهمه ألاً يرى أحد هذا الوجه المشوه الذي يعتقد أنه هو من سبب له ذلك.. إنها تتقلب قد تستيقظ قريباً.. أتعلمين يا أمينة؟ لم تحكي لي أيضاً عن الحوادث الأخرى التي جرت بعد عام ٢٠١٩ ونحن الآن عام ٢٠٣٩م

- وأين أمي الآن يا دكتور؟

- احكي لي أيضاً ماسألتك، وسأقول لك كل شيء عن أمك.. أرجوك؟

- هل ألخص لك تاريخاً حافلاً بالمآسي والمحن ابتليت به البشرية بقوة عظمى وحيدة مبتزة، وضعت تحت جناحها القوى الأخرى، وسلبتها قرارات حريتها.. وتحكمت عصبة بهذه القوة، مازالت تحتل قسماً من أرضنا بعد أن حاولت سحق نأمة المقاومة في كل صدر.. ورغم ذلك، مازال الجمر تحت الرماد لم يخبُ.. آه.. أمامي تفاصيل مرعبة، تسبب لي الرعب حين أستعيدها..

- أريد أن أتعرفها أرجوك..

- أمعقول أن تكون خارج حدود الذاكرة؟ كيف عشت بعد أن انفصلت عنا؟ لم تحك لي شيئاً عن حياتك.. لا أرى في هذا البيت ألبسة نسائية ولا ألبسة أطفال.. ألم تتزوج؟ أم إن هذا البيت ليس بيتك؟

- ليتني أتذكر شيئاً، جئت إلى هنا، وأنا أعلم أنه بيتي، ولا أذكر شيئاً سوى ذلك.. قلت لك، كأنه فقدان ذاكرة كلي..

- أعانك الله..

- حتى هذه الأميرة لقيتها في المستشفى بعد أن أحضروني إلى هناك، لأعالجها، فأبدل بأعضائها التالفة أعضاء بديلة من أناس..أناس أشعر أنهم جزء مني. من كياني.. آه يا أمينة..

- دكتور؟ اصدقني القول، أين أمي؟ أين أمي؟ إنها في مقام أمك..

- لم أفعل شيئاً لها، هم من استأصلوا أعضاءها وقتلوها.. ولولا أن أتدخل لفعلوا بك الشي نفسه...

انفجرت تبكي، ثم ارتفعت نبرتها الغاضبة:

- وضعوا أعضاء أمي الصحيحة في هذه الفتاة المتكومة.. سأقتلها..

- لم يضعوا شيئاً، إنها مسكينة سأحكي لك القصة.. اهدئي..

(١٠)

ولم يدر هاني كيف استيقظ من حلمه الغريب.. كانت زوجته إلى جانبه تنظر إليه مشفقة.

- لم أشأ إيقاظك، كان حلماً من أحلامك الغريبة.. كنت تنفعل وأنت تتقلب، وتحرك يديك، وتدور عيناك من تحت الجفون في محجريهما..

- آه يازهرة.. ليتني أفسر سبب تلك الأحلام.. بل ليتني أكمل حوادثها لأتعرف المستقبل الذي ينتظر عالمنا..

- أتعتقد أنك تقفز بأحلامك فوق الزمن ياهاني؟

تنهد:

- نعم ياحبيبتي..نعم..اسمعي أريد أن أرى هدى تلك التي تشبه أمينة، أشعر أن شيئاً مايربطها بمستقبلي أو يربطني بمستقبلها..

- سنزورها قريباً ياهاني..

- نعم.. يجب أن أراها وأتابع حياتها.. يجب أن أفهم من أين أتت تلك الأميرة الصغيرة؟ وهل سيكثر الملوك في كل مكان؟ وكيف سيحدث ذلك..؟

وبعد أيام.. وهاني مشغول بأحلامه، رأى وسط الزحام وجهاً جعله ينتفض مرعوباً وحين لاحق صاحبته، تمكن من أن يميز فتاة في مقتبل العمر تشبه إلى حد كبير تلك الأميرة الصغيرة التي رآها في الحلم..

رآها وتملّى ملامحها جيداً ووقف أمامها مرتبكاً، نظرت إليه بدهشة، ثم تسرّبت في الزحام منسلة بسرعة البرق، ولم ينتبه لذلك إلا بعد أن اختفت..

ركض يلاحقها ويبحث عن أثر لها دون نتيجة.. وقد شعر أن شيئاً مذهلاً فاته، كان يجب أن يتمسك باكتشافه..

وظلت الأسئلة تكبر في داخله.. وهو يبحث عن أجوبتها بكل جوارحه.. وينتظر وينتظر حوادث أخرى وأحلاماً تتفتق عنها مخيلته وحواسه التخاطرية..

☆ ☆ ☆

وتستمر الأحلام الغريبة تعاودك ياهاني، وقد بدأ قرن جديد، عشت في بدايته أحداثاً أعطتك عنواناً مؤلماً له.. ربما لن يكون أفضل من سابقه بالنسبة إلى الحصار والدمار والقتل، وامتهان كرامة الإنسان وتجويعه..

ورغم شغف الإنسان بكشف المستقبل المجهول الغامض بالنسبة إليه، رأى هاني أحلاماً عن هذا المستقبل، أرعبته.. ورأى نفسه أحد أبطالها، دون أن يفهم سر هذه النقلة الغريبة إلى عالم الغد عن طريق الأحلام..

يقابل في أحلامه أناساً، من بينهم مربيته العجوز التي تُسْتَأصل أعضاؤها، لتوضع في جسم أميرة صغيرة، كأعضاء بديلة لأعضاء تالفة، وابنتها أمينة التي تحكي عن العصر المرعب الذي بدا، وقد أخذت القوة الوحيدة تزداد بطشاً وقسوة على من لايمشي في ركابها، لدرجة أن العالم تحول إلى دول تابعة..

وتكونت أشكال بلا ملامح من البشر نتيجة الاستسلام لواقع مقيت لاوجود فيه للحرية والإبداع، إلا ضمن تعريفات ومصطلحات القوة الوحيدة.. التي فرضت وأتباعها نظاماً صارماً فوق كوكب الأرض..

ولأن هدى في الواقع تشبه مربيته العجوز، شبهاً عجيباً، فقد قرر أن يتعرف بها بشكل أعمق، مع زوجته، وهكذا حضرا حفل زفافها في أوائل عام ٢٠٠٤، وزاراها في بيتها الجديد بعد شهر، وقد رغب هاني أن يفهم بأية طريقة سر تشابهها مع مربيته العجوز في الحلم..

- أهلاً بك يا دكتور.. شرفتنا والسيدة زهرة.. سيلتحق بنا عهد زوجي بعد قليل..

- كان يجب أن نزورك لتتوثق علاقتنا.. زهرة أحبتك كثيراً..

أكدت زهرة: - بالطبع.. وخاصة أن لك سمعة طيبة في عملك وعلاقاتك.. ونحن في هذا الزمن نحتاج إلى توثيق علاقاتنا وقد طغت المصالح والنزعة الخاصة على الناس، من أجل أن نستعيد صفاءنا الإنساني..

- كم يبدو هذا الكلام مؤثراً.. إنه يعبر عن فهم عميق للعصر.. زوجي يمارس عمله الصحفي منذ عشر سنوات، إنه يكتشف أشياء مرعبة عما يحدث حقيقة في الخفاء

وانضم عهد إليهم وهو يرحب بالدكتور هاني معتذراً عن تأخره:

- أنا آسف، كنت منغمساً في تحقيق جديد حول قضية التلوث في المياه.. التي أدت لانتشار أمراض طفيلية غريبة..

- في الجانب الشرقي من المدينة.. في أماكن السكن العشوائي..؟

- نعم يا دكتور.. حيث يشرب الناس كما تعودوا من المياه التي تردهم إلى البيوت.. ولايستطيعون شراء صناديق المياه المعدنية، لقلة إمكاناتهم المادية..

- وماذا حدث؟ هل كونت فكرة عن المسببات والنتائج؟

- لأن الصرف الصحي اختلط مع المياه الملوثة الخارجة من المصانع دون رقابة واهتمام، وصل التلوث إلى الآبار الجوفية، التي هي المصدر الرئيسي لمياه الشرب في تلك المناطق..

- ولكنك تحدثت عن أمراض طفيلية غريبة؟

- جئت من مختبر حيوي يملكه أحد أصدقائي الذي تطوع لتحليل مياه الشرب في مناطق السكن العشوائي.. كانت النتائج قاسية فعلاً.. لقد اكتشف أن اختلاط مياه الصرف الصحي مع المياه الملوثة الخارجة من المصانع، قد ساهمت في طفرة جينية لمخلوقات ضئيلة تشبه وحيدات الخلية، بإمكان هذه المخلوقات التكاثر والتوالد في أي جهاز حيوي، حتى لو كان نباتاً..

- والنتيجة أمراض جديدة مجهولة، لم يستنبط لها العلاج الملائم؟

- نعم.. والأدهى من ذلك أن تلك الطفيليات تنتقل عبر الدم، وتختار وسط تكاثرها كما ترغب.. وقد وجد أن الدماغ البشري يشكل وسطاً مناسباً لتحط فيه الرحال وتتكاثر

- ياإلهي..إذن هذا هو السبب في حالات الوفيات الكثيرة هناك.. يعتقد زملاؤنا هناك أن سرطان الدماغ هو الذي يسبب تلك الوفيات..

- إن رغبت سنزور مخبر صديقي (الدكتور حمد) حيث أجريت التحاليل..الدكتور حمد أحد أهم علماء البيولوجية المجهولين في بلادنا.. أنا أثق بقدراته كثيراً..

- سأكون سعيداً بذلك،المشاكل تتفاقم عند الناس، بسبب الدخل المحدود والإحساس بالقهر، والصراع من أجل البقاء في مناخ يبدو شديد التعقيد..

- معك حق.. مارأيك لو نذهب في المساء لنزور (حمد)؟ في السادسة مثلاً؟

- لابأس، سأدبر نفسي بالتغيب عن العيادة بعض الوقت؟

- أنا آسف..لم أنتبه لمواعيد عيادتك..لتكن التاسعة بدلاً من السادسة، أعتقد أنه وقت مناسب لك؟

- نعم..نعم..مارأيك لو زرتني في العيادة قبل التاسعة لننطلق سوية، سأعطيك العنوان..

وهدرت أصوات أشبه بأصوات قذائف.. قالت زهرة:

- أمعقول أن يكون اختراقاً لحاجز الصوت؟ البناء يهتز بقوة؟

- أنا أرجح ذلك يازهرة..إنه استفزاز طائرات معادية.. يبدو أن حروب القرن ستزداد كما يتوقع المحللون..

- أجارنا الله من الأيام القادمة..

فكر قلقاً:- يبدو أن ماحكته لي أمينة في الحلم هو جزء من حقائق مرعبة..

(١١)

وفي المساء، وكان هاني منشغلاً في عيادته، حين حضر عهد في نحو التاسعة إلا ربعاً، كان بعض المرضى ينتظرون حين دخلت الممرضة تبلغه بوجود عهد.. كان قد نسي الموعد تقريباً، لذلك خرج يهمس في أذن عهد يستأذنه في بضع دقائق أخرى لإنهاء مراجعات المرضى.. كان هاني جراحاً ماهراً، وكان الناس يقبلون عليه لإجراء الجراحات الصعبة لمرضاهم..

جلس عهد ينتظر في صالة المرضى والمراجعين، لفت نظره شاب منتفخ الوجه والرقبة، إلى جانبه رجل كهل وشاب في سن مقارب.. كان الشاب يسند رأسه إلى كتفه، والمريض يحرك رأسه متألماً دون أن يفتح عينيه..

وكان كما يبدو هو المريض الأخير الذي ينتظر الدخول إلى غرفة المعاينة.. وحين أتى دوره، دخل عهد معه.. وهو متشوق لمعرفة نوع المرض الذي أصابه..

- متى أتته هذه الحالة؟

- كنا نداوم في الجامعة معاً، حين شعر بصداع شديد، وطلب مني أن أنقله إلى المنزل.. وتناول بعد وصوله (حبتي) مسكن قوي.. ونام.. ولم يستيقظ سوى في صباح هذا اليوم نام نحو ٢٢ ساعة متواصلة..

سأل المريض:

- أتستطيع أن تتكلم معي يا (عوني)؟

- أشعر برأسي ثقيلاً لا أستطيع أن أتحمله.. أشعر أنني سأموت يا دكتور

هدأه وأخذ يفحص صور الرأس..

- تعال انظر يا عهد.. إنها كتلة في الدماغ.. ويبدو أن هناك كتلاً غيرها..

- إنه مصاب بالمرض الطفيلي نفسه...

عاد يسأل المريض:

- أتشرب المياه المعدنية؟

- أحياناً.. ولكن زوجتي تغلي مياه الصنبور ثم تبرده، ونحن نشرب منه.. هل ستجري الجراحة يا دكتور؟

- نعم.. غداً في الصباح..

- ولماذا هذا الورم الشديد؟

- ربما هي ردود أفعال تحسسية من قبل الجهاز المناعي.. خذ هذه الحبوب حتى العملية.. وحاول أن تصمد..

- لن أستطيع أن أصمد.. أشعر أنني سأموت..

قال مرافقه وهو أحد إخوته:

- يجب أن تصمد.. الدكتور هاني سيخلصك من متاعبك إن شاء الله.. نحن نثق بقدرتك يا دكتور، أنقذت حياة ابنتي من قبل ألا تتذكر (روضة) الصبية الصغيرة؟ كانت تعاني من جهازها الهضمي معاناة شديدة، وأنت اكتشفت الداء وعالجته.. لقد استأصلت جزءاً كبيراً من الأمعاء، واستأصلت المرارة.. أنقذتها من الموت ونحن نثق أنك ستتمكن من إنقاذ عوني أيضاً..

- إن شاء الله..

وتقدم والده الكهل يطمئن عنه فقال له هاني:

- لا أخفيك ياعم أن وضع عوني ليس سهلاً.. ولكن ليساعدني الله في إنقاذه.. سأبذل قصارى جهدي.. حاولوا أن ترفعوا من معنوياته..

- إن شاء الله..

خرج هاني وعهد بعد التاسعة متجهين نحو مخبر (حمد) الذي كان ينتظرهما بفارغ الصبر.

- خفت ألاَّ تأتيا.. لولا شهرة الدكتور هاني وسمعته الطيبة ما انتظرت كل هذا الوقت إنها التاسعة والنصف.. وهاتفك النقال ياعهد مغلق.. لم أستطع الاتصال بك..

- أنا آسف.. أغلقته فعلاً قبل دخولي عيادة الدكتور هاني..هه.. قل لي ما الأخبار؟

- إنه طفيلي غريب يتغذى بالعناصر المعدنية، ويمكنه أن يغير أسلوبه الغذائي حسب الوسط الذي يوجد فيه.. تعال لتراقبه يا دكتور هاني من خلال المجهر الإلكتروني.. انظر..

كان مشهداً فريداً لكائن صغير يلتف حول الخلايا الحية التي وضعها حمد على رقعة الزجاج أمام فوهة الاختبار المجهرية.. كان يتحرك بسرعة، ويتكاثر بسرعة ويلتهم العضوية الحية ببراعة مرعبة..

وحين وضع حمد قطرة من سائل حمضي، تكور على نفسه لثوان، قبل أن يتمرغ في السائل ويتابع حركته السريعة وتكاثره المذهل..

- أترى يا دكتور؟ تكيَّف مع الحمض، رغم أن الحمض المكثف يؤذي العضوية الحية.. غير في جيناته الوراثية، أصبح طفرة خارجة على قانون الطفيليات.. إنه طفيلي استثنائي شديد الخطورة.. إنه مدمر بلا هوادة.. وربما من المستحيل الوقوف ضده..

- ألم تتوصل إلى أية طريقة لإيقافه؟ والحد من تكاثره؟

- عملت طوال الليل الفائت في ذلك، جربت كل العقاقير.. كل المواد الكيماوية الناريّة، دون نتيجة.. إذ إنه يتكيف مع وجودها ويكيف نفسه.. وهذا ماجعلني أتجه اتجاهاً آخر..

- أن تبتعد عن الكيماويات والعقاقير إلى مواد طبيعية؟

- تقصد أعشاباً ومواد طبية مستخلصة من الطبيعة؟ إنها بيئة تكيّف معها وأصبح يتغذى بها.. تصور..

- إذن ماهو الاتجاه الذي سلكته؟

- إنه اتجاه أتاني مصادفة.. كنت أشغل أجهزة التعقيم بالأشعة، ونسيت أحد أنابيب الاختبار الموصولة بالكهرباء.. أستخدم الأسلاك المعدنية في التسخين أحياناً.. كان هناك سائل في الأنبوب، وصل إلى درجة الغليان وتبخر ماؤه.. وتكاثف بخاره فوق الصندوق الزجاجي الذي يغطي مجموعة الأنابيب.. وحين لمست قطرة الماء المبردة من البخار، أحد الطفيليات شلت قدرته على الفور..

- إنه اكتشاف مذهل فعلاً.. يعني أن الماء النقي يشكل علاجاً للإصابة بهذه الطفيليات؟

- صدقت.. الماء النقي، من الهيدروجين والأوكسجين، وليس ماء الشرب.. إنه الخبر الذي كنت أنتظر أن أزفه لك ياعهد..

- إنه خبر رائع فعلاً.. يعني أننا في طريقنا لإيقاف الوباء..

- هذا يبدو نظرياً في الوقت الحالي؟ إذ كيف سنوصل الماء النقي إلى الأماكن المصابة بالطفيليات..

- بحقن خاصة، هذا ليس مستحيلاً؟

- حقن مباشرة؟

- يمكن أن تكون مباشرة في الحالات السطحية أو التي يمكن الوصول إليها.. وإلا فسنوصل الحقن إلى المناطق المصابة بأنابيب دقيقة، كما في بعض الجراحات التنظيرية..

- إنها فكرة رائعة، قد نبدأ بتطبيقها على الفور..

- نعم.. وسيكون عوني هو أول مريض سنطبق عليه الطريقة الجديدة..

- عوني؟

- إنه أحد المرضى الذين راجعوني، وأعتقد أن هذا الطفيلي الجديد قد وجد في دماغه مرتعاً مناسباً لتكاثره.. كنت أفكر بإجراء جراحة على دماغه، ولكن قد أقوم بإجراء طبي آخر الآن..

- حسناً.. إن رغبت بالمساعدة، أنا جاهز..

- يشرفني أن تعمل معي يا دكتور حمد.. اكتشافك المذهل حول الماء النقي قد يخلص الكثيرين من مرض قاتل ينتشر بسرعة..

- مرض سببته كوارث التلوث وعدم اهتمام الأثرياء بمنع وصول النفايات الصناعية السائلة من مصانعهم، إلى الماء الذي يشربه الفقراء..

- معك حق.. إضافة لمياه الصرف الصحي التي من المفترض أن تسحب إلى معامل تنقية وألاّ تترك في جريانها هكذا، لتختلط بالمياه الجوفية.. الفقراء في المناطق العشوائية يعانون الفاقة، ولا يستطيعون أن يشتروا المياه المعدنية المحفوظة بزجاجات بلاستيكية، ثمن الزجاجة ليس ضئيلاً بالنسبة إلى دخل الفرد منهم.

- معك حق..

(١٢)

ـم يستطع أن ينام مبكرا من توتره، وقد تمنى لو طلب إجراء العملية لعوني ـي الليل، ليخفف عنه مايشعر به من آلام في رأسه وأجهزة جسمه الحساسة.. ـرخظت زهرة توتره، أشفقت أن تكلمه وقد اعتقدت أنه ينتظر متابعة أحلامه ـغريبة، لذلك تظاهرت بالنوم وقلبها يأكله القلق عليه.. ولم تشعر بما انتابه ـن أرق فيما بعد، إذ إنها غفت قربه.. نهض يزرع الصالة ذهاباً وإياباً ينظر إلى ـساعة التي قاربت الثامنة ليلاً..

كأنه كان يتعجل سير الزمن.. جلس بعد دقائق على الأريكة المريحة يسند ـظهره ورأسه وهو يفكر بقلق.. ولم يدر كيف غفا..

☆ ☆ ☆

- استيقظت يادكتور.. يبدو أنك كنت متعباً تماماً.. منذ عدة ساعات وأنت ـتغفو بعمق..

- آه.. ماذا حدث للصغيرة يا أمينة؟

- الأميرة؟ تناولت الطعام بشراهة.. ثم عادت إلى النوم، تبدو صبية جميلة، ـم أنتبه لها وهي تتكوم، هذا ماأغرى زوج أمها، باغتصابها.. ولكن كيف حملت ولم يكتشفها أحد..؟

- بل اكتشفوها.. اكتشف ذلك الحاكم وزبانيته، وأوحوا لأطبائهم بأن بعض أجهزة جسمها يجب أن تبدل، ويزرع بدلاً من التالفة منها أعضاء جديدة.. وهذا سبب إحضاري إلى المشفى لأقوم بعمليات الزرع هذه.. أعضاء محددة سلفاً.. يكفي زرع واحد منها، لأن تضطرب صحتها، فكيف لو كثرت هذه الأعضاء؟

- واكتشفت أنها حامل فأنقذتها؟

- نعم ولولا مساعدتك لما تم الأمر بسهولة..لم تقولي يا أمينة كيف عدت ووالدتك إلى الظهور من جديد؟

- ألا تذكر كيف عشت معنا، وانتسبت إلى الجامعة وتفوقت في دراسة الطب، ثم سافرت للتخصص في الخارج ولم نعد نسمع عنك شيئاً؟

- معقول؟ أعتقد حسب ذاكرتي الضعيفة أنني أرسلت رسائل كثيرة، لم أتلق عنها جواباً.. وحين عدت في إجازتي الصيفية، بحثت عنكما، كنتما قد اختفيتما، ولم يعرف أحد عنوانكما الجديد...

- يبدو أن ذاكرتك تسعفك أحياناً (تتنهد) كان ذلك في عام ٢٠٢٥، أذكر جيداً شهر تموز، من ذلك العام.. في بداية ذلك الشهر، كنا نرحل أنا وأمي للاستجمام في الشمال، وقد اعتقدنا أن اسمينا وشخصيتينا قد أصبحتا في غياهب النسيان، وكنت في مقصورة الدرجة الأولى، أنا وأمي نجلس ملتصقتين ونتأمل التغير الذي أصاب السهول الخضر والأشجار التي كانت تغطي جانبي الطريق في منطقة كانت تعد من أجمل مناطق العالم..

☆ ☆ ☆

- آه يا ابنتي أمعقول أن يصل التصحر إلى هنا؟

- انظري يا أمي أسفل تلك الربوة، هناك مصنع ينفث دخانه إلى مسافة كبيرة ويغطي الربوة بضبابه الدخاني..

- بالطبع يا ابنتي.. هذا هو حال الجشع والأنانية وتفضيل المصالح الخاصة على العامة.. لقد قتلوا الخضرة هنا.. ياإلهي معقول؟

انتبهت إلى أمي كانت تبكي بدموع صامتة.. لحظت لهفتي فقالت:

- لم أستطع حبس دموعي، عشت في هذه المناطق أجمل الأوقات مع والدك.. كانت مزدانة بالخضرة والنقاء، كيف تحولت هكذا؟

- هناك رجل في المقعد أمامنا، ينظر إليك بعمق، كأنه يعرفك.. حاولي أن تختلسي إليه النظر، تملّي وجهه جيداً..

انتفضت أمي:

- ياإلهي، إنه جارنا القديم، كان يعمل في الأمن.. يبدو أنه عرفني..

نهض الرجل من مقعده واتجه إلينا..

- طاب يومك ياسيدتي..

- طاب يومك ياسيدي..

- يخيل إلي أني أعرفك.. ألست والدة الفتاة العالمة التي كانت تسكن قربنا في..؟

- والدة عالمة؟ أنا؟ ياحسرتي.. أنا متشردة لازوج ولاولد لم أتزوج.. أنت مخطئ يا سيدي آسفة..

- ماذا تقولين؟ أنا متأكد من ملامحك.. أليس لك أخوات..

- أخوات؟ كلهن توفاهن الله.. إما تحت القصف، وإما في قنابل متفجرة..

- ألم تكن لأختك أو لأخت من أخواتك ابنة متفوقة؟ تذكري جيداً..

- لا أذكر ذلك.. الذي أعرفه أن أختاً من أخواتي مات زوجها بالقصف وسافرت ابنتها بعض الوقت، وحين عادت ماتا في قنبلة انفجرت بسيارتهما.. كل ماحدث لأخواتي كان مآسي متكررة..

- ولكن الذي أعرفه أنه لم يكن لأختك المزعومة أخوات.. هه..أنت تكذبين علي، أنت أم العالمة.. أنت..

قالت صارخة:

- ماذا تريد مني؟ لماذا تضايقني؟ لماذا تلح علينا بالأسئلة والاستفسارات؟ اتركنا بحالنا..

- لاتصرخي.. لن يفيدك الصراخ.. هل تلك العالمة الصغيرة كانت ابنتك؟ أم..؟

- لماذا تضايق هذه العجوز ياعم؟ إنها تبكي مآسيها المتكررة.. أنا أحاول تهدئتها.. أنا أعمل بالشرطة السرية.. أتوجه إليها تهمة ما؟ هل قامت بقتل أحد وسرقته أو..؟

- انت تعملين بالشرطة؟ هه.. حسناً.. أنا ضابط أمن قديم.. يمكنك الاتصال بالمركز الذي تنتمين إليه.. أشك أن قصة كبيرة وراء هذه السيدة..

- حسناً.. سأتحايل عليها.. هي لاتعرفني.. اذهب الآن.. سنلتقي في المطعم بعد نصف ساعة..

- قد تهرب؟

- لاتخف..سأعرف كيف أحجزها..

- حسناً.. بعد نصف ساعة في المطعم..

واندفعت نحو أمي وأنا ألهث خائفة:

- لقد عرفك يا أمي.. وأشك أنه لن يتركنا بحالنا.. اسمعي سننزل في المحطة التالية ونختفي..

- قد يلاحقنا؟

- يجب أن نهرب بأسرع ما نستطيع.. أعتقد أنه اقتنع بما قلته له.. عن أني أعمل في الشرطة، وسأقبض عليك.. انتبهي جيداً، يجب أن ننزل في المحطة القادمة. إنه يدير وجهه في ا لاتجاه الآخر لنستغل الوضع..هيا..

☆ ☆ ☆

وتمكنا من الهبوط دون أن ينتبه، وحين أسرعنا نخرج من المحطة لمحناه عن بعد، وقد اربدت سحنته من الغضب.. لذلك عدنا للاختفاء من جديد، وقد رأيت صورة قديمة لأمي منشورة في الصحف، وتحتها عبارة (مطلوبة للتحقيق).. وبالطبع لم يستطع أحد مطابقة الصورة مع وجه أمي الذي زاد كهولة وتجاعيد وشيباً..

وسمعت تأوهات من الغرفة المجاورة:

- يبدو أن الأميرة الصغيرة قد استيقظت..

- ماذا سنفعل لها؟

- يجب أن نؤمن لها سبيل الراحة.. والحياة المطمئنة، حتى تستطيع أن تقرر ما تفعل، وأتت الفتاة متهالكة ولمحت الدكتور هاني:

- أنت يادكتور؟ أشكرك لقد أنقذتني.

- كيف حال جرحك؟

- أنا لا أتألم منه.. أشعر أنني مازلت مخدرة.. أنا جائعة.. هل تعدين لي طعاماً ياسيدتي؟

همس راجياً أمينة:

- تحمليها أرجوك هي معتادة على الأوامر..

- سأتحملها من أجلك فقط

أمسكت بها من يدها:

- تعالي معي إلى المطبخ.. سأجهز لك طعاماً شهياً..

- أنا متعبة.. أيمكن إحضار الطعام إلى هنا؟

قال هاني:

- لابأس ستحضر لك الطعام إلى هنا.. ارتاحي على هذا المقعد..

- حسناً سأحاول ألاَّ أتأخر..

- وماذا سنفعل مع والدتك؟ هي لاتعرف أنك حية..

- لاداعي لإخبارها.. أنا أحبها كثيراً، ولكنها تحت سيطرة ذلك الوحش زوجها ..

وفجأة سمعت طرقات على الباب.. وَجّه المصوّرة (الكاميرا) السرية ليرى من في الباب، فرأى بعض رجال الحرس الملكي.. ومعهم ذلك الكهل.. وأتت أمينة:

- ماهذا؟ ماهذه الضجة؟ لماذا يطرقون الباب بهذا الإلحاح..؟

- يبدو أنهم اكتشفوا زيف الجثة..

- وماذا ستفعل؟

- ادخلا..واصعدا بيت المؤونة واسحبا السلم إلى الداخل..هيا إنه فوق المطبخ.. سأفتح الباب..هيا..

فتح الباب ليدخل المستشار ومعه جنوده:

- لماذا تأخرت في فتح الباب؟ هه؟

- كنت نائماً بعمق ياسيدي، أنت تعلم كم تعبت في المشفى..

- ستذهب معنا.. مولاي الحاكم يريدك..

- خير؟ لم أرتح جيداً بعد.. أهناك عمليات جديدة؟

- لا أدري..إنه يريدك بسرعة.. بحثنا عنك طويلاً حتى اهتدينا إلى منزلك هذا... أنت وحدك؟

- نعم..

- جهز نفسك بسرعة، سترافقنا..

- أنا جاهز.. سأغسل وجهي فقط.. كنت نائماً بثيابي..

- ماهذا؟ رائحة طعام محترق.. من أين ينبعث؟

- من الفرن..أنا آسف.. نسيت ذلك، كنت جائعاً ويبدو أنني غفوت، لاعليك ياسيدي..

كان الدخان يتصاعد. فتح الشبابيك وأطفأ الفرن ثم شغل أجهزة التهوية.. وعاد يلحق بهم، سأله الشيخ:

- متأكد أنك أطفأت الفرن جيداً..

- نعم.. نعم..

- هيا إذن.. لنتحرك..

قال أحد الجنود:

- هل أضع القيد في يده ياسيدي؟

- لاداعي لذلك.. إنه مطيع، ولن يقاوم هذا العدد من الرجال..

- لماذا أقاوم؟ هل أنا معتقل ياسيدي؟

- قال لنا مولانا الحاكم أن نحضرك بأي شكل حتى لو عرضناك للأذى..

- إلى هذه الدرجة؟ ياإلهي..

(١٣)

تحرك هاني يسعل بقوة، ثم استيقظ من نومه.. وكانت زهرة إلى جانبه.. ومعها كأس من الماء..

- كنت تحلم من جديد؟

- نعم.. استمرار للحلم نفسه.. ليتني عرفت مايرغب الحاكم مني.. اعتقلوني.. ولاأعرف السبب..

- احك لي القصة.. هيا..

- أنت رائعة يازهرة.. جهاز التسجيل جاهز لديك.. سأحكي لك كل شيء حتى لاأنسى التفاصيل..

كانت الساعة تقارب الخامسة والنصف، لم يستطع النوم بعد ذلك، لذلك نهض يقرأ بعض التفاصيل عن أحدث عمليات تنظير الدماغ، وقد شغلته عملية عوني.. وفي الصباح، كان مستعداً تماماً للقيام بحقن الدماغ في منطقة الطفيلي المتكاثر بالماء النقي..

كان عوني في المستشفى، مع والده وأخيه، وكان الدكتور حمد، وعهد زوج هدى ينتظران وصوله، وقد جهز حمد زجاجة من الماء النقي المقطر.. وأدخل الشاب إلى غرفة العمليات.. واستعد هاني لخوض تجربة خطيرة وقربه حمد، وظل عهد ينتظر في الخارج مع أهل عوني..

- الجراحة التنظيرية في الدماغ شديدة الخطورة.. الشاب مصاب في منطقة جذع الدماغ قرب الغدة الصنوبرية، هذا الأنبوب المجهري سينفذ إلى الكتلة المتورمة التي تتكاثر فيها الطفيليات، وسأضخ الماء النقي إلى تلك الكتلة..

- أنت تسيّر الأنبوب المجهري ببطء شديد.

- حتى لانهشم أية خلايا مجاورة.. إنه ينفذ بين أغلفة الخلايا تقريباً.. سترمم نفسها حين نخرجه..

كان كل شيء يبدو طبيعياً، الضغط والحرارة، وبدأ هاني يضخ الماء في الأنبوب وحمد يراقب الشاشة.. وصل الماء إلى الطفيليات فأخذت تتكور وتتهشم و.. تتضاءل بحجومها.. بدأ هاني يسحبها مع السائل.. بعد أن تأكد من أنها انتهت جميعها..

همس حمد:

- ياإلهي.. إنه عمل خارق.. مايصنعه الماء النقي من تدمير لتلك الطفيليات الخبيثة، يبدو عملاً غير عادي..

- معك حق.. الجهاز يؤكد أن الطفيليات قضي عليها جميعاً.. هه سنبدأ بسحب هذه الأكوام الخبيثة مع الماء إلى الخارج..

وخرج حمد بعد انتهاء العملية، هرعت إليه امرأة باكية:

- أنت زوجته؟ اسمعي ياسيدتي، لم أر في حياتي طبيباً في مهارة الدكتور هاني، أعتقد أن زوجك كتبت له الحياة من جديد..

- شكراً لك يارب.. ومتى يخرج؟

- مازال تحت تأثير المنوم..، سيستيقظ بعد قليل.. حالته العامة ممتازة..

- وماذا يفعل الدكتور هاني في الداخل، لِمَ لَمْ يخرج؟

- إنه ينظف كل أجهزة جسمه من الطفيليات..ضخ المزيد من ذلك السائل الغريب. الماء النقي تماماً.. أنا أنصحكم جميعاً أن تنتبهوا، لاتشربوا من المياه الجارية، أو من مياه الآبار، كلها ملوثة..

- ولو غليناها؟

- نعم ولو كانت مغلية سأعطيكم طريقة رخيصة لتنقية الماء.. أعلم أنه من الصعب أن تشتروا مياهاً معدنية مرتفعة الثمن..

وقضى هاني أياماً، مع حمد، في الكفاح ضد الوباء الطفيلي المنتشر.. وفي أحد الأيام دخل بيت عوني ليطمئن عنه.. ففتحت له الباب زوجته الشابة.. وهي تبتسم في وجهه ابتسامتها العريضة..

- أهلاً بك يادكتور.. شرفتنا.. عوني بخير، وعادت إليه صحته تماماً كما كان في السابق، شاباً قوياً مرحاً..

- الحمد لله..

نظر بذهول يسلم على الشابة التي تقف قربها كانت تشبه الأميرة الصغيرة

- أختي.. عايدة.. الدكتور هاني..

- تشرفنا يادكتور..

- أتعرف عايدة؟ هل رأيتها من قبل؟ تبدو مذهولاً وأنت تتأملها؟

- أنا آسف، إنها تشبه إحدى مريضاتي شبهاً عجيباً.. اعتقدتها هي، لولا أن قدمتها لي كأختك..

قالت عايدة:

- آه.. أتذكرك الآن، وقفت أمامي مذهولاً قبل أيام، الآن فهمت السبب..أنا آسفة

- بل أنا في أشد الأسف لأنني أخفتك كما أعتقد..

- لم تخفني ولكن أدهشتني..

- عايدة مندوبة علاقات عامة، إنها تعمل في مراسم إحدى الوزارات..

- تشرفنا..

وأتى عوني مرحاً بشوشاً:

- أهلا بمن أعاد إليَّ الحياة..

- أهلاً بك ياعوني.. بفضل الله عادت إليك الحياة..

- نعم.. وبمساعدتك وبراعتك.. شكراً لله على نعمته.. كانت من أقسى التجارب التي مررت بها، رأيت الموت وعذابه بعيني..

- حمداً لله على سلامتك..المهم أنت بخير الآن..

- الحمد لله..

ولم يدر هاني كيف يفسر الشبه الغريب بين عايدة والأميرة الصغيرة التي يراها في الحلم.. وظل ذلك لغزاً، حتى حانت اللحظة المناسبة التي جعلته يفهم كل شيء..

(١٤)

هل تَستمر الأحلام المنطقية هذه على الوتيرة نفسها يا (هاني)؟ أحلام لها علاقة بالزمن القادم، الزمن الذي لانعرف عنه شيئاً، ولكن أحلامك تتوغل فيه، وهي تبدو منطقية رغم غرابة أحداثها..

قام في أحلامه بعمليات جراحية متطورة، وقابل أناساًمن زمن قادم

لايعرف عنه شيئاً، ورأى أمراء وحكاماً وقابل فتيات وأطفالاً، وعرف معنى الخوف في الحروب التي سمع عنها، وفي النظام العالمي الجديد الذي سيبدو ظاهراً في المستقبل، نظام يرهق شعوب الأرض ويحاصرها ويسحق بعضها بلا رحمة.. وحين تتجول ياهاني تتعرف بهدى شبيهة العجوز التي ربتك في أحلامك، وتتعرف بعايدة التي تشبه الأميرة الصغيرة التي أجريت لها عملية في الحلم..

لماذا ترى أنت دون الآخرين هذه الأحلام؟ وماهو السر؟ هل لأنك منشغل بما يحدث في العالم، وقد قرأت عناوين مرعبة لسنوات قادمة؟ أم إن شيئاً خارقاً يحدث لدماغك؟

أرهقته الأسئلة وهو يفتش عن إجابات لها.. وحاولت زهرة زوجته تهدئته، وقد رأته متوتراً قلقاً..

- منذ أن عدت من زيارة عوني، وأنت لاتبدو طبيعياً؟ أمعقول أن تكون عايدة تشبه تلك الأميرة الصغيرة إلى هذا الحد؟

- صدقيني يازهرة يبدو الأمر خرافياً.. هدى تشبه العجوز أو تشبه أمينة إلى حد لا أكاد أصدقه.. الملامح نفسها والتقاطيع نفسها بل والصوت نفسه.. وكذلك (عايدة) أخت زوجة عوني المريض، إنها تشبه الأميرة أو أمها الملكة، عوني الذي خلصته بالجراحة التنظيرية من أغرب ورم انتشر في خلايا دماغه..

- ولماذا تقول أغرب ورم؟

- ورم يتلاشى بالماء النقي الذي يدمره تماماً، هذا شيء لايصدق..

- مارأيك لو خضعت لتنويم مغناطيسي عند أحد أصدقائك الذين تثق بهم؟

- تنويم مغناطيسي؟ لماذا؟ أنا أتذكر أحلامي جيداً.. ما الفائدة إذن؟

- ربما كانت هناك مناطق زمنية غامضة في أحلامك، فاتك تذكرها؟

- ربما تكونين محقة، ولكن لم يحن الأوان بعد.. يجب أن أعرف العلاقة بين هدى وأمينة، بين الأميرة الصغيرة وعايدة..

- لاتبدو هدى ولاعايدة جزءاً من لعبة أحلامك ياهاني.. بيئة كل منهما تختلف عن بيئة أمينة، أو الأميرة الصغيرة..

- وهذا مايحيرني.. ولكن يجب أن تزداد علاقتنا ترابطاً.. حتى أستطيع التوغل في دراسة حياتيهما، وربما أستطيع أن أتقرى بعض ملامح المستقبل الصعب الذي ينتظر هذا الكوكب..

رغم تعبه تقلب كثيراً قبل أن يغفو، وكانت الساعة تزيد على الواحدة والنصف. بعد منتصف تلك الليلة استيقظت زهرة على صوته وهو يغمغم، كان يبدو كمن يشهد كابوساً، أشفقت أن توقظه وهي تعلم كم هو متعلق بأحلامه..

كان هاني فعلاً يمر بكابوس، إذ كان محاطاً بمجموعة من الرجال المدججين بالسلاح الذين يحدقون فيه بنظرات حادة..

- لاتتحرك، ابق ثابتاً في مكانك.. العدسة تلتقط لك الصور من مختلف الأوضاع..

- لماذا؟ ما الذي فعلته؟

- إنها أوامر مولانا الحاكم..

فَكَّر قَلقاً: - «يبدو أنهم اكتشفوا أن تلك الجثة ليست جثة الأميرة الصغيرة»

- قف الآن ودر حول نفسك حتى تأخذ عدسة الحاسوب لك الصور الأخرى في أوضاع متعددة..

- والآن سنثبت بصمات أصابعك.. أصابع يديك وأصابع رجليك.. هيا ضع يديك على الشاشة هنا.. جاء الآن دور الرجلين، بصمات الرجلين، هيا أسرع، مولانا الحاكم ينتظرك بعد إنهاء هذه الإجراءات..

إنه يعامل كالمجرمين..ترى أية تهمة سيوجهها إليه الحاكم؟

- ارتد هذه الملابس بسرعة..

- ملابس السجن؟

- نعم.. سيقابلك مولانا الحاكم، ثم نسوقك بعدها إلى السجن..

«ياإلهي بأية تهمة يدخلونني السجن؟»

وانبعثت ضجة وقعقعة سلاح ودخل الحاكم مع حرسه وحاشيته

- أنت؟ ما الذي دفعك للقيام بهذا العمل؟

- أي عمل ياسيدي؟ أنا لا أفهم شيئاً..

- استئصال الجنين من بطنها.. لماذا فعلت ذلك؟

- ومن الذي قال ذلك ياسيدي؟

- مساعدك.. الجراح الذي كان معك.. اطلع على القطع التي استأصلتها فوجد من بينها جنيناً صغيراً.. فأسر لبعض زملائه بذلك، وأتى أحدهم ليخبرني.. هذا تصرف أحمق..

- كان من اللازم أن أخرج الجنين لأنه كان شبه ميت.. حتى أضمن إمكانية إنقاذها.. كل أعضائها التالفة قريبة من منطقة الجنين..

- كان يجب أن تتخلص منه حتى لا تحدث فضيحة..

- كيف لي أن أعرف ياسيدي أن هناك أناساً يحصون علي حركاتي.. وربما

بفضولهم سببوا لي الأذى الكثير.. الأعضاء المستخلصة يجب أن تلقى في مستودع النفايات..

- مستودع النفايات؟

- إنها نفايات طبية توضع في أكياس من النايلون يغلق جيداً، قبل أن يلقى في المستودع، حيث يعامل بمواد كيميائية تذيبه ثم يلقى من جديد بين النفايات السائلة في برك تحت الأرض.. وقد قمت بكل العمليات الجراحية وحدي

- ماذا تقصد؟ ألم يكن ذلك الطبيب معك؟

- بالطبع لا.. رفضت مساعدة أحد.. العمليات سرية، ويجب ألاّ يعرف أحد عنها الكثير.. لذلك أبعدت الجميع عن جسد الأميرة الصغيرة..

- وكيف ادعى ذلك الطبيب أنه كان معك لحظة بلحظة..

- إنه يكذب ياسيدي.. اسأل باقي الأطباء، لم يكن معي أحد في غرفة الجراحة..

- حتى ولابعض ممرضات الجراحة..

- كنت وحدي ياسيدي.. وحدي فقط..

- ويل لذلك الطبيب لو ثبت أنك كنت وحيداً في العمل الجراحي، اسمعوا ضعوه في مكان نظيف ومرتب، هو ليس سجيناً الآن.. سيكون محتجزاً للتأكد من معلوماته فقط..عاملوه بلطف هل سمعتم؟

- حسناً يامولاي سنفعل ذلك..

وحكى لهاني ماحدث:

- والده يعمل في القصر، وقد بدأ يثير التقولات حول الأميرة الصغيرة،

ويتهمها بالعهر والفساد.. وهذا لايجوز..كان وقع هذه التقولات شديداً على الملكة..ومن الصعب أن تتقبل أم مثل هذا الكلام عن ابنتها.. هذه جريمة..

- معك حق ياسيدي.. أنا مستعد للقيام بأي شيء لنفيّ هذه التهمة الشنيعة..

- عظيم.. سأحقق جيداً في الأمر ولو ثبتت براءتك، فسأمنحك مكافأة مجزية..

فكر هاني وهو يصر على أسنانه: - «هذا الوغد، يريد أن يداري خطيئته.. ليتني اجتمع بالملكة ولو لدقائق.. ربما تعتقد أن ابنتها ماتت فعلاً»..

رأى هاني نفسه يساق إلى مبنى آخر وتنتشر فيه غرف على جانبيه، كأنه أشبه بفندق فخم، فتحوا له إحدى الغرف، وسألوه عن نوع الطعام الذي يرغب بتناوله، ثم تركوه وحده بعدما أقفلوا الباب خلفهم..

شعر بالتعب.. وتمنى أن يتكلم مع أمينة والأميرة الصغيرة ليطمئن عنهما ويطمئنهما عنه.. ولم يدر كيف غفا لزمن غير محدد، استيقظ بعدها على صوت الملكة.. التي كانت تخاطبه..

انتفض سريعاً، كانت الملكة تقف فوق رأسه، وقربها الحاكم بوجهه الباسم..

- كنت شديد التعب كما يبدو أيها الطبيب.. كنت تنام بعمق..

- مولاتي أنا آسف، يبدو أنني غفوت..

قال زوجها الحاكم:

- لاعليك.. المهم أن تلك التقولات عن ابنتي كانت كاذبة..

- تحققت من ذلك يامولاي؟

- نعم.. وقد قبضت على جميع من نشر تلك الإشاعات، وأعلنا أن من سرب هذه الشائعات ليسوا سوى أعداء لنظامنا، قلت لك إنه طبيب ممتاز.. وأن حالة الأميرة رحمها الله كانت فوق طاقة أي طبيب..

- آه يا ابنتي.. أنا أعلم أنه بذل جهده..

- هيا اشرح لمولاتي الملكة عن حالة الأميرة الراحلة.. إنها ترغب بمعرفة وضعها الدقيق قبل أن تموت..

- حسناً.. سأشرح لك يامولاتي..

أخذ يشرح للملكة بعض ماتعاني منه الأميرة، وهو يتمنى لو تركهما الحاكم معاً، ليسر إليها أن الأميرة بخير.. ولكن الحاكم ظل معهما طوال الوقت، وكان هاني يحاول أن يلفت انتباه الملكة إلى أنه يحتفظ بسر يجب أن يطلعها عليه ..

ولم يبد له أن الملكة انتبهت لمحاولاته، إذ إنها بعد أن أنهى شرحه، أبدت لزوجها الحاكم رغبتها بالرحيل.. بعدما طلبت منه مكافأة هاني على جهده المبذول.. وعاد هاني إلى البيت معززاً مكرماً، وكان في ذروة قلقه على أمينة والأميرة الصغيرة.. وحين أغلق الباب خلفه أخذ ينادي:

- أمينة.. أمينة أين أنت؟

- الحمد لله أنك عدت أخيراً..

- أين الأميرة الصغيرة؟

- تناولت الطعام ونامت من جديد، إنها مرهقة تماماً، صحتها ليست على مايرام.. قل لي ماذا كانوا يريدون منك؟

- ثمة من اتهمني بجريمة لم أرتكبها، وقد أثبتت التحقيقات ذلك..

- الحمد لله على سلامتك.. أنت متعب ووجهك شاحب..

- لابأس، المهم أنني خرجت من هذه المحنة.. حدثيني ماذا حدث بعد خروجي؟

- نظفت آثار الطعام المحترق.. وجهزت طعاماً سريعاً، أكلت منه (رادا) وقد كانت شديدة القلق عليك..

- اسمها (رادا)؟ لم يخطر على بالي أن أسألها عن اسمها.. ونامت بعد تناول الطعام؟

- لا.. جلسنا نتحادث، عرفت منها أموراً كثيرة..

- حكت لك عن اغتصابها، وعن معاناتها المرعبة بعد ذلك؟

- حكت لي عن عامر ابن معلمها، يبدو أنها تحبه كثيراً، كان هو صلة وصلها مع العالم الخارجي، كان يهربها أحياناً من القصر ويدور بها بين الأحياء، استفادت منه كثيراً وهي لاتعرف كيف اختفى وعائلته فجأة دون أثر..

- ذكرت لي شيئاً من ذلك..

- وهي تعتقد أن الحاكم هو من طردهم من القصر بعدما رآها مع عامر، وهما يحاولان التسلل من سور القصر إلى المدينة..

- وماذا حدثتك أيضاً؟

- حكت لي عن أمها الضائعة، وزوج أمها الغادر الذي اغتصبها دون رحمة، وهددها بقتل أمها إن حكت شيئاً.. هي سعيدة لأنها تخلصت من ذلك الجو البغيض، رغم آلامها وجراحها، ولكنها تتمنى لو ترى أمها..

- يبدو أن العملية تتعقد يا أمينة.. حاولت كثيراً أن ألفت انتباه أمها إلى أنها مازالت حية، ولكني لم أفلح..

- سأجهز لك الطعام، يبدو عليك التعب الشديد، يجب أن ترتاح بعد تناول الطعام..

- كيف؟ وفي ذهني أسئلة يجب أن أعرف الإجابة عنها..

- سأجهز لك الطعام وبعد ذلك نتحدث..

(١٥)

دارت الأسئلة الحائرة في ذهنه وقد ازدادت همومه.. وأحضرت له أمينة طعاماً خفيفاً، تناوله بشراهة.. وأمينة تراقبه بعناية.. وقالت له فجأة:

- أمعقول أن تموت أمي ولا أدفنها؟ آه ياإلهي ما أقسى هذا الزمن البغيض..

كان يعلم أن جثة أمها قد دفنت باحتفال كبير، وقد أبدل بها الأميرة، ولم يشأ أن يحكي ذلك لأمينة، لذلك قال لها بهدوء:

- فكرت كثيراً بهذا الأمر.. من الصعب المغامرة بالبحث عن جثتها وإحضارها لتدفن بشكل لائق، لابد أنهم أرسلوها إلى أحد مخابرهم الحيوية للاستفادة من أجهزتها الحيوية وخلاياها.. في تلك المخابر يستفيدون من كل أعضاء الموتى، حتى إنهم يرسلون قسماً كبيراً منها إلى بنوك الأعضاء البديلة..

- أعرف ذلك..بعد أيام تبدأ سنة جديدة سنة (٢٠٤٠) إنه رقم مخيف، كل سنة تمر تزداد الإنسانية بؤساً في نهايتها..

- حدثيني عن انهيار الأنظمة والحكومات ودخول الجميع في عولمة القطب الواحد.. أرجوك يا أمينة، كأن ضباباً يخيم على ذاكرتي في تلك السنوات المنصرمة منذ بداية القرن الحادي والعشرين..

- بدأ القرن بداية دراماتيكية، فلقد تحركت في الحادي عشر من الشهر التاسع عام ٢٠٠١ مجموعة طائرات ضخمة لتصطدم بأبراج عالية، في أكبر بلاد صناعية تسيطر على العالم.. قرر زعماؤها بعد ذلك فرض سطوتهم على العالم وضرب الإرهاب الذي تصوروه في كل الأمكنة التي تستحق أن تجبر لصالحهم..

- أذكر تلك العمليات بالتفصيل.. أيمكن أن تفسري لي يا أمينة من الذين قاموا بها؟ أقصد هل توضحت الصورة فيما بعد؟

- أمعقول ألاَّ تتذكر؟ لابأس.. قلت لي من قبل: إن شيئاً أصاب ذاكرتك، اتهمت مجموعات صغيرة في بلدان شرقية، أفراد تلك المجموعات لاتعرف التكنولوجية ولا البحوث العلمية المتطورة التي تؤهلها للسيطرة على طائرات متقدمة تضرب بها أهدافاً في دولة تملك أقوى الأجهزة والرادارات، وبها أقوى جهاز استخباراتي في العالم..

- نعم.. وماذا حدث بعد ذلك؟

- تركز الإعلام حول الثأر من تلك المجموعات وضرب البلدان المنتمية إليها، كانت حرباً طائفيّة غير معلنة، وحدث ذلك بوحشية منقطعة النظير، حدثتني عنها أمي بالتفصيل، استمرت الغارات والقصف بالطائرات والصواريخ الموجهة لفترة طويلة، دون أن يجرؤ صوت قوي على التصدي لما يحدث آنذاك..

- ضربوا الكثير من الدول؟

- سلسلة طويلة من العمليات الغادرة التي طالت الإنسانية، وقد حكيت لك بعض المآسي التي حدثت حولي وأنا طفلة.. من جراء القصف العشوائي..

- أكملي.. احكي بالتفصيل.. أرجوك يا أمينة..

- إنها فترة مظلمة في تاريخ الإنسانية، مانزال ندفع ثمنها.. الموت حصد الملايين، واستخدمت أبشع آلات الفتك والدمار.. قنابل عنقودية انشطارية، نترونية جرثومية كيميائية.. وحل يأس قاتل في نفوس غالبية البشر.. وكثرت العمليات الاستشهادية ضد تجمعات أعداء الإنسانية المتشدقين بالعدالة المطلقة.. شباناً.. كهولاً.. نساءً.. من مختلف الجنسيات والحرف..كانوا يقومون بعمليات استشهادية مقاومة.. وخاصة بعد أن انكشف زيف ادعاءات من أشعلوا نيران تلك الحروب.. وبثت محطة فضائية مجهولة لقاءً ما أزال أذكر تفاصيله كما حكته لي أمي فيما بعد

☆ ☆ ☆

- دكتور لورنس أنت أحد أهم الباحثين في تكنولوجية الاتصالات، ماذا تقول حول موضوع البرمجة؟

- قبل تلك العمليات بسنوات كانت هناك برامج حول تطوير التحكم بالطائرات الضخمة وتوجيهها عن بعد، كلفت تلك البرامج أموالاً طائلة.. حتى تأكد للقائمين عليها أنها ناضجة تماماً..

- تقصد أن العمليات نفذتها أجهزة داخلية؟

- نعم.. درست كافة الاحتمالات.. والنتائج المترتبة على ذلك.. والوقت اللازم لذلك، وردود الأفعال، والتهم الجاهزة..

- إذنِ نفذت العملية بدقة مدهشة، واتهم بها أناس من الخارج..ولكن لماذا؟ هل ضحوا بالناس في بلادهم من أجل أهداف معينة؟

- بالطبع، من أجل خدمة مصالح اقتصادية حيوية

- أوضح لنا هذه القضية من فضلك..

- في العقد السابع من القرن الماضي، صار هناك أزمة عالمية، في خليج الأرانب، فجهزت القوى الخفية في تلك الدولة العظمى، خطة لتوريط نظام الجزيرة المجاورة للخليج، وكانت الخطة تقضي بتدميرنا بارجتين، والقيام بعمليات تفجير داخل مدن تلك الدولة تلصق تهم منفذيها بسكان تلك الجزيرة حتى يكون ذلك مبرراً للتدخل العسكري بإظهاره أنه دفاع عن النفس..

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- وضعت الخطة أمام رئيس تلك الدولة، فرفضها وطلب إتلاف كل وثائقها، ولكن الرئيس اغتيل في ظروف غامضة، يرجعها الخبراء إلى الأيادي الخفية المتحكمة في تلك الدولة..

- آه.. فهمت هذا يشابه ماحدث في ذلك اليوم الرهيب.. ضرب أهداف داخلية واتهام قوى خارجية، واستعداد الجماهير ضدها، واستنفار كل القوى العالمية التابعة، لتنفيذ المخطط المشؤوم..

- نعم.. دمار مستمر لمدن وقرى وأحياء فقيرة.. كثر الجوع والمرض والموت بين صفوف الهاربين من الجحيم في عدة بلدان عالمية وظلت تلك القوة تبالغ في تنفيذ مخططاتها، حتى أصبح العالم جحيماً لايطاق..

- والإعلام التابع يظهر العكس، يظهر الطمأنينة والراحة في قتل الناس الذين سمتهم القوى العظمى بالأشرار.. مع أن الأبرياء من ضحايا الدمار كان عددهم كبيراً كبيراً.. ولكن أتعتقد أن المقاومة لم توجد لكبح جماح هذا الاندفاع؟

- بالتأكيد.. أعتقد أن..

وأكملت أمينة: - «وسمعت أصوات انفجارات هائلة وانقطع البث فجأة وظهر أن تلك المحطة المجهولة ضربت، لأنها حاولت فضح مايجري.. وخرج

أحد العسكريين يلصق التهمة بأعداء مجهولين يحاولون تشويه ماتقوم به القوى العظمى من خدمة للإنسانية..»

- أكملي يا أمينة.. قولي ما الذي حدث بعد ذلك..

دخلت الأميرة الصغيرة وهي تتأوه:

- أشعر بآلام في الجرح..

- مدديها هنا يا أمينة سأكشف على الجرح.. يحتاج إلى تطهير، لم تنسي الدواء يا أمينة؟

- لا.. كنت دقيقة في تنفيذ تعليماتك..

- تحتاج إلى مقويات وفيتامينات أيضاً.. يجب أن توضع تحت العناية الطبية، يجب أن يتفرغ عامل طبي للعناية بها..

- سأبذل جهدي للقيام بذلك.. ألم تخبر الملكة عنها..؟

- لم أتمكن..

راقبتهما الأميرة وهما يتهامسان سألت:

- هل حالتي خطيرة إلى هذا الحد؟

- لا.. ليست خطيرة، ولكنك بحاجة إلى عناية، ستعتني بك أمينة..

بكت يائسة:

- يبدو أنني أسبب لكما مشكلة صعبة؟

- أرجوك ياسمو الأميرة.. لاتتعبي نفسك..

- ناديني بـ (رادا) لست أميرة الآن.. أرجوك.. لاأدري كيف أتصرف؟ ليتني أموت..

قالت أمينة: - اهدئي يا رادا، سنعتني بك لن نتركك وحيدة..

وأكمل هاني:

- قد أستطيع إيجاد وسيلة للاتصال بأمك الملكة.. هي الآنّ لاتعرف أنك مازلت على قيد الحياة..

- دعها تعتقد أنني ميتة، لو اكتشفني ذلك النذل، لو اكتشف أنك خدعته سيكون انتقامه كبيراً، ولن تستطيع أمي عمل شيء.. هو الحاكم الفعلي الحقيقي الذي يملك القرار.. إنه مدعوم من القوى المتسلطة على العالم..

- ماذا تقولين؟

- هي من وظفته لدى أبي، وأعتقد ويعتقد كثير من الناس مثلي، أنه هو من قتل أبي، ولفق التهمة ضد أعداء مجهولين..

- يبدو أن هناك الكثير من الأسرار التي يجب أن أطلع عليها..

حكت له رادا عن والد عامر مستشار والدها، كان شيخاً حكيماً، يستشيره والدها في الأمور المعقدة.. وكانت رادا وعامر صديقين حميمين..ورغم أنهما متقاربان سناً، إلا أن عامراً كان يعرف الكثير وكانت تتعلم منه الكثير أيضاً..

وحين قدم ذلك الرجل الغامض الذي أصبح زوج أمها فيما بعد.. كان الشيخ منزعجاً من موافقة الملك على ضمّه إلى بلاطه..

- إنه رجل سيجلب الكثير من المتاعب للبلد..

- إضبارته الخاصة مليئة بشهادات التقدير.. قضى عدة سنوات في تنقل دائم بين الدول بقصد الكشف والمعرفة..

- ولكن من رشحه لك هو سفير تلك القوة العظمى نفسها؟

- صحيح..أنت تضع يدك على الجرح..أنا لا أستطيع رفض أي طلب لذلك السفير.. لا أريد أن أجلب المتاعب لبلادي..

- ربما كان قدوم ذلك الرجل إليك، وشغله وظيفة هامة في البلاط هو المتاعب ذاتها.. أنا خائف على البلد يامولاي.. ما الذي خططوا له لدفع الرجل للعمل معك، وبسلطة كبيرة.. ألن تمنحه سلطة كبيرة؟

- سأحاول أن أحصر عمله بمهام بسيطة..

- أتمنى ذلك يامولاي.. وأتمنى أن يخضع لمراقبة شديدة.

- إن شاء الله.. مارأيك لو تبادلت معه الحديث أمامي..الآن..

- ما الفائدة يامولاي..

- أريدك أن تغوص في أعماقه.. بحكمتك وفراستك..

وهكذا طلبه الملك ليتبادل الحديث أمامه ووالد عامر مستشاره الحكيم، ودخل زاهي وهو اسمه الذي أكد المستشار الحكيم أنه اسم مستعار.. فهو قد استفسر عنه وعن حياته السابقة فلم يجد له سجلاً معروفاً، ولم يعرف من أية طينة ينحدر..

ودخلت جلالة الملكة قبل أن يمثل زاهي بين يدي الملك، فقال أبو عامر مستأذناً:

- لاشك أن جلالة الملكة حضرت لأمر هام تريد إبلاغك إياه.. لذلك أنا أستأذن بالخروج

سألها الملك: - أهناك أمر هام تريدين إبلاغي إياه فعلاً؟

قالت مرتبكة:- لا..لا.. جئت لمشاركتك في استقبال من يقابلك من الرعية..

- حسناً.. عد إلى مكانك إذن يا أبا عامر؟

وحضر (زاهي) الموظف الجديد، يطلب الإذن بالدخول.. فأدخله الملك، انحنى زاهي أمام الملك

- تشرفت أخيراً بلقائك يامولاي..

ثم انحنى أمام الملكة:

- مولاتي الملكة هنا.. أنا سعيد الحظ فعلاً

- اجلس يازاهي قرب مستشارنا الشيخ..

- لاأجرؤ على الجلوس في حضرتكم يامولاي..

- اجلس قلت لك..

تمتم متظاهراً بالارتباك:

- غمرني مولاي بعطفه ولطفه..

- قل لي، كيف يسير عملك؟ هل يزعجك أحد؟

- أنا في أقصى امتناني لك يامولاي..

- أوصانا سعادة السفير بك كثيراً.. قال إنك انتقلت في أعمالك الناجحة بين عدة بلدان.. هل عملت في بلد سعادة السفير.. في البلاد العظمى سيدة العالم..؟

- كنت أحد المقربين لرئيس استخباراتهم هناك.. وأتمنى يامولاي، لو تضعني في جهاز استخباراتك، سأكون يدك اليمنى على أعدائك..

قالت الملكة: - يبدو رجلاً صادقاً ياعزيزي..

نهرها الملك بلطف: - لاتتدخلي بمثل هذه الأمور ياعزيزتي..

كان زاهي ينظر إلى الملكة، وهو يرمقها بنظرات والهة مفضوحة.. ويبدو أنها تستجيب لنظراته، دون أن ينتبه الملك المسكين لذلك.. وأردف زاهي قائلاً:

- وأعتقد أن الشيخ المستشار يشاركني الرأي يامولاي..

- أشاركك بماذا؟

- بأن أعمل في جهاز استخبارات مولاي.. سأكون مفيداً جداً له..

- هذا أمر يخص مولاي، أنا لا أتدخل في هذه الأمور..

- آسف ياسيدي.. لم أكن أعرف ذلك..

- سننظر في الأمر يازاهي.. هه. قل لي هل انتسبت لكلية عسكرية؟

- بالطبع، وأحمل الكثير من الأوسمة والنياشين على أعمالي المتميزة، سواء في قيادة المناورات، أو العمليات الخاصة..

- عظيم، يبدو سجلك حافلاً بهذه الأعمال أيضاً.. وتتقن عدة لغات أيضاً؟

- بشكل كامل، حتى إن اللغة التي أتقنها تجعلني أختلط بأصحابها الحقيقيين دون أن يعرفوني، هذه موهبة من الله يامولاي..

- نعم.. نعم.. أنت رجل كثير الكفاءات..

- إذن ستعينني في الوظيفة الجديدة..

ورن جرس الهاتف الخارجي قال رئيس التشريفات:

- سعادة السفير الأعظم، يطلب الحديث معك يامولاي..

أمسك الملك السماعة، كان السفير يتحدث:

- جلالة الملك.. كيف حال زاهي؟ هل أنت مرتاح من عمله معك.. إنه يمثل بين يديك الآن.. لدينا رجاء منك، وظفه في المكان الذي يرغبه..نعلم أنه يرغب في الانتقال لوظيفة معينة تختلف عن وظيفته الحالية.. أرجو أن تفهمني ياجلالة الملك

- حسناً.. سأفعل ذلك..

أقفل الملك السماعة، وقد بدا وجهه كالحاً.. لم يكن مرتاحاً لهذه المكالمة:

- حسناً يازاهي يمكنك الانصراف.. سننظر في طلبك سريعاً..

- هه.. سأبدأ الدوام في وظيفتي الجديدة منذ الغد يامولاي..

- إن شاء الله.. إن شاء الله

قال بوقاحة وهو ينحني أمام الملكة:

- تشرفت بوجود جلالة الملكة أيضاً.. كنت أسمع كثيراً عن جمالك يامولاتي، ولم أعرف أنك في الحقيقة أكثر سحراً من كل الكلام الذي قيل عنك..

بادلته الملكة تحيته مرتبكة.. علق المستشار عليه بعد خروجه:

- أرأيت كم هو شديد الوقاحة؟ إنه ينفذ مخططاً مدروساً.. بصراحة يامولاي أنا خائف منه..

- وماذا أفعل؟ أكد السفير أن أضعه في المكان الذي طلبه

- أجّلْ ذلك لبضعة أيام.. قد نعثر على الحل المناسب..

- سيغضب مني السفير، وتعلم أن غضبه يعني أنني سأخسر الكثير..

وتابع كلامه وهو يغص:

- ألم تشهد بعينك كم كان وقحاً في تأملها، وهي كما يبدو استسلمت لنظراته، أليس ذلك ضمن المخطط أيضاً؟

- أنا شديد الخوف من الأيام المقبلة يامولاي.. وبصراحة أنا خائف عليك..

- آه.. بدأ القلق يأكلني..

وأكملت رادا كلامها:

- حدثني عامر بتفاصيل ذلك اللقاء الذي كان بحضور والده

- ونفذ والدك تعليمات السفير، وعين زاهياً في المكان الذي يريد؟

- نعم.. وأصبح مقرباً لأمي.. ويبدو أنها خضعت بالتدريج لسيطرته

- حدثيني عن العلاقة بينك وبين عامر..

- كان ابن أستاذي، وصديقي الذي يعلمني وينصحني ويحترمني، وهو نموذج لشبان صغار متفوقين.. يبدو أن والده علمه كل شيء.. وكان مستعداً للإجابة عن جميع الأسئلة دون تردد..

- وكيف أبعده الحاكم، ووالده، عن المدينة..؟

- اختفيا فجأة دون أثر، ولفق الحاكم تهمة لهما، إذ ألصق بهما تهمة سرقة بعض النقود، وجزء من مصاغ الملكة، كان عامر يحميني من الفوضى التي هي قائمة في القصر.. وبعد اختفائهما وجدت نفسي وحيدة مضيعة، بدأ زوج أمي يتودد إلي وأنا أراوغه..

- ووالدتك؟ لماذا لم تلجئي إليها؟

- بعد موت أبي الغامض، وصداقتها المفضوحة لزاهي، ثم زواجها منه لم أعد أراها إلا قليلاً، وكانت تعتذر لي بأن وقتها ضيق.. وأنها متفرغة لتحمل مسؤولية الحكم بعد أبي..

- وكيف حدث ذلك الحادث لك؟ أقصد اغتصابك؟

- استيقظت في الليل، كان الوغد فوق رأسي، لم أستطع الصراخ من الرعب الذي تملكني.. وهو يمد يده ليبعد الغطاء عني.. وتملكتني قوة كبيرة لمقاومته ولكنه كان أقوى مني..

- ولم تري والدتك؟

- وما الفائدة لا أستطيع أن أتهمه بشيء.. لم يكرر زيارته لي إلا بعد أسبوعين وحاول من جديد استلابي، ولكني كنت مستعدة لذلك، هددته بتناول السم.. وإخبار والدتي.. فضربني ضرباً مبرحاً وانصرف..

- وماذا عن الخدم، الذين يشرفون على خدمتك..

- كلهم من أتباعه، بعد أن مات أبي غَيّرَ كل أشخاص الخدمة

وفجأة انبعثت طرقات على الباب

- أمينة.. ادخلي والأميرة إلى ذلك المكان.. سأرى من في الباب..

- سأفعل يادكتور.. هيا ياعزيزتي.. ترى من يطرق الباب الآن أيضاً.؟

فتح الباب فدخلت مجموعة من الجنود:

- مطلوب للقصر.. مولاتي ترغب برؤيتك..

- أنا؟ ولماذا؟

- لا أدري ياسيدي.. استعد بسرعة أرجوك فلا وقت لدينا..

وفجأة اندلعت الانفجارات المدمرة من طائرات تقصف، وبدا كأن البيت أصيب بقذيفة..

☆ ☆ ☆

واستيقظ هاني، وكانت زهرة إلى جانبه.. بدا عليه التعب والإجهاد.. ناولته كأساً من الماء، شرب قليلاً ثم مسح وجهه.. ونظر إلى الساعة كانت تقارب الخامسة صباحاً.. نظرت إليه مشفقة، دون أن تنطق بكلمة..

كانت تعلم أن تلك الأحلام تشكل له أهمية كبيرة، لأنها ترتبط بعوالم الغد المجهولة.. نهض من الفراش متوتراً قلقاً، وهو يمسك رأسه وأعضاءه كأنه يشعر بآلام هائلة:

- هل لقيت أجوبة عن تلك التساؤلات الغامضة التي ترهقك؟

تنهد متألماً:

- ليس بعد.. ولكني ازددت فهماً للواقع.. وأعتقد أن تلك الأحلام قد انتهت، أتعلمين لماذا؟

- لا.. لماذا؟

- كأن شخصي في الحلم أصيب بقذيفة.. استيقظت على أثرها وأنا أشعر بآلام لاتطاق. ولكن مازالت أمامي ألغاز قد لاتستطيع الألغاز حلها؟

- ماذا تقصد ياهاني؟

- هدى الشبيهة بأمينة، وعايدة شبيهة الأميرة الصغيرة..

- كتب عليك الشقاء ياهاني وأنت تبحث عن أجوبة لأسئلتك الصعبة..

وبدأت حياة هاني تتخذ شكلاً جديداً من البحث، وبدأت رحلته مع الاكتشافات المذهلة حول قرن حافل بالألم الإنساني لمليارات البشر.. كأنها مرحلة استقلاب خطيرة في تاريخ البشرية.

☆ ☆ ☆

الفصـل الثـالـث

ديدان الموت

(١)

كيف أتتك الأحلام يا هاني في تسلسلها المنطقي وتصورها للعديد من الأحداث التي قد تحصل في المستقبل، وأنت من خلالها تقفز فوق الزمن إلى عالم لا تعرف عنه شيئاً، عالم غامض، ما زال يلقي بظلاله السود على الزمن القادم...

هل يجب أن تنتظر زمناً آخر لتنكشف الأحاجي قليلاً، أو لتبادر لإجراء تنويم مغناطيسي عند أحد أصدقائك المختصين لتتعرف على الجانب الخفي الذي يكمن فيه سرّ أحلامك.. وهذا ما تؤكده زهرة زوجتك وقد رأتك دائم التوتر والشرود.

- إنه حلّ منطقي يا حبيبي...

- ربما أحتاج إلى أحلام أخرى، قد تساعدني في الاقتناع أن التنويم المغناطيسي يحلّ المشكلة...

- ولماذا يجب أن تنتظر؟ جرّب التنويم المغناطيسي، وإذا لم تستفد عد إلى هوسك بأحلامك المتعبة المرهقة

- إنها تتحدث عن زمن قادم يازهرة، لذلك هي تتعبني.. زمن قادم لا أدري كيف أخوض في تفاصيله المرعبة، وأتوغل في أعماق شخصياته وأحداثه..

- لو عرضت حكاية رادا، أو حكاية أمينة على (عايدة) وعلى (هدى)، بماذا ستجيبانك؟ أعتقد أن الجواب لن يكون سهلاً...

- معك حق...

- كنت مقتنعاً بعد ما استيقظت من آخر أحلامك، أنها انتهت، تحدثت عن انفجارات وقذائف أصابت إحداها منزلك في الحلم؟..

- هذا صحيح، ولكن يجب أن أتأكد من ذلك.. سأنتظر الأحلام المختلطة مع المستقبل في الأيام القادمة.. وإذا لم تأتِ سألجأ للتنويم المغناطيسي مسترشداً برأيكِ...

- ستزداد توتراً وقلقاً؟..

- وماذا أفعل؟ أحلامي هي نوع من الاستبصار الغريب للمستقبل، وأعتقد أنها داخل دائرة الوقائع المقبلة..

- سأتصل بهدى قد يفيدك اللقاء معها؟..

- معك حق، منذ زمن لم نلتقِ بها..

- ستكون مناسبة أن نزورها..

- فكرة جيدة يا زهرة... اتصلي بها وحدّدي الموعد المناسب... في الغد.. أخاف أن تشغلني العمليات الجراحيّة في منتصف الأسبوع...

- سأفعل يا هاني...

- وأرجو أن تفسر لي هذه الزيارة... بعضاً من الألغاز التي ترهقني حول أحلامي..

استقبلتهما هدى وزوجها في اليوم التالي استقبالاً حارّاً.. كانت شهرة هاني

قد ازدادت في الأيام الأخيرة بعد نجاحه في إجراء جراحة معقَّدة لدماغ مشوّه...

وقد أصرَّ ابنه الصغير هاني أن يأتي مع أمه... وكانت قلقة من مجيئه إلا أنه سرعان ما تعلّق بهدى، وقد وضعت أمامه بعض أواني المطبخ البلاستيكية ليلعب بها...

- شرفتنا يا دكتور بهذه الزيارة..

- شكراً لك، هي فرصة طيبة أن نوثق علاقتنا..

تعلمين مكانة عهد زوجك عندي، كان هاني الصغير هادئاً يلعب مستغرقاً في ألعابه..

- كنت خائفة من إزعاجاته، إنه في سنّ الاكتشاف.. إنه كثير الحركة، قد يسبب قلب الأثاث وكسر الزجاج،... هو شغلي الشاغل في البيت، لا أغفل عنه لحظة...

- الصبيان عموماً كثيرو الحركة.. ألا تفكران بالمزيد من الأطفال؟

- في هذا الوقت؟ يكفي هذا الصغير الذي يقلب لنا البيت رأساً على عقب دائماً...

- إنه شديد الذكاء، يبدو بفهمه لما حوله أكبر من سنّه، تصوّر سألني: متى سينتفخ بطني، تمهيداً لولادة الطفل الذي أنتظره؟..

- إنه يلتقط الكثير من المعلومات ممن حوله...

وفجأة انبعثت أصوات انفجارات متتابعة قالت هدى:

- يجب أن نهبط للقبو، إنه الملجأ الوحيد لبنايتنا.

- سأحضر هانياً الصغير..

كان منكمشاً من الخوف في ركن الغرفة وقد ترك ألعابه... ضمته هدى بحنان: أعان الله هؤلاء الأطفال على السنوات القادمة، لن تكون سهلة أبداً..

لم تهدأ الانفجارات لساعة أخرى.. وهم يجلسون مع مجموعة من الأسر التي تسكن البناء، وقد عمَّ الصمت، وليس سوى أصوات الانفجارات.. وبكاء بعض الأطفال أحياناً، كانت هناك مقاعد من الخشب على أطراف القبو المكوّن من فسحة واسعة تتخللها أعمدة ثخينة من الإسمنت المسلّح..

وأخيراً انطلقت أصوات صفارات الأمان، فخرجوا بهدوء وهم يتبادلون النظرات مع الآخرين.. بفضول وحياديّة.. علّقت هدى:

- لم نتعرّف جيداً بجيراننا، نعرفهم بالأشكال فقط..

قال عهد:

- كأن هذا العصر قد قلّل من العلاقات الإنسانية... كنّا في حيّنا القديم قبل سنوات نعرف الجميع ونتعاون مع الجميع في كل المناسبات..

علّق هاني:

- معك حق، الزمن يتغيّر ليعزل الناس بعضهم عن بعض، مع أنهم في وسط الزحام.. لا نعرف سبب هذه الغارات والقصف الصاروخي بعد.. ولكن من المؤكد أنه على علاقة ببسط أجنحة سيطرة القوة العظمى على العالم..

- أنتِ معي إذن، أن كل ما يحدث حولنا، مصنوع بطريقة ذكية، وربما مبرمج منذ سنوات ليورط العالم كله في الانحناء لقوة قاهرة جبارة...

- نعم.. نعم.. أنا أتفق معك..

علّقت هدى وهي تزفر بحرقة:

- أنا أرى أحلاماً مخيفة عن سنوات قادمة..

- عن سنوات قادمة؟..

- نعم... أشاهد نفسي أحياناً ومعي طفلة، ونحن نلوب في أحياء مدمَّرة بحثاً عن ملجأ... وأحياناً أرى نفسي في مشفى يحيط بي أطباء يشقون بطني ويتمتمون، وأنا أشعر بآلام لا تطاق..

قالت زهرة مدهوشة:

- أحلامك غريبة يا هدى؟ أيمكن أن تحكي لنا تفاصيلها..؟

علّق عهد:

- تبقى أحلاماً غريبة.. ربما لأن هدى تتمتع بشفافية نادرة..

- ولكني أرى وقائع.. هكذا تبدو لي في الحلم..

- طلبت منك زهرة أن تحكي لنا بعضاً من أحلامك.. أبإمكانك تلبية رغبتها؟..

- نعم.. لا بأس.. سأحكي حلماً غريباً رأيته البارحة..

همهم عهد:

- إنه حلم مرعب يا هدى..

- لا بأس.. ذلك الحلم يحكي عن واقعة، أنا متأكدة أنها قد تحصل قريباً.. في هذا اليوم قصفنا بالقنابل.. وذلك الحلم يحكي عن مدينة دمّرها القصف..

☆ ☆ ☆

«كنت في الحلم ألوب خائفة أبحث عن طفلة صغيرة، كأنها ابنتي عادت من المدرسة إلى الحيّ... فقصف الحيّ.. وقصفت المدرسة وقصفت مستشفيات

وأماكن عبادة، كأن أحداً عزيزاً كان في المستشفى المركزي وكنت أرافقه.. آه يا إلهي، ما أقسى المناظر التي رأيتها بعد ذلك القصف المخيف...»

- أتبحثين عن أحد يا سيدتي..؟

- أبحث عن طفلتي لا أعرف أين هي؟..

- لم تعثري عليها في البيت؟..

- بيتنا مدَمَّر تماماً، وقال لي بعض الناس الذين يعملون بالإنقاذ، إنهم لم يعثروا على شيء في ركامه.. لا أثر لحياة فيه..

- ربما كانت مع الجيران في أحد الملاجئ..

ولكني فوجئت بطفلتي تهرع نحوي وهي تبكي ومعها جارنا:

- ماما.. ماما... أين كيف؟..

- يا إلهي.. أمينة.. عدت لي أخيراً..

- حمداً لله على سلامتك يا سيدتي.. كيف حال من في المستشفى؟..

- دمّر المستشفى على من فيه.. وكنت إحدى الناجيات بأعجوبة.. كأنما أشفق عليّ الإله من أجل ابنتي..

- هيا إلى بيتنا لم يدمّر بعد بشكل كامل، هناك غرفة القبو، صمدت قليلاً أمام القصف..

«يا إلهي ما أكثر المشاهد المرعبة التي رأيتها في طريقي، ورجال الإنقاذ يحاولون إنقِاذ الناس من تحت الأنقاض، وينتشلون الجثث المشوهة، والقليل من الناس ممن نجوا من القصف يلوبون على أحبائهم»

- لماذا رويت هذا الحلم بالذات، إنه يبكيكِ ويرعبك؟.

- لا بأس.. أرجو من الله أن يجعل العاقبة خيراً...

كان هاني مذهولاً، سأله عهد بلطف:

- ما رأيك بهذا الحلم يا دكتور هاني..؟

- يبدو حلماً مرعباً.. وإن كنّا ننتظر، أو نتوقع حدوث مثل هذه الأحداث..

- أصبحت هذه الأحلام ترهقني، ولا أدري لماذا.. ربما لأن ذلك الحلم البغيض يتكرر دائماً عن جراحين يخدرونني ويستأصلون بعض أعضائي باستمرار أرى وجوههم.. كما أنني يا دكتور هاني أرى شخصاً يشبهك يدافع عني ويبتسم في وجهي مشجعاً..

رجاه عهد:

- بماذا تنصح هدى يا دكتور؟ إنها تعاني من هذه الأحلام دائماً، صارت أشبه بكوابيس يوميّة..

- لدي صديق مختص بهذا النوع من الأحلام التي لها علاقة بالاستبصار والحاسة السادسة والتخاطر.. سأعرض عليه هذا الموضوع وأرى رأيه وربما أقترح أن تزوره هدى في عيادته..

- لا بأس.. أرجو أن تتولّ هذا الأمر بجديّة، هدى تعاني كثيراً من هذه الأحلام..

- إن شاء الله.. إن شاء الله..

- أنا آسفة.. دقائق وأجهّز لكما القهوة... شغلنا الحديث عن القيام بواجب الضيافة..

- لا بأس يا هدى، لا نعتبر أنفسنا ضيوفاً..

- بل أنتم ضيوف أعزاء.. أكثر من الأهل..

- شكراً لك..

(٢)

ظلَّ هاني صامتاً بعد عودته وزهرة من تلك الزيارة التي فسّرت له بعض الألغاز.. هدى هي والدة أمينة نفسها، وهي ترى معه أحلاماً عن وقائع مقبلة.. والمقبل عند هدى مخيف ومرعب..

فأحلامها تتحدّث عن القصف والوحشية والدمار.. وعن ضياع الإنسان في البحث عن خلاص من المحن التي سيغرق فيها.. وكان هاني يتوقع أن يرى حلماً في تلك الليلة، ولكنه لم يرَ شيئاً.. استيقظ في الصباح وهو منزعج فلا أحلام أيضاً.. لا أحلام لها علاقة بوقائع مقبلة..

حاولت زهرة أن تخفف عنه..

- ألم تقل أن قصفاً شديداً بقنابل هائلة الانفجارات، أصاب المنزل الذي أنت فيه، ربما كان هذا القصف آخر أحلامك.. فأنت في زمن مقبل لم تعد موجوداً.. أقصد لم يعد الشخص الذي تمثله موجوداً؟..

- أعلم ذلك... ولكني كنت أنتظر أن يخرج من هذا القصف سليماً معافى؟

- ولم يخرج مع الأسف.. لذلك أرجوك يا حبيبي هدّئ من نفسك وحاول أن تنشغل بعملياتك الجراحيّة القادمة..

- وعايدة؟ هل ترى عايدة أحلاماً أيضاً؟..

- آه.. عايدة؟ لا أعتقد أنها ترى أحلاماً، هدى حسّاسة مرهفة، تتمتع بشفافية نادرة كما أرى.. إنها تحب الناس وتقلق على مصيرهم.. ومستقبلهم.. عايدة ليست من هذا الصنف..

- ولكن يجب أن نزور عونياً ونتحادث معها..

- لا مانع عندي.. هيا سأعد لك الإفطار، تأخرت على عملياتك..

- ألم يستيقظ هاني الصغير بعد؟

- نام متأخراً لن يستيقظ إلا عند الظهر.. اقرأ هذه الصحيفة، سأعد لك الإفطار..

قلّب هاني بأوراق الصحيفة، فلفتت نظره عناوين بارزة عن جرائم وسرقات وتزوير واحتيالات.. وكانت هناك صورة تشبه ذلك الرجل القبيح الذي يراه في الحلم، كمستشار للحاكم..

كانت الصحيفة قد خصصت مقالاً بارزاً عنه وعن قدرته على الاحتيال وسرقاته وتقمّصه شخصيات أتقن فيها التنكر.. وأنه مطلوب للعدالة من أكثر من دولة.. وخصصت الصحيفة تعليقاتها الساخرة عن الرجل المتسرب كالزئبق من كل أجهزة الأمن...

وضع الصحيفة جانباً وغرق في التفكير، أيقظته زهرة من شروده ليتناول الإفطار.. فأشار إليها إلى صورة الرجل، وحكى لها عن شبيهه في الحلم ذلك الشيخ الذي يبدو شديد القسوة بلا قلب..

شعرت زهرة أن (هاني) مقبل على أيام صعبة إذا لم تسارع في حلّ بعض مشاكله، فقررت أن تتصل بعايدة للاتفاق على زيارة.. كما قررت أن تخضع (هاني) للتنويم المغناطيسي..

ضغطت على أزرار الهاتف تتصل ببيت (عوني) لتتكلم مع زوجته وتتفق معها على زيارة في نهاية الأسبوع، ورجتها أن تكون (عايدة) موجودة.. لأمر ستحكي لها عنه عندما تلتقيان..

وفي ذلك الوقت كان (هاني) يعاين مريضاً انتشرت الحبوب المقيّحة في أطرافه ووجهه، وكانت حالته خطيرة... كانت بثوراً أخفض ارتفاعاً من الجلد... مما يدلّ على تآكل في تلك المناطق التي انتشرت فيها...

حيرته التقارير التي وردت من المخبر والتي تؤكد أن لا مرض سريرياً مسبّب، لا جدري ولا التهابات كبديّة ولا فيروسات طارئة..

تبادل الحديث مع أهل المريض، كان فتىً في الرابعة عشرة من عمره، ومعه والدته وأخته..

- وأين تسكنون يا خالة؟..

- في منطقة تابعة للريف.. إنه آخر العنقود يا دكتور.. أرجوك ابذل جهدك في علاجه.. ليس لنا غيره في البيت.. ابنتي هذه مخطوبة، وستغادرنا بعد فترة قصيرة إلى بيت زوجها المقبل..

- حدثيني عنه في الأيام الأخيرة.. عن نشاطه.. شكواه؟..

- كان قوياً نشيطاً مرحاً، وكان يحب الطبيعة والانطلاق بين المروج.. وقد صمم قبل أيام على النوم على السطح.. رغم أنني حذرته من البرد في الليل ويبدو أنه تعرّض لأزمة برد شديدة..

- ألا ينتشر عندكم البعوض؟..

- لا.. نحن لا نراه..

- ولم تقترب الطائرات القاذفة من مناطقكم..؟

- آه.. ماذا أقول لك، إنها تستعرض قوتها وتخترق جدار الصوت باستمرار.. مسببة الرعب لدى الناس.

قالت ابنتها:

- لقد قصفوا المزرعة المجاورة يا أمي.. صحيح أن الأضرار كانت طفيفة ولكنهم قصفوا إحدى مناطقنا، يعني لسنا بمنأى عن الخطر..

ودقق هاني في التقرير المخبري، وتبادل الحديث مع المخبري الذي أحضره:

- معقول؟ البعوض هو الذي سبّب هذه البثور..

- إنه بعوض غريب، يتغذّى بالمواد البروتينية، وقد استخرج الدكتور (نديم) العديد من البيوض التي فقّس بعضها في المختبر..

- إذن إنه البعوض الذي نهش لحم هذا الفتى المسكين.. ولكن من أين أتى؟ وكيف وصل إلى هناك؟..

- يقول الدكتور نديم إنه بعوض مدَجّن ولم أفهم ما يقصد..

- يجب أن ألتقي بنديم ونتباحث معه حول تلك الحشرات الغريبة..

- وماذا حول الفتى؟ ماذا ستفعل له؟..

- سأنظف هذه البثور وأخيط حوافها، خلاياه غضّة ستلتئم بسرعة، وأرجو ألاّ تكون إحدى بيوض هذا البعوض الخبيث قد تسربت إلى داخل الجلد..

- يعني أنها قد تفقس حتى داخل الجلد؟..

- لا أدري.. إن حدث ذلك ستنتهي حياة الفتى..

- هل ستبدأ الآن جراحاتك الدقيقة؟..

- نعم.. ستكون جراحة متعبة..

وتحرّك الفتى قليلاً ثم فتح عينيه.. استبشر هاني من ذلك فقد يحكي له بعضاً مما رآه.. مدَّ الفتى يديه كأنه يحمي رأسه ووجهه من الخطر..

- آه.. ما الذي يحدث لي؟ إنها تلتمّ عليّ من كل صوب.. تلسعني حتى فوق الغطاء.. آه.. أمي.. أمي

- ما الذي يحدث؟ أنت تتعرّض لهجوم من الحشرات؟..

- آه.. أين أنا؟ من أنت؟.

- لا تخف أنت في المستشفى المركزي.. وستكون بخير..

- المستشفى؟ ماذا حدث لي.. آه.. أنا أتذكر.. هاجمتني تلك الحشرات المرعبة.. كانت تأكلني بشراهة غطيْت عينيّ... فلم أعد أرى ولا أسمع سوى الطنين ولكن منذ متى أنا هنا؟..

- ألا تتذكّر؟ بعد أن هاجمتك الحشرات، ماذا حدث لك؟..

- لا أدري.. لا أذكر شيئاً.. آه.. أشعر أنني مصاب بدوار.. سأنام..

وغرق في غيبوبته من جديد، رغب هاني أن يتحادث مع أمه ليستفسر عن بعض الوقائع، خرج هاني من غرفة الفتى، يتبادل الحديث مع أمه وأخته.. كانت البثور قد ظهرت سريعاً فوق جسمه.. وحولها القيح والصديد، وهذا غير مفهوم، فالبثور فوق الندبات تظهر ببطء..

يجب أن يلتقي بالدكتور نديم حتى يتباحثا في الأمر.. فربما أفاده ذلك في الجراحة.. طمأن أم الفتى أنه سيجري جراحة ستعيد للفتى قوته ونشاطه.. وأن غرفة العمليات تتهيأ لذلك.. ثم يمّم شطر المخبر ليتحادث مع الدكتور نديم رئيس قسم المخبر الذي كان مشهوراً بعلمه الغزير وبراعته..

- البثور ظهرت بسرعة، كأن أمكنة لدغ البعوض قد غُطِّيَتْ بطبقة صلبة سريعاً، أيمكن أن تفسر لي ذلك يا دكتور؟..

- في الحقيقة أن تلك البثور، ليست بثوراً حقيقية، إنها مادة تفرزها البعوضة لتغطي بها مكان اللدغ.

- ألا بيوض داخلها؟..

- نعم.. ولكنها بيوض قليلة في أسفل المادة اللزجة.. أي ملاصقة لِلَّحم..

- يا إلهي، هذا يعني أنها ستفقس، وسترعى اللحم محميّة بالبثور السميكة، وربما تنفذ إلى داخل الجسم فتقتل الضحيّة بالتدريج..

- نعم.. أعتقد أن هذا ما قد يحدث.. ولكن يا دكتور هاني، هذا يحتاج إلى أيام.. لو استطعنا خلالها قتل كل تلك البيوض، لأنقذنا الضحيّة..

- وهذا يحتاج إلى جراحات سطحيّة سريعة، نُزيل فيها البثور، ونخيط الجروح بعد أن نتأكد من تعقيمها مجهرياً، ونزيل كل مادة غريبة فيها..

- هذا عظيم يا دكتور هاني، وأرجو أن تنجح بإنقاذ ذلك الفتى..

- ولكن بما أن البعوض الغريب قد لدغ ذلك الفتى، يعني أنه منتشر في المنطقة، لِمَ لا يكون هناك آخرون تعرضوا لهذا اللدغ أيضاً؟..

- معك حق.. على كل حال لم أتبلغ بعد بمثل هذه الإصابات..

- يجب أن نتصل بفرق المكافحة للانتشار في تلك المناطق..

- ولكننا لا نعلم بعد نوعيّة هذا البعوض ولا المواد المناسبة لمكافحته..

- معك حق..

- ما سبب انتشار ذلك البعوض في رأيك؟ وكيف حدثت تلك الطفرة في أنواعه؟..

- أعتقد أنه عمل عدواني مبرمج..

- لم أفهم.. ماذا تقصد؟..

- حكى الفتى، وقد استيقظ للحظات عن هجوم كثيف لتلك الحشرات.. كما حكت أمه عن قصف بسيط لمنطقة قريبة منهم.. أعتقد أن ما ألقته الطائرات ليست سوى قنبلة جرثومية، أو قنبلة حيوية، حوت بيوض البعوض

المدَجَّن في المختبرات المتطورة لتلك القوة العظمى التي تستخدم مثل هذه الحشرات التي دخلت الهندسة الوراثيّة في التلاعب بجيناتها من أجل خدمة هدف معيّن..

- يا إلهي، لو حدث ما توقعته يا دكتور هاني ستكون هناك كارثة كبيرة.. أعتقد أنك لا تبالغ في رسم هذه الصورة القبيحة.. إنها صورة واقعية، والدليل على واقعيتها هو هذا الفتى المهشّم المشوّه الذي قد لا ينجو من إصاباته..

- سأظل على اتصال معك، سأذهب الآن لإجراء الجراحة لذلك الفتى..

- أتمنى لك التوفيق، وإن جدَّ شيء سأخبرك..

(٣)

خرج هاني من المختبر مثقلاً بالهموم، ما الذي يحدث للناس في هذا العالم حتى تصبح الحياة البشرية رخيصة إلى هذا الحدّ؟..

كان وضعاً مأساوياً مخيفاً بدأت المنطقة تحصد نتائجه، في سبيل إكمال سيطرة القوة العظمى على كل شيء في هذا الكوكب المدجّن بالأحقاد والغدر..

كان كل شيء جاهزاً أمامه للبدء بالجراحة.. جراحة صعبة ومضنية يساعده فيها نخبة من الجراحين اللامعين والمساعدين، إضافة لحاسوب متطوّر، يدخل في عمق الخلايا الدقيقة، ولم تكن جراحة قصيرة الزمن، بل امتدت نحو سبع ساعات متواصلة..

كانت عينات البثور الجديدة التي أرسلها الدكتور هاني إلى المخبر قد أكّدت فعلاً أن القسم الملاصق فيها لخلايا الجلد وما تحته، تحتوي على بيوض دقيقة من بيوض البعوض.. وكان هاني قد نظف الجروح جيداً قبل إخاطتها..

☆ ☆ ☆

كان هاني شديد الإرهاق، حين اتجه صوب البيت، بعدما طمأن أم الفتى وأخته أن الفتى سيتماثل إلى الشفاء بنسبة كبيرة.. استقبلته زهرة بحنان..

- حمداً لله على سلامتك.. خابرتك مراراً، يبدو أن العملية الجديدة كانت متعبة واستثنائية..

- كانت متعبة فعلاً، واستثنائية رغم بساطتها..

- الغذاء جاهز.. تناول غذاءك وتمدّد قليلاً..

- إنها الساعة الرابعة، لم يبق الكثير إلى موعد العيادة..

- اتصلت بمساعدك ليؤجل المواعيد حتى السادسة.. هذا أفضل..

- معك حق.. كيف حال هاني الصغير؟

- زارتني هدى، تعلق بها فاصطحبته، ستعيده في المساء.. إنها تشكو من أعراض الوحام، هدى في بداية حملها.. وهي متعلقة بهاني الصغير..

- هي سيدة طيبة، لا أمانع إن أكثرتِ من زيارتها.. يجب أن أبدأ بفك ألغاز أحلامي..

- معك حق يا حبيبي..

ازدادت الإصابات بالبعوض الجديد الذي انتشر في أغلب مناطق ريف العاصمة وتكاثر بشكل مذهل..

وبدأت جثث الضحايا تخرج من المستشفيات إلى المقابر.. واجتمعت لجنة من الخبراء في علم الحياة يبحثون عن الحل المناسب الذي سيوقف انتشار هذه الحشرات الخبيثة..

وأجريت التجارب على الأمصال المضادة للدغ الحشرات دون فائدة...

كانت تلك الأنواع المهجنة شديدة الشراهة لتناول اللحم البشري وحتى اللحم الحيواني، بحيث لا تنفع معها مقاومة ولا مصل..

حتى ذلك النوع من البعوض كان معنّداً على المبيدات، بل إنه تكيّف معها وبدأ يستفيد منها في غذائه..

- إذن ماهو الحل يا جماعة؟ أعداد الضحايا في ازدياد..

- لو أننا طلبنا العون من تلك الدولة التي أسقطت تلك القنبلة الحيويّة لربما ساعدتنا..

- لا يا دكتور.. لن نفعل ذلك، لأنه لو طلبنا منها ترياقاً لأرسلت لنا معه سمّاً زعافاً، هؤلاء الناس أرادوا ضربنا وقتل أناسنا.. هل يمكن أن نتحاور معهم؟..

- أنا معك.. قد نخضع لابتزاز يزيد الطين بلّة..

- إذن ما هو الحل؟..

- الحل في أبحاثنا يجب أن نتوصل إليه مهما بذلنا من جهود..

بدأ الباحثون بجهد كبير وإصرار يدرسون الوسائل الكفيلة بإيقاف زحف البعوض المبرمج على قتل الناس والحيوانات.. وكانت ضحاياه البشرية أكثر من الضحايا الحيوانية، لأن الجلد البشري ناعم من السهل أن تتوقف فوقه البعوضة وتبدأ بلدغه..

فيما جلود الحيوانات مغطاة بالشعر والصوف والوبر والريش إلاّ في مناطق صغيرة.. وبعد جهد كبير تمكنوا من مكافحة هذه الحشرات الغريبة القاتلة.. وجرت أحداث أخرى في قرن بدأناه بالضحايا والويلات والأحلام المرعبة...

(٤)

كان مساءً صعباً على قاسم وهو يقبع في ذلك الكهف ينتظر عودة سالي من المدينة تتنسّم آخر الأخبار، بعد أن أتقنت تنكّرها بشكل امرأة ريفيّة تحمل سلتها لتتسوق من المدينة ما تحتاجه.. ورغم أن الأجهزة الإلكترونية التي يملكها كانت كافية لنقل آخر الأخبار إليه فإنه لشدّة حرصه وخوفه من أن ينكشف للعالم الخارجي، كان لا يستخدمها..

كان يعيش أجمل سنوات عمره مع سالي بعيداً عن صخب المدينة وصداعها المزمن، وبعيداً عن تلك المنظمة العالميّة التي وجد نفسه فجأة عضواً فيها ينفذ لها أوامرها الفظيعة دون تذمر..

درسا خطة هربهما واختفائهما بشكل دقيق، بعدما أحدث بأوامره المضادة لعناصره شرخاً في المنظمة كادت تدمر بنيانها في تلك العاصمة النامية.. وبهربه وسالي أكَّد أنهما المسؤولان عن ذلك الشرخ الكبير الذي جعل تلك المنظمة الأخطبوطية تهتز وتنفضح بعض أسرارها، ويتسبب ذلك في خسارتها لمواقع كثيرة في العالم..

سمع صفيرها المميز الذي تقلّد فيه طيور الليل، فشعر بالارتياح وأخيراً عادت سالي.. سالي التي أصبحت قطعة من قلبه، إن استغنى عنها ذبل ومات..

كانت تعرف الطريق جيداً دون حاجة لضوء إضافي سوى ضوء القمر الذي كان يقارب البدر..

- تأخرتِ يا سالي.. ليسَ من عادتك..

- أحمل لك الكثير من الأخبار.. ليست عامة وإنما خاصة.. أختك زهرة..

- زهرة؟ ما بها؟ أسمعت عنها شيئاً؟

- انظر صورتها مع زوجها الجراح الشهير في حفل تكريمه، بعد أن أجرى أعقد الجراحات في التاريخ كما يسمونها هنا..

- يا إلهي زهرة؟ معقول؟ كم كانت أمي ترغب برؤيتها قبل أن تموت..

- لم تقل لي: إنها تزوجت من جرّاح مشهور، كالدكتور هاني..

- أنا لا أعرف شيئاً كثيراً عنها، تزوجت من ابن جيراننا الذي كان يدرس الطب في ذلك الحين في إحدى الجامعات المتطورة، وظلّت على اتصال بأمي، وسافرت أمي وقضت ستة أشهر مع زهرة وزوجها... وكانت لا تفتأ تذكرهما باستمرار.. سفري قطع أخبارها عني.. كنت مشغولاً يا سالي، كنت مشغولاً بأبحاثي ودراساتي.. لم ألتفت كثيراً للروابط العائلية..

- المدهش أننا هربنا من البلاد التي استوطنّاها إلى هذه البلاد هرباً من تلك المنظمة المرعبة، بعدما صنعنا في داخلها شروخاً من الصعب أن ترمم من جديد..

- يا إلهي، زهرة تعيش في هذه البلاد، معقول؟..

- ما رأيك لو حاولنا الاتصال بها؟..

- كيف؟ قد يعرف بوجودنا أحد أعضاء تلك المنظمة، فتصل إلينا..

- قاسم يا حبيبي.. منذ نحو السنة ونحن نعيش في هذا المكان المنعزل.. درنا كثيراً، اجتزنا حدوداً صعبة بين بلدان متناحرة، وتنكرنا بأزياء الفقراء والدراويش والتجار والمهرجين.. حتى لا يعرفنا أحد ونجحنا في ذلك.. ربما يبحثون عنّا في بلدان بعيدة، قد لا يخطر في بالهم أننا هنا..

- ما تقولينه صحيح، ولكن أفراد المنظمة موجودون في كل مكان، إنها منظمة أخطبوطية تصل أياديها إلى كل مكان في العالم، إنها تحكم العالم بالحديد والنار...

- يمكننا أن نهرب من أفراد هذه المنظمة، مهما كانوا أذكياء ويتقنون فن التتبع، وذلك بالتنكر الصحيح..

- قد يكون هذا صعباً..

- بالطبع إنه صعب ولكنه ليس مستحيلاً..

- ولماذا تريدين رؤية زهرة؟..

- أريد أن ألتصق بالناس، تعبت من العزلة يا قاسم.. تعبت.. ثم إنني أشعر بأعراض الحمل.. ألا تشعر بي أحياناً يصيبني الغثيان ونفسي تعاف بعض أنواع الطعام، وتحب أنواعاً أخرى..

- يا إلهي.. سالي، أنت حامل؟ معقول؟ ومنذ متى تعرفين ذلك؟.

- منذ أكثر من شهر، وقد أكد الدكتور في المستوصف المركزي ذلك وهذا ما أخّرني، أحضرت بعض الأطعمة التي أشتهي تناولها..

- سالي حبيبتي، ما أسعدني بهذا الخبر.. معقول؟ ستنجبين أولاداً؟ إنه خبر غير عادي يا حبيبتي.. اجلسي إلى جانبي.. دعيني أسمع وجيب قلبك، أشعر بالجنين الصغير الذي بدأ رحلة الحياة في بطنك..

- ما بك يا حبيبي؟ ما زال الوقت مبكراً على حركة الجنين أنا في بداية الشهر الثالث..

- وإن كنت في شهرك الثالث أستطيع أن أشعر بابني يتحرك في أحشائك، أستطيع أن أصل إلى شغافه..

- تحولت إلى زوج رومانسي، أنا أحب فيك هذه الرومانسية.. آه يا قاسم.. حدثني قليلاً عن أهلك، حدثني عن طفولتك شبابك فجّرْ ذكرياتك الحميمة واسفحها لأرشف من ينابيعها.. لا بد أنها كثيرة الثراء بالأحداث والعبر..

- ماذا أقول لك يا حبيبتي؟ كنت لا أفكر بفتح مثل هذه الأحاديث الشجيّة ولكن لا بأس.. سأحكي لك بعضاً من الأحداث التي شكلت الملامح الحقيقية لشخصيتي.. كنت متعلقاً بأمي.. وكانت أمي امرأة نادرة...

- بماذا تميزها من غيرها من النساء؟

- كانت طيبة صابرة، تعرّضت لظلم شديد لا أحد يستطيع أن يصفه.. وكنّا وإخوتي جزءاً من هذا الظلم الذي دفعتنا إليه الظروف بشكل غير منصف أبداً...

- أي نوع من الظلم؟ حدثني يا قاسم أرجوك.. نحن نقضي الليل الموحش، وليس حولنا سوى أصوات الذئاب وحيوانات الليل المتوحشة وطيوره وجنادبه.. يمكننا تبادل الحديث حتى الصباح..

- قد تتعبين يا سالي؟..

- لن أتعب.. أريد أن أتعرّف كل شيء من حياتك.. أعلم أن تفاصيلها مهما كانت ستزيدني حبّاً بك..

- تزوج أبي من أمي وكانت صبيّة تتعشقها العين، وعاش معها نحو ست سنوات ثم سافر وظلَّ غائباً (ثماني سنوات) متواصلة.. عاد بعدها ليجد أمي مثقلة بالمرض وهي تعتني بنا بحذر حتى لا تنقل إلينا العدوى.. هكذا أوحى لها الجميع، ولم تعرف المسكينة أن مرضها لا يعدي إلاّ بعد أن تقدّم بها السن.. وأذكر أنه في ليلة عودة أبي من سفره.. حصل شيء أرعبني..

- ما هو؟ ما الشيء الذي أوصلك إلى درجة الرعب؟..

- كان شيئاً مخيفاً مزعجاً سبّب لي التعاسة والشقاء فيما بعد.. أمي المعزولة التي استقبلت أبي بروح حانية تنتظر منه العاطفة والودّ الذي تنتظره أية امرأة

من زوجها بعد سفرٍ طويل، وبدلاً من أن تكون أمي مثل بنيلوبي التي انتظرت (أوليس)، فجاءها بكل الحب يغمرها بعاطفة ظلّت تنمو دون توقف لمدة ثماني سنوات

- تجاهلها، واعتزلها، بل وقسا عليها بكلماته.. أليس كذلك؟.

- نعم.. كانت الجارات يهنئنها بوصوله ويتغامزن، وكنا نحن الصغار نستمع إلى نصائحهن بترك أبي وأمي وحدهما.. وفعلاً جمعتنا أختي الكبيرة التي ماتت منذ سنوات رحمها الله وقالت لنا:

- يجب أن ينفرد أبي بأمي، هكذا أوصتنا الجارات.. يبدو أن أمي حزينة من سلوكه معها، وهو غاضب منها لسبب نجهله.. سنهيئ لهما هذا الانفراد، عسى أن تنصلح الأمور بينهما..

- أتريديننا أن نخرج ونلعب في الحارة يا أختاه؟ نحن مستعدون لذلك..

- لا داعي لذلك، المهم أن نترك هذا الجزء من البيت الذي ينفردان فيه بعيداً عن أي نشاط منّا.. أن نعزل هذا الجزء..

- هذا ليس صعباً، سنفعل ذلك دون تردد..

- عظيم يا أشقائي وأحبائي..

«ووصلنا صوت أبي الغاضب وصوت أمي الحزين..»

- ماذا فعلتِ بنفسك، أتتبرجين؟ أتريدين إغوائي؟ آه أيتها المجنونة.. أمعقول أن أُلامسك بيدي وأنتِ كتلةٌ من المرض المقرف..

- ماذا تقول؟ لقد حرمتنا طوال مدة غربتك سوى من قليل من المال، وساعدت إخوتك وأقاربك ونسيتني ونسيت أبناءك..

- أبنائي أصحّاء البنية، وليس سوى قاسم الذي يُشبهك في كل شيء..

- سامحك الله.. حرمت نفسي من كل شيء من أجل أولادي ولأجعلهم يكبرون أقوياء البنية، وأنا أخيط الملابس، أرهق نفسي من أجل الحصول على المال ليقيم أودهم وأنت ترسل المال بلا انقطاع لأخوتك وأقربائك..

- هؤلاء إخوتي.. إنهم يعتنون بكم أيضاً؟

- يعتنون بنا؟ لا أحد يأتي إلينا.. لا أحد يلتفت للأولاد، يعتبرونهم مرضى مثلي.. سامحهم الله.. أولادهم يرفلون بالحلل والملابس والطعام الجيّد وأولادي محرومون..

- كفاكِ هراءً أيتها المأفونة سأعرف كيف أتخلّص منك..

- سامحك الله..

«كانت أمي قد سمعت رأي الطبيب بمرضها، وعرفت من هذا الطبيب الدجال أن هذا المرض قد يسير بها إلى الموت بالتدريج.»

- وماذا حدث بعد ذلك؟..

- نفيت المسكينة إلى تلك القرية البعيدة التي تحولت إلى مدينة صغيرة بعد مضي الزمن وعاشت فيها بعيداً عنّا.. وحرمنا والدي من رؤيتها.. لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي قرر فيه إخوته وأقرباؤه نفيها.. كانوا مجتمعين في بيتنا يتناقشون بصوتٍ عالٍ دون أن يهتموا بوصول كلامهم الجارح إلى مسمع أمي..

- أمامك الحياة بكاملها تستطيع أن تتزوج، وتبتعد عنها، ألا تراها كومة من الجلد والعظام بسبب المرض

- إنها هزيلة نحيفة، وهذا الهزال بسبب مرضٍ معدٍ، قد يصبح وبالاً علينا جميعاً..

- ليس لك سوى خيار إبعادها عن هنا تماماً ومنع الأولاد من زيارتها حتى لا يتعرضوا للعدوى..

- سألنا عن مرضها أطباء اختصاصيين أيضاً وأكَّدوا أنها مصابة بمرضٍ خطير.. ذلك المرض الذي ذكرناه لك نفسه..

- ارمها كالنفاية يا أخي، ليست مثلها أكثر من نفاية..

- سنزوجك فتاة، تعتني بك، وقد اخترناها لك..

- اخترتموها لي؟ بهذه السرعة؟..

- كنّا نفكر بعودتك من المهجر، ونفكر بضرورة متابعة حياتك، لتسعد بوجود امرأة إلى جانبك بعيداً عن كومة النفايات هذه..

- سنأخذك اليوم لزيارة الفتاة التي ترغب أن تتزوجها...

- ستعجب بها كثيراً ولن تتردد بالزواج منها، إنها فتاة رائعة..

وأكمل قاسم قصته وهو يتنهد بحزن.. وسالي تنصت إليه بكل جوارحها.. وهو يضعها في أجواء طفولته التي تبدو أنها أشقته كثيراً..

«استمعت أمي لقرار محاكمتهم لها وهي في غرفتها تبكي.. وفي اليوم التالي ودعتنا بصمت وحملت صرتها وغادرتنا مع عمي الأكبر، ولم نعد نراها، وكانت رسائلها تصل إلينا عن طريق أهالي تلك القرية، الذين أحبّوها وكرّموها، وتحوّلت خلال أسابيع إلى امرأة جميلة.. وصلت إليها ورقة طلاقها من والدي فاستقبلتها بالبكاء الصامت الحزين وشوقها إلى أولادها.. ولم يتهيأ لي أن أراها سوى مرّة واحدة قبل سفري لمتابعة الدراسة في ذلك البلد البعيد.. كانت تخيط الثياب للناس مقابل دراهم قليلة.. دون أن يرسل إليها أبي فلساً خلال كل تلك السنوات، دون شفقة.. أو تقيّد بتعاليم الشرع..»

- وكيف رأيتها؟..

- قطعت المسافات سرّاً إلى العاصمة، لترانا.. وجاء كهل إلينا يطلب منّا أن نذهب معه لرؤيتها فهي متشوقة إلى أن ترانا بعد كل تلك السنوات..

- وذهبت وإخوتك؟..

- ذهبت وأختي زهرة فقط.. واندفعت إلينا تعانقنا وهي تبكي بكاءً يقطع نياط القلب..

«آه كم اشتقت إليكم.. اشتقت إلى روائحكم.. ليتني أموت حتى لا أتعذب كما أتعذب الآن ببعدكم عني.. آه يا زهرة يا صغيرتي أصبحت صبيّة.. أتنفرين مني؟ لست مريضة بشيء يا ابنتي.. أعرف أنك لم تتعودي أن أضمك وأقبلك، وقد أخافني أولئك الناس من أن أنقل إليكم المرض، وأسبب لكم الهزال مثلي في ذلك الزمن، وكان كل ذلك المرض وهماً نسجوه للسيطرة على أبيك وثروته..»

- لا يا أمي.. بل أنا مدهوشة من جمالك وصحتك وحيويتك.. وكذلك قاسم..

قلت ! نعم يا أمي الحمد لله أنت بخير..

- لست بخير ما دمتم بعيدين.. لِمَ لم يحضر أخوتك يا قاسم لرؤيتي؟..

- أختي متزوجة من ابن عمي وهو يذيقها صنوف العذاب يعاملها كالخادمة.. وأختي الثانية، مع زوجة أبي تقوم على خدمتها وخدمة أطفالها.. وأخي زوَّجه أبي من ابنة عمي..

- آه يا إلهي، أليس في قلب والدكم إحساس بكم؟ أنتم أطفاله فكيف يعذبكم هكذا؟ انظري إليّ يا زهرة، ماهذا الجرح في جبهتك؟..

قالت زهرة مرتبكة:

- سقطت على الأرض.. انزلقت..

- كان يجب أن تنتبهي لنفسك..

همست إليها:

- لِمَ لا تقولين الحقيقة؟ زوجة أبيك هي من ضربتك..

- اسكت أرجوك يا قاسم..

انتبهت إلينا أمي:

- بمَ تتهامسان؟ خائفان من العقاب، إن عرف والدكما أنكما قابلتماني؟ لن يعرف ولن يخبره أحد من الناس الذين استضافوني هنا عن وجودي.. ورؤيتي لكم.. لا تقلقا..

أعطتني بعض المال، وقد عرفت أنني مسافر للدراسة بعد تفوقي.. وودعتني وهي تبكي بكاءً شديداً.. وظلّت زهرة تتذكر ذلك اللقاء بدموعها الصامتة كلما انفردت بي، حتى سافرت..

- ألم يقف الجميع أمامك حين حاولت السفر أو حين نجحت في البعثة إلى ذلك البلد المتطور؟..

- آه يا سالي.. كنت لا أشتهي الطعام، ولا آكل سوى القليل، وكنت نحيفاً هزيلاً لذلك اعتبروني مثل أمي مصاباً بالمرض وأهملوني تماماً، بل وسعدوا برحيلي عنهم.. وهذا ما شجعني ألاّ أعود، وليس سوى الرسائل والهدايا مني خلال مدة غربتي.. أما السبب الرئيسي لعودتي فكان إحساسي بأن بلدي بحاجة إلي ولاختصاصي وعلمي.. رغم أن الكثيرين من زملائي نصحوني بعدم العودة..

- ومنذ أن وطئت رجلاك أرض المطار تلقفتك تلك المنظمة.. ولم يزرك أحد من أهلك.. ولم ترَ سوى أمك؟ لماذا؟

- لم أكن أعرف عناوينهم، فقط عنوان أبي، وعنوان أمي المنفيّة، لأن اسم القرية التي عاشت فيها معروف بالنسبة إلي.. وأبي كنت أكلمه بالهاتف أحياناً..

- ولم يطلب منك العودة؟

- مسكين أبي.. كنت أشعر أنه نادم.. ولكن بعد فوات الأوان.. بزغ الفجر ونحن نتحادث يا سالي.. يبدو أن حديثنا استغرق الليل بطوله..

- تشعر بالنعاس.. يمكننا النوم الآن بعض الوقت.. إن رغبت..

- خائف عليكِ، قد يؤثر السهر على صحتك وأنت في حملك الأول..

- لا تخف يا حبيبي بنيتي قوية، تعودت شظف العيش..

وهكذا تمددا على الفراش الواسع فوق المصطبة في ذلك الكهف المنزوي.. وقاسم يفكّر بالأيام المقبلة، وبزهرة أخته، التي سمع أخباراً عنها بالمصادفة.. شعر بسالي تغط في النوم، فنظر إليها بحنان، وأخذ يراجع سيرة حياته الحافلة بالمفاجآت.. ويتذكر بقية إخوته وهو حزين دامع العينين..

(٥)

في ذلك اليوم قرّر الدكتور هاني، بناءً على إلحاح زهرة أن يخضع للتنويم المغناطيسي عند صديقه الدكتور سعيد.. وهكذا اتجه وزهرة صوب عيادة سعيد الكائنة في جنوب العاصمة.. كانت الضاحية الجنوبية قد تعرضت لقصف طائرات تلك الدولة العظمى التي تحمل شعار مكافحة المتمردين على قوانينها، وقد أعلنت أنه في الضاحية الجنوبية بعض معسكرات المتمردين عليها..

ودون إذن من أحد أرسلت طائراتها تقصف البيوت والحدائق والعصافير والأطفال.. استقبلهما سعيد مرحباً.

- ماذا تشربين يا سيدة زهرة؟ هو سيغرق في النوم.. وأنتِ بحاجة لأن تظلّي إلى جانبه مستيقظة متنبهة، مارأيك بالقهوة؟..

- لا بأس يا دكتور..

- أنت جاهزٌ يا دكتور هاني، العملية ليست سهلة أنا أبحث في هذا التنويم المغناطيسي عن تفاصيل أحلامك وليس عن ذكريات مضت، أحلام رأيتها وربما من الصعب الوصول إليها..

- نعم يا دكتور سعيد.. ألن تحتاج العملية إلى طقوس خاصة؟..

- لا.. تناول ملعقة من هذا الشراب، ستساعدك في الاستجابة لي.. أنت رجل مبدع ليس من السهل السيطرة عليك..

- سأفعل كل ما تريده، فقط أريد أن أدخل ذلك العالم..

شعر هاني بعد دقائق أنه يغرق في سبات لا يعرف عنه شيئاً، كان سعيد قد تغلغل في ثنايا ذاكرته منذ الطفولة ثم توقف عند فترة مشاهدة حلمه الأول الغريب، الذي أدخله في عوالم الغد المقبلة...

بدأ الدكتور سعيد يلقي الأسئلة عليه، وزهرة إلى جانبه تستمع لأجوبة هاني الذي يبدو أنه دخل في عالم غير مألوف..

- أنت الآن في داخل الحجرة التي فيها الأميرة الصغيرة.. ماذا ترى حدثنا؟..

- أرى مجموعة من الخدم والممرضات وعمال الصحّة.. هناك شخص يختبئ خلف الستارة.. يبدو أن لا أحد اكتشفه.. إنه ينظر نحو الأميرة بعطف والأميرة شبه غائبة عن الوعي..

- ألا تراه؟ صف لنا شكله..

- إنه فتى يافع.. كأنه صديق خاص للأميرة.. أو خادمها الخاص أو وصيفها..

- وماذا ترى أيضاً؟ صف لنا المشهد أيضاً بشكلٍ أدق..

- آه.. شخص آخر بنظرات مريبة، يراقبني جيداً.. نظراته تخترق كل شيء، كأنه اكتشف وجود الفتى ولكني غير متأكد، لا أستطيع أن أختلس النظرات لما يحدث.. يبدو الأمر صعباً..

- حسناً يا هاني سنخرج الآن من الغرفة.. وسنصل إلى حلمك الأخير.. الحلم الذي حدث فيه قصف المكان الذي تعيش فيه.. حدثنا عما شاهدته قبل أن يحدث القصف..

- آه.. هناك رجال يدخلون من الباب يشهرون بنادقهم وتلمع عيونهم بالقسوة يريدونني أن أرافقهم إلى القصر.. ولا أدري لماذا...

- أنت الآن معهم.. صف ما يحدث بدقّة.. انقل صورةً حقيقية نابضة بالحياة عمّا يجري.. هيّا يا هاني.. أنت الآن في البيت في الحلم الأخير

- الأميرة تحكي لي عن اغتصابها من زوج أمها الملكة، آه، صوتها يصل إليّ متهادياً حزيناً.. يا إلهي كم هي مسكينة هذه الفتاة... أنا أتبادل الحوار معها سألتها:

- لِمَ لم تحكي لوالدتك عما يحدث لكِ من مضايقات من زوجها زاهي؟..

قالت:

- كنت خائفة ألاّ تصدقني وكانت واقعة تحت تأثيره تماماً.. كان يضربني ضرباً مبرحاً، وأنا لا أجرؤ على الصراخ.. هددته بقتل نفسي وإخبار والدتي، فعاود ضربي..

- وغيّر عناصر الخدمة الذين يخدمونك، ليضعَ خدماً من أتباعه، لا يهتمون سوى بأوامره ويبالغون في حصارك؟..

- آه.. بل كانوا يعاملونني بقسوة أحياناً وخاصة تلك الوصيفة العجوز، التي كان يستخدمها في ضربي أحياناً،

هناك طرقات على الباب، أنا أسمع طرقات على الباب.. طرقات ملحّة أنا أقول لهما:

- ادخلي يا أمينة مع الأميرة إلى ذلك المكان واختبئا جيداً بين أكياس الخيش ولا تصدرا أي صوت..

أنا أفتح الباب، أرى رجالاً مسلحين، جنوداً من القصر:

- مطلوب للقصر.. مولاتي ترغب برؤيتك..

- أنا ولماذا؟ ماذا تريد مني مولاتي الملكة؟

- لا ندري.. هيا جهز نفسك لا وقت لدينا..

أنا أسمع أصوات طائرات.. أصوات انفجارات:

- ماهذا القصف؟ يبدو قريباً منّا، الأرض تهتز..

- عندما تصل السيارة سنكون في مأمن، السيارة مصفحة ومقاومة.. هيا.. ارتد ثيابك بسرعة لا وقت لدينا..

سمعت أمينة تقول:

- أنا خائفة.. القصف قريبٌ منّا.. يجب أن نختبئ بالملاجئ..

شعرت بوجودي قربهما قالت:

- سيكشفون أمرنا.. عجّل يا دكتور، اذهب معهم، سنتدبر أمرنا فور رحيلك..

سألتها:

- أتريدين شيئاً؟ أنتِ ورادا؟

- لست أريد شيئاً سوى السرعة بالخروج من بين هذا الأثاث القديم..

قال آمر الجند معلقاً على القصف:

- يقول مولانا (زاهي): إن حاكمة العالم تضرب أهدافاً محددة للدفاع عن مصالحها.. هيّا بسرعة إلى السيارة المصفّحة إنها آمنة..

كان القصف يزداد قرباً.. صرخت بذعر:

- يا إلهي.. البيت أصيب.. أنا خائف.. يا إلهي..

انفرط عقدنا أسمع الصرخات:

- انتبهوا، احتموا جيداً في أسفل الدرج وسط البناء هيّا..

- الطبيب أصيب.. عجّلوا في منع سقوطه عن الدرج.. الدماء تنزف من صدره ومن رأسه.. إنه يغيب عن الوعي..

رأى هاني نفسه وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسي يحمل على أيدي أتباع الحاكم، وينقل إلى السيارة المصفحة التي تقطع به الشوارع المقوّضة المدمّرة..

ورأى نفسه يدخل مشفى، وتأتي الملكة لزيارته والاطمئنان عن صحته.. يحدق في وجهها، وهو شبه غائب عن الوعي، فيرى فيها شبهاً غريباً بعايدة.. يحاول أن يستيقظ ليسألها.. ويتكلم معها، ولكن الضباب يغطي كل شيء.. حاول سعيد أن يستجوبه وهو داخل الضباب:

- اخرج من الضباب يا هاني.. لديك القدرة على ذلك..

- أشعر بآلام لا تطاق أنا أختنق.. أتعذب..

- تستطيع أن تسيطر على أوجاعك.. يجب أن تنفذ من داخل الضباب... هيّا..

- ولكني أتعذّب.. أشعر بآلام في صدري وظهري ويدي.. أنا مصاب إصابتي القاتلة في صدري.. آه.. الضباب يتكاثف..

- سينقشع الضباب.. أنت تتغلغل فيه، تخرج منه ببطء.. هه.. أنت خارجه الآن.. ليس هناك من ضباب ماذا ترى يا هاني؟ ماذا ترى؟

- آه.. أرى جسدي المصاب، أرى الناس من حولي ومن بينهم الملكة.. صدرها يختلج.. إنها تحدّث نفسها..

- أنا أستمع إليك.. بماذا تحدّث نفسها، هيا.. أسمعنا يا هاني..

- يبدو الأمر شديد الصعوبة كأنني أسمع عبارات غير مترابطة.. آه.. ليتني أعرف سبب موت ابنتي.. هذا الطبيب يعرف أسراراً كثيرة.. أمعقول أن يكون زاهي هو من سبَّبَ الأذى لابنتي؟.. ليتني لم أتخلَّ عن أهلي هكذا..

- تعرَّفْ بشخصيتها يا هاني.. توغل في ذاكرتها، حرّضها على التذكّر..

- ما الذي يجعلني أتذكر أختي وأتذكر زوجها عونياً.. آه كم مضى من زمن طويل على ذلك.. لم أكن مخلصة لأسرتي أبداً.. حتى هذا الطبيب المسكين يشبه الطبيب الذي عالج عونياً من مرضه الخطير؟ لماذا لم أهتم بهذا الشبه؟.. آه يا عايدة كم ارتكبت من أخطاء في حياتك؟..

- عد إلى ذاكرة الملكة وانفذ إلى داخلها، تعرّفْ ماضيها كيف أصبحت عايدة هي الملكة؟ كيف؟..

- أنا أحاول أن أنفذ، آه.. دماغها مشوّش، بدأت تتذكر ماضيها، أنا لا أرى سوى صور متتابعة لا أفهم شيئاً منها.. وجوه غريبة متعددة لأناس من أعمار مختلفة، آه.. إنها تتعرّف ضابطاً كهلاً.. الصور تمر بسرعة..

آه.. إنها في حفلة كبيرة مع الضابط.. إنه يقدمها لرجل على أبواب الكهولة أيضاً، الكل ينحنون له.. آه عايدة تعود إلى البيت خلسة، إنها تهرب كثيراً من البيت، تتشاجر مع أختها، تترك البيت بلا مقدمات.. تنغمس في المغامرة.. آه تتزوج ذلك الرجل الهام.. الكل ينحنون لها.. يا إلهي..

- اتركنا نتأملها في داخلها في ذكرياتها.. نريد أن نعرف سرّ شرودها وحزنها..

- كأنها نادمة على ما تفعل، حزينة لفراق ابنها.. آه.. لا أستطيع أن أكمل تسربي إلى داخلها أشعر بالاختناق..

قالت زهرة خائفة، وهي تراه يتعذب:

- أنا خائفة يا دكتور إنه متضايق، أرجوك أيقظه.. ألا ترى عينيه تجحظان؟

- حسناً.. سأوقظه..

واستيقظ هاني، وهو متشوّق إلى سماع ما قاله في نومه المغناطيسي.. وحين سمع الشريط المسجّل شعر أنه يتعرّف الكثير من الأسرار، وخاصة عن حياة عائدة أخت زوجة عوني.. لم يكن يهتم كثيراً بتعرف التفاصيل فقد فهم شيئاً منها..

وعرف أن ذلك الكهل الذي تزوجها والذي ينحني له الجميع هورجل هام جداً، قريب للملك أو حتى الملك نفسه.. وأن عائلتها لم تكن راضية عنها، لذلك لم تتصل بها فيما بعد.. كأنها غير راضية عن زواج عايدة بذلك الرجل الرفيع..

ولكن ماذا عن هاني نفسه؟ لماذا يرى تلك الأحلام، وهو بطلها ويعمل

جراحاً أيضاً بالاسم نفسه.. أيمكن أن يكون هاني الصغير هو بطل تلك الأحلام؟ أيمكن أن يدرس الطب ويتابع التخصص كأبيه؟..

لم يحكِ هذه الافتراضات لزهرة، حتى لا يقلقها.. وحين خرجا من عيادة الدكتور سعيد الذي وعدهما أن يدرس الشريط جيداً ويحكي لهما رأيه واستنتاجاته فيما بعد.. ولكنه بشكل عام كان مرتاحاً لنتائج التنويم المغناطيسي فلم يتوقعها بمثل هذه الدقة.. كان يعتقدها أنها تحكي أشياء غير متوازنة، مفككة غير مترابطة، وقد ألمح له الدكتور سعيد أن يعيد الكرّة ثانية، إن رأى أن ذلك قد يفيده في رسم صورة واضحة عن تفاصيل قفزه فوق الزمن.. وصل وزهرة إلى المنزل صامتين، كان هاني الصغير منشغلاً بألعابه..

سمعا صوت الطائرات من جديد، اخترقت جدار الصوت عدة مرات فوق العاصمة.. كان رأس النظام العالمي الجديد يلهو ويتسلّى بالقتل والتدمير وترويع الناس، ويرسم صورة للمستقبل تكون فيها الإنسانية مهانة ذليلة مستعبدة لطغمة تتحكم بالرقاب والعباد..

ورن جرس الهاتف قرب زهرة فرفعت سماعة اللاسلكي لتسمع صوتاً غريباً..

- زهرة؟ كيف حالك؟ لا تتفاجئي كثيراً.. أنا زوجة أخيك..

- زوجة قاسم أخي؟ مستحيل..

- لا تنفعلي كثيراً، سيرسل إليك رسالة تحمل تفاصيل أكثر، كما سيحاول أن يلقاك قريباً، يقول له: إنه مشتاق كثيراً، تحياتنا..

كانت مذهولة غير مصدقة:

- أخي قاسم يا هاني تصوّر منذ سنوات طويلة لم أره، حكت أمي، كان

يتصل بها ويراها نادراً في أيامها الأخيرة، ولكنه كان محكوماً بعمل اعتبرته أمي غير شرعي..

- كيف؟ كان باحثاً مهمّاً في الخارج.. كيف تحوّل إلى أعمال غير شرعية؟..

- أنا لا أعرف التفاصيل ولكنه سيحاول رؤيتي كما قالت زوجته، وسأعرف عنه كل شيء.. آه يا إلهي كم تعذّب قاسم أخي.. طفولته مثقلة بالألم والعذاب..

- حكيتِ لي بعض تفاصيلها، أعرف ذلك.. ولكن شخصيته بعد سفره إلى الخارج تبدو مبهمة بالنسبة إلي، وبالنسبة إليكِ، لا بد أن أمك كانت تعرف عنه شيئاً ما فسرته بأعمال غير شرعية، هو من يوضح الصورة لنا، هو فقط..

- معك حق.. لقد اتصلت زوجته وكان الرقم الواضح على الكاشف ليس خارجيّاً إنه يتكلم من داخل هذه البلاد.. يعني أنه هنا.. في مكان ما، إنه حذر.. هذا يعني أنه مطارد، أو موجود بشكل غير شرعي، أو قام بعمل ما.. يخاف من عاقبته.. آه يا إلهي.. افتراضات محيّرة مقلقة..

وعاد قصف الطائرات من جديد:

- هيّا.. يا زهرة.. لنحاول الهبوط للقبو، عاد القصف من جديد، حاكمة العالم تريد أن ترهبنا بقنابلها وطائراتها ...، أن نتحول إلى عبيد.. عبيد بلا ملامح.. يا لهذا الزمن المرعب..

وهبطا مع الصغير إلى القبو.. وكان هناك ازدحام كبير في القبو.. والطائرات استمرت بقصف البيوت، والناس في زمن غامض، مفتاح أبوابه الخوف من مستقبل مجهول..

(٦)

تظل الهموم على صدرك يا قاسم وأنت تفكر في المأزق الكبير الذي وضعتك فيه الحياة، وقد هربت وسالي بعيداً عن أعين تلك المنظمة التي رأيت نفسك مجبراً على خدمتها من قبل، وسببت بسكوتك الكثير من المآسي...

ولم يغب عن ذهنك لحظة، أنك تسببت بوفاة والدتك، بالموافقة على نثر بيوض الزواحف فوق المستنقعات والبرك والبحيرات، وقد فقست هذه البيوض، وهاجمت الزواحف الناس، وتكاثرت بشكل مخيف، حتى سبَّبتْ كوارث هائلة.. وكانت أمك من جملة ضحاياها...

ترمق سالي النائمة قربك، وأنت تفكر بطفلك القادم، وتتذكر أيامك مع زوجتك الأولى التي تشبه سالي شبهاً عجيباً، تلك الزوجة التي ماتت بعد عام في أثناء ولادتها، بسبب خطأ طبّي، ومات معها الجنين مختنقاً..

من الغريب ألاّ تشعر بالخوف على سالي، وعلى حملها، كما أخافك موت زوجتك وجنينها من قبل.. كأنك شبه واثق أن سالي لن تمر بتلك التجربة التي مرّت فيها زوجتك الأولى..

ويشطح بك الفكر إلى زهرة أختك التي تعيش في البلاد نفسها التي جئت إليها، وتستغرب مجيئها وزوجها إلى هنا، وإقامتها في هذه البلاد... ولماذا انقطعت أخبارهم عنكم.. أو عنك بالذات؟ أيعود السبب لكثرة انشغالاتك بأبحاثك في تلك الدولة المتطورة التي كنت تعمل بها؟..

لم يستطع النوم وهو يتقلّب في فراشه في ذلك الكهف المنزوي وسالي إلى جانبه، وقد نامت مع بواكير الفجر بعد حديث طويل عن ذكريات لحياة مؤسية عاشها في طفولته..

سمع أصواتاً صاخبة في الدغل القريب، فخرج مسرعاً يتطلع من فتحة

الكهف المطلّة على الوادي، فرأى مجموعات تنتشر من الرجال المدججين بالسلاح ومن لباسهم الموحَّد خمّن أنهم من الشرطة، فأيقظ سالي مشفقاً..

- يبدو أن خطراً قد يداهمنا..

- ماذا تقول؟..

- مجموعات من الشرطة وربما جنود من الجيش في هذه البلاد ينقبون الأمكنة بحثاً عن شيء ما.. لا أدري ما هو...

- أمعقول أن تكون تلك المنظمة قد وصلت إلينا؟.. كيف..؟ وكنت حريصة تماماً في تحركاتي وتنقلاتي

- لا أعتقد أنهم يبحثون عنّا، يبدو أن من يبحثون عنهم كثيرو العدد وربما خطيرون.. تعالي نخرج بهدوء ونتزوي في ركننا الذي لا يستطيع أحد الوصول إليه، بعد أن نُمَوِّه مدخل الكهف..

- هيّا يا حبيبي سأساعدك.. ولكن قبل ذلك سأخفي حوائجنا خلف الصخرة حتى لا يكتشف أحد أن أشخاصاً يسكنون هنا؟.. وسأرش رائحة العفن في الكهف.. زيادة في الحيطة..

وبعد أن أنهيا بسرعة إجراءات التمويه، انتقلا إلى الركن الذي يجلسان فيه إذا شعرا بالخطر.. كان فتحة محاطة بالأعشاب من الصعب أن ينتبه لها أحد.. وأخذا يراقبان ما يجري تحتهما..

اقترب بعض الجنود من مكانهما، وتوصلوا إلى فتحة الكهف، ولكنهم سرعان ما تركوها وقد وصلتهم رائحة العفن.. وتابعا أحاديث الجنود بلغة أهل البلاد التي كانا يتقنانها..

- ليس في هذه المناطق أشخاص يشكلون خطراً.. إنها مناطق مهجورة يا سيدي..

- هكذا وصلت إلينا التعليمات أن نمشّط هذه المناطق بحثاً عن الوجود غير الشرعي لتلك المجموعات...

- لا أدري ما أقول لك ياسيدي، يبدو أن تلك الدولة حاكمة العالم تعطي تعليماتها للجميع.. وعليهم أن ينفذوا..

- منذ ذلك التاريخ الحادي عشر من الشهر التاسع عام ٢٠٠١ والعالم انقلب رأساً على عقب، ماذا باستطاعتنا أن نفعل؟ علينا أن ننفذ التعليمات كما تردنا لئلا نتعرض للعقاب.. تلك الدولة دمّرت الكثير من المرافق الحيوية في بلدان عديدة بحجّة الردّ على أعمال إرهابية..

واندفع صوت من مكان مجاور:

- سيدي عثرنا على هذا الشخص، كان مختبئاً بين أوراق النباتات المتطاولة..

كان مشرداً تعيس الحظ:

- لم أفعل شيئاً، أنا أعيش هنا منذ سنوات...

- ولماذا تعيش هنا؟ هل فتشتموه جيداً؟ ألم تعثروا على أية أسلحة معه؟

- إنه مشرد مسكين ألا ترى ثيابه المهلهلة؟

- معك حق.. لماذا تعيش بعيداً عن المدينة يا رجل؟..

- قنبلة أودت بحياة عائلتي كانت مزروعة في حاوية القمامة.. لم يعش أحد منهم بعدها، لا زوجتي ولا أي من أطفالي.. كرهت الحياة، وقد خانني الأقرباء والأصدقاء، وابتعدت عن الجميع، لأعيش مع الحيوانات بعيداً عن غدر الإنسان...

- إلى هذه الدرجة فجعك الناس؟..

- نعم يا سيدي.. أطلب الموت منذ سنوات ويأبى الموت أن يأتي إليّ.. هه.. أطلق النار عليّ يا سيدي لأنتهي من حياة لم أرَ فيها سوى الظلم والتعاسة..

- على رسلك يا رجل.. عد إلى عزلتك، لن أسمح لأحد أن يتسبب لك بالأذى... خلّوا سبيله.. وليعط بعض الطعام والكساء..

علقت سالي على الحديث:

- ذلك الرجل الذي يقودهم يبدو طيباً..

- نعم.. أترين يا سالي يبدو أنّ تغيّراً كبيراً يطرأ على العالم..

- نعم.. نعم يا قاسم.. هل تصفحت صحيفة الأمس جيداً..؟

- لا.. شغلنا الحديث كما تعرفين.. ماذا هناك من أخبار؟..

- ذلك الرجل الذي كان يعطيك التعليمات تبوأ مركزاً مرموقاً في الأمم المتحدة..

- معقول؟ إذن ما زالت المنظمة تسيطر على أوضاعها جيداً..

- بالطبع.. هيا ننزل إلى كهفنا، سأعد لك الإفطار..

- هيّا يا حبيبتي..

كان ذهن قاسم مشغولاً في كيفية الاتصال بأخته زهرة، وقد أحسَّ بشوق كبير إليها وقد طفحت الذكريات في ذهنه عن طفولتهما معاً..

ولحظت سالي شروده الشديد فسألته:

- خير؟ أنت تفكر بأشياء كثيرة، ذهنك يبدو مشغولاً تماماً عن الطعام؟

- آه.. نعم.. أفكّر بطريقة للاتصال بزهرة..

- اعتقدتك تفكر بما تفعله تلك القوة العظمى التي زادت من إحكام سيادتها على العالم، ومدى ما تعانيه الإنسانية من هذا الظلم المتواصل...

- تعلمين كم أشعر بالمرارة والحزن من ذلك، وربما هذا ما يدفعني لمحاولة اللقاء مع أختي زهرة التي ربما لا تسعدني الظروف بلقياها ما دامت الأجواء متوترة إلى هذا الحدّ.. أريد يا سالي أن أتخلص، وأنت من هذه العزلة القاتلة قد نرى طريقة للحياة مع الناس بعيداً عن أذرع الانتقام التي تلاحقنا..

- لنفكر بالأمر معاً، يجب ألاّ تضطرني الظروف إلى الولادة هنا بعيداً عن الحياة.. نعم.. سنفكر بالأمر وندرسه من كافة جوانبه..

ووصلت إليهما أصوات قصف بعيد:

- إنهم يقصفون مناطق معينة.. أيمكن أن يصل قصفهم إلى هذه الغابات والمناطق المعزولة؟ لا أدري ما الذي يشغل فكر هؤلاء الذين ينتقمون من البشرية بشكل غير مفهوم..

- بل إنه حبّ السيطرة والتملك، ونزعة استعباد الناس والتسلط على مقدراتهم.. ليعيش بعض وتمشي الغالبية على هامش خط الحياة..

- سأجهز لك الإفطار ونكمل حديثنا..

- حسناً يا سالي سأتصفح صحيفة الأمس في هذه الفترة..

- تصفحها ولا تحاول أن تتأثر بما تحويه من أخبار ومفاجآت.. الإعلام سلاح ذو حدين..

- يا إلهي أية ظروف غريبة وجدت الإنسانية نفسها فيها؟ إنها تعاني القلق والرعب والخوف المستمر من مفاجآت الغد غير المتوقعة..

(٧)

كانت زهرة بعد أن تسلّم زوجها درع التفوق الجراحي في حفل كبير نظمته نقابة الأطباء، تقدح زناد فكرها، وهي تتأمل مغلف رسالة غامضة وصلت بالبريد العادي وقد كتب اسمها عليها ... وهاني مشغول في لقاء بعض المسؤولين وهي تنتظره في البيت...

كانت حمّى مسحوق (الجمرة الخبيثة) التي تنتقل فيروساتها من خلال الرسائل المغلقة قد أقلقتها، فلم تجرؤ على فتحها.. وانتظرت هي وهاني الصغير عودة زوجها الذي لسوء الحظ تأخّر كثيراً عن موعده المعتاد، بسبب جراحة طارئة إسعافية أوصلته مرهقاً متعباً..

أشفقت زهرة أن تزعجه بقصة المظروف الغامض للرسالة التي لا تحمل اسماً حقيقياً لمرسلها كما خمنت.. ورغم تعب هاني، لحظ توترها فسألها بجديّة..

- زهرة.. أنت متوترة.. خير؟

- لا شيء يا هاني.. قلقت على تأخرك..

- ليست المرّة الأولى التي أتأخر فيها.. تعرفين مفاجآت مهنتي المتعبة.؟

- أعرف.. أعرف أنت متعب... اذهب للنوم أنا بخير..

- زهرة لا تؤجلي ما تريدين قوله لي إلى الغد.. ماذا هناك يا عزيزتي؟..

- ليس هناك شيء.. لا تشغل نفسك بي..

- ماذا يا زهرة؟ قولي لي.. أنت لا تعرفين كيف تخفين ارتباكك.. ماذا جرى؟..

- لا شيء.. لا شيء يا هاني..

- لا تزيدي من تعبي، قولي لي سبب ارتباكك.. تعرفين عنادي؟..

- لا شيء مهم.. رسالة غامضة أتتني في البريد.. مرسلة إليّ.. ولم أعرف مرسلها...

- ألم تفتحيها؟

- بصراحة خفت من فتحها تعرف ما يشاع عن مسحوق الجمرة الخبيثة..

- اجلبيها لي.. سأراها..

وقدمت له الرسالة الغامضة:

- لا تفتحها يا هاني قد تكون موبوءة أنا خائفة..

- لا تقلقي.. هه قلتِ لي لم تعرفي اسم المرسل، إنه مجهول بالنسبة إليك.

- نعم.. (باسم) لم أسمع بهذا الاسم..

- لِمَ لا يكون قاسم.. وهو اسم أخيك.. أرسل إليك رسالة باسم قريب من اسمه

- لم أفكر بهذا الاحتمال، من أين لقاسم أن يعرف عنواني؟ ثم لماذا لا يكتب اسمه صراحة، وهو عالم كبير؟

- اسمعي يا زهرة، قاسم مطارد من قبل منظمة أخطبوطية عمل معها بعض الوقت تحت الضغط، وبعد ذلك تمرّد عليها وخرّب بعض مخططاتها، ثم هرب منها مع أمينة سره.. إنهم مهووسون بالبحث عنه..

- قاسم؟ أخي؟ من أين جاءتك هذه المعلومات؟..

- أنا آسف يا زهرة.. لم أرد أن أزعجك بالحديث عنه.. تعرفين مديحاً صديقي؟ بعد أن خابرتك زوجة قاسم طلبت من مديح أن يستقصي أخباره فقدم لي معلومات كثيرة وصل إليها بمهارته الصحفية...

- يا إلهي؟ قاسم المتفوّق العبقري، أصبح مطارداً، ويعيش معزولاً مختفياً عن الأنظار.. آه كم أنا متشوقة لسماع أخباره..

- هوّني عليك.. سنفتح الرسالة..

- وإن لم تكن من قاسم؟..

- لا تقلقي.. سأفتحها بحذر.. أنا طبيب، وأعرف أخطار الفيروسات القاتلة هذه.

فتحها بهدوء كانت رسالة عاديّة.. كما توقّع:

- إنها من قاسم.. خذي اقرئيها..

- أخي قاسم.. يا إلهي بعد كل هذه السنوات..

«أختي الحبيبة زهرة.. بالمصادفة عثرت على صحيفة فيها صورتك مع هاني، وتمكنت بسهولة من الوصول إلى عنوانك البريدي... أنا بخير، تزوجت من فتاة رائعة، وهي حامل الآن.. أريد أن ألتقي بك بأقرب وقت.. في شوق شديد إليك وإلى هاني.. أعلم أن تساؤلات كثيرة في بالك الآن.. وسأجيبك عنها فور لقائي بكِ.. سأرسل لكِ رسالة أخرى، أحدد فيها موعد اللقاء وطريقته مع حبي لكِ وللدكتور هاني.. ولأولادك ولا أعرف عددهم.. زوجتي تهديك تحياتها وتمنياتها واسلمي لأخيك المحب المشتاق..»

- يبدو أنه سعيد مع زوجته الجديدة.. كان يحب زوجته الراحلة كثيراً، لم أتوقع أن يتزوج بعدها.. ويبدو أن هذه الفتاة فهمت الطريق إليه.. آه كم أنا مشتاقة إلى رؤيته ورؤية أمي.. منذ أكثر من سنة لا أعرف أخبارها أيضاً..

- اهدئي يا زهرة أرجوكِ.. قد يستيقظ هاني الصغير فيخاف من بكائك.. إنه مريض كما تعلمين.. وبحاجة إلى راحة وهدوء..

- حسناً يا هاني.. أتعتقد أنه سيتصل بي قريباً لأتكلم معه بشكل مباشر؟..

- ليس سهلاً عليه أن يتصل، لقد اتصلت زوجته قبل أيام، قلت لكِ: إنه ملاحق من تلك المنظمة الأخطبوطية المخيفة.. إنه يخفي نفسه وزوجته بعيداً عن الأعين.. لا بدّ أنه سيجد الوسيلة المناسبة للاتصال عن طريق رسالة تصلكِ كما فعل عندما أرسل هذه الرسالة... لا تتعجلي، كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله..

(٨)

كان قاسم مرتاحاً للخطوة التي قام بها بإرسال رسالة إلى أخته زهرة وقد صمم في داخله أن يلتقي بها مهما اعترضت سبيله العقبات.. ولحظت سالي أنه أصبح أكثر تفاؤلاً وثقة.. ولم يعد كثير الشرود، مهموماً يطلق تنهيداته باستمرار..

كانا يعتمدان في طعامهما على بعض الخضراوات المتوافرة قريباً من الكهف، وقد أحسنت سالي ابتكار أطباق الخضار المسلوقة والمقلية والطازجة.. كما كانا يعتمدان على بعض المعلبات والمواد التي تحضرها سالي من القرية القريبة.. وبعد أن نفذت المواد التي تعتمد عليها في الطعام، تهيّأت للذهاب إلى القرية..

- لماذا لا أذهب أنا، أنت حامل يا سالي وتحتاجين إلى الراحة، سيتعبك الذهاب للتسوق وحمل الأغراض.. سأذهب أنا عوضاً عنك.. اكتبي لي ما تحتاجينه في ورقة، وسألتزم بإحضارها بدقة..

- سبق أن ناقشنا موضوع ذهابك، أنا امرأة أستطيع التنكر وإسدال النقاب على وجهي دون أن أثير اهتمام أحد.. أما أنت قد يتعرّف بك أحد،

مهما أتقنت من تنكرك.. وهذا أكثر أماناً لنا أن أذهب وأتسوّق، وتظل أنت بعيداً عن الأنظار.. لا مجال للمجازفة يا حبيبي..

- قد تكون الأشياء التي ستحضرينها ثقيلة عليكِ، لا مجال للمغامرة في الحمل الأول..

- لا تقلق من هذه الناحية، سأكتفي بالمواد الضرورية فقط..

- يجب أن تنتبهي جيداً لهذه الناحية... ثم إن وقتاً طويلاً مرّ على اختفائنا، لن ألفت الأنظار كثيراً، إن تنكرت بزي قروي.. سأبقى قريباً منك ولن أقترب إلاّ وقت الحاجة..

- ولكن ذهابك معي قد يشكل خطراً حقيقياً عليك.. بل وعليّ، سأقتل نفسي إن قبضوا عليك.. لن يتركوك حيّاً يا قاسم.. أرجوك أبعد فكرة خروجك من هنا عن ذهنك.. حين يحين الوقت سنخرج سوية..

- اهدئي يا سالي، سأفعل ما تريدين.. يمكنك الذهاب الآن والعودة سريعاً.. وأحضري صحف الأيام الأخيرة.. لنتعرّف على الجديد فيما يجري من حملات عالميّة لحصار الإنسان وتجويعه حتى يصبح عبداً بلا رأي ولا فاعليّة..

- سأحضر كل ما يلزمني.. سأحاول ألاّ أتأخر..

لم يستطع قاسم الصبر، كان يشعر أنه حبيس في قفص يزداد ضيقاً، فما إن خرجت سالي حتى سارع لارتداء اللباس الذي هرب به قبل عام، كان لباساً ريفياً بسيطاً، يتكوّن من غطاء للرأس وعباءة وسروال طويل، وكان مناسباً لتنكره..

لم يضع الوقت فانطلق خلف سالي في طريق الدغل، حتى تمكن من متابعتها وهي تهمّ بالدخول إلى القرية.. استخدم عصاً طويلة كعكاز، وسار خلفها محاذراً أن تنتبه له..

اتجهت سالي صوب سوق القرية الرئيسي، وقاسم يتبعها بصمت..

كان قاسم مصمماً على الاتصال بزهرة بعد أن يطمئن أن سالي سلكت طريق العودة.. لمحها تدخل أكبر مخازن المواد الغذائية، ودخل إلى حجرة الهاتف دون أن يغيب باب المخزن عن عينيه، تردد كثيراً قبل أن يضغط على أزرار أرقام هاتف زهرة.. وصله صوت رنين الهاتف في الطرف الآخر..

ثم سمع صوتها فوجف قلبه:

- آلو.. من يتكلم؟..

سألها مرتبكاً:

- هل الدكتور هاني هنا؟..

- إنه في المستشفى يجري جراحة طارئة.. من المتكلم؟..

- كيف حالك يا زهرة، سأتصل بك فيما بعد لأحدد موعد ومكان اللقاء..

كان قلبه ينبض بعنف وقد سمع صوتها بعد كل هذه السنوات، وأطبق السماعة دون أن يسمع ردّها.. وفجأة لاح له شخص يتمشّى متهادياً وإلى جانبه رجلان كأنهما يأتمران بأمره وحين لمح وجهه انتفض بدنه من الرعب..

إنه (ديراك) سائقه القديم، ماالذي دعاه للوجود في هذا المكان؟ وماذا يفعل هنا؟ هل عرف بأمره وهو يلاحقه.. أم.. يا إله السماوات؟ لعله يلاحق سالي وقد عرفها.. شد غطاء الرأس، ولم يترك سوى عينيه واتجه صوب المخزن الكبير..

كان ديراك يقف قرب الباب، كأنه ينتظر أحداً ما، لعلّه ينتظر خروج سالي ليقبض عليها؟ توجه قاسم صوب باب المخزن، وشدّ عكازته منحنياً، ليمر من أمام ديراك وقلبه يكاد يطفر من الخوف..

ويبدو أن ديراك لم يلقِ بالاً إليه، فدخل المخزن يفتش عن سالي، كانت تقف في الصف لتدفع الحساب وأمامها عربة محمّلة بالأغراض.. اقترب منها بحذر.. وهمس إليها محذراً..

- انتبهي يا سالي.. أنا قاسم.. تصرفي بهدوء.. وابتعدي عن الخروج من الباب الرئيسي (ديراك) ينتظرك في الخارج، يبدو أنه لمحك وسيقبض عليك..

- معقول؟ ماذا تقول يا قاسم؟ يا إلهي ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- اخرجي من باب جانبي.. أنا خائف عليك سأظل قربك..

- لا أعتقد أن أبواباً جانبية يمكن أن تفتح لنا..

- سأستفسر من الموظفين

اقترب من أحدهم كان شاباً صغيراً نصب قاسم قامته وأزاح الغطاء عن جزء من وجهه وهو يسأل:

- أليس هناك باب آخر للخروج؟..

- أعتقد أن كل الأبواب الأخرى مغلقة.. ولماذا تسأل عن باب آخر؟..

- استمع لما أقول لك.. أرجوك.. تزوجت زوجتي رغماً عن أهلها وهي حامل، إن أخاها وبعض أصدقائه ينتظروننا في الخارج قد يقتلونها..

- متأكد من هذه المعلومة؟

- نعم... أرجوك... انظر هناك أمام الباب، ألا ترى ذلك الرجل ومن معه..

تأملهم الشاب ثم قال:

- فعلاً يبدو عليهم الشر.. حسناً سأتحمل المسؤولية، وأفتح لكما الباب الخلفي المقفول.. هل أنهت زوجتك معاملات شرائها..

- نعم.. نعم.. إنها تدفع للخزينة ثمن الأغراض..

- بسرعة أرجوك، يجب أن أعود إلى مكاني هنا، حتى أتابع مراقبتي للناس أنا مختص بأمن الزبائن..

اقترب من سالي يستعجلها:

- هيا يا سالي.. عجلي.. سيفتح لنا الباب الخلفي..

كان مرتبكاً قلقاً همست إليه سالي:

- انتبه لقد كادت كوفيتك أن تسقط ربما عرفك بعض الناس...

- لا عليك المهم أن نهرب من ديراك..

سمع صوتاً نسائياً قربه:

- هه.. يخيل لي أنني أعرفك أيها الرجل.. لقد رأيتك من قبل.. آه..

التفت إليها:

- من تكلمين؟ أنا؟..

- نعم.. نعم.. أنت.. رغم لحيتك أنا أعرفك.. ألستَ سيدي القديم الدكتور قاسم؟ متأكدة أنك هو..

استعجل سالي:

- اخرجي بسرعة يا سالي سألحق بك..

ثم أمسك بيد الموظف الشاب:

- أرجوك هيئ لها سبيل الخروج..

- لا عليك سأساعدك.. لماذا أوقفتك هذه المرأة؟..

- يبدو أن لديها مشكلة، سأحلها وألحق بكما.. لا تنظري إلى الخلف يا سالي حذار... أسرعي خلف الشاب أرجوكِ...

- لا تقلق.. انتبه لنفسك، إنها (هناء) وصيفتك السابقة..

كانت هنا قد لحقت به:

- ألم تعرفني؟ أنا هنا؟ وصيفتك المحبوبة.. هه.. كيف اختفيت كل تلك الفترة، يقلبون الدنيا بحثاً عنك

- ولماذا أنت هنا في هذه البلاد؟..

- لحقت بزوجي (ديراك) أنت تعرفه.. سلموه منصباً هاماً في هذه البلاد..

- ديراك؟ زوجك؟ يا إلهي..

فاجأته بسؤالها:

- مع من كنت تتحادث؟ من تلك المرأة القروية؟..

- إنها إحدى الجارات في المكان الذي أسكنه.. بإذنك

حاول أن يهرب بعيداً أوقفته بقوة:

- ألا تريد أن ترى ديراك زوجي؟ سيكون مسروراً بلقائك..

- أرجوكِ اتركيني أخرج.. أنا متعب ومريض..

- من أين ستخرج؟ ليس هناك سوى مخرج واحد.. تعال نخرج سوية..

- هنا أتوسل إليك، لا تذكري شيئاً عني لديراك، تعلمين أنني مطارد، وأن العثور عليّ يعني الموت..

- لماذا هربت إذن؟ هه.. أنا لا أخفي شيئاً عن زوجي..

أخذت تصرخ منادية.. ديراك.. الذي انتبه واقترب منها:

- نعم يا عزيزتي.. خير؟

- دقق جيداً في هذا الوجه؟.. ألم تعرفه؟..

فوجئ ديراك:

- الدكتور قاسم.. أهلاً.. أهلاً.. أتعبتنا كثيراً يا رجل، قلبنا الدنيا بحثاً عنك.. معقول؟ أنت داهية، يا هنا، اقبضا عليه..

- لا داعي للصخب يا ديراك، سأذهب معكم ولن أحاول الهرب..

اقترب الموظف الشاب:

- ماذا تفعلون لهذا الرجل؟..

قال ديراك ساخراً:

- إنه كنز ثمين بالنسبة إلينا، قبضنا عليه أخيراً...

همس الموظف في أذن قاسم:

- لا تقلق زوجتك في أمان..

ثم ابتعد عنه.. دفعه الرجال أمامهم وديراك يقول:

- سيفرحون كثيراً حين يسمعون نبأ القبض عليك..

سألته هنا:

- أين تلك أمينة السر الهاربة؟

- أية أمينة سر؟

- سالي، أمينة سرك؟ ألم تهرب معك؟

- ماذا تقولين؟ أنا لا أعرف شيئاً عنها... هل هربت أيضاً؟..

- أمامنا وقت طويل من الاستنطاق، سيبوح بكل مافي داخله.. لا تتعجلي يا هنا.. سيلعن الساعة التي ولدته بها أمه.. أراد العبث بمنظمتنا؟ معقول؟ المنظمة التي تحكم العالم ويخدمها معظم حكام العالم وأثرياؤه؟ أمعقول أن تفلت منا كل هذا الوقت؟.. ضعوه في السيارة بسرعة...

(٩)

ومن بعيد كانت سالي المفجوعة تراقب ما يحدث وقلبها ينفطر من الحزن.. لم تعرف ماذا تفعل وكيف ستتصرّف.. فجلست قرب شجرة ضخمة، وقد وضعت أغراضها إلى جانبها وغرقت في بكاء صامت.. وهي في شرودها وغفلتها شعرت بيد توضع فوقها فالتفتت لتجد عجوزاً طاعنة في السن تنظر إليها بعطف وهي تهز رأسها..

- مابك يا ابنتي؟ كأن هموم العالم تربض فوقك..

استجمعت قواها:

- لا شيء... لا شيء..

- بل أنت تعاني من مصيبة كبيرة.. هه أنت في بداية حملك لا داعي أن يتملكك الحزن والهم لهذه الدرجة أين تقيمين يا ابنتي؟..

أقيم بعيداً يا خالة... أصبحت وحيدة الآن..

- لماذا تبكين؟ لماذا أنت وحيدة؟..

- زوجي لم يعد موجوداً...

- هل مات؟ قتله القصف الذي لا يرحم أحداً؟ ما الذي حدث؟..

رددت بيأس وهي تبكي:

- نعم.. نعم.. قتله القصف الذي لا يرحم..

- هيّا معي إلى البيت، أقيم وحدي فقدت أيضاً كل شيء في حياتي.. زوجي، أبنائي.. آه يا صغيرتي ليست الحياة سهلة، وازدادت صعوبة بعدما أصبح الطغيان هو الحاكم في كوكبنا المضطرب، هيا تعالي معي أريد أن أذهب إلى بيتي يا خالة.. شكراً لكِ..

- سترتاحين قليلاً عندي، ثم أرافقك إلى بيتك.. قلت إنه بعيد

- نعم.. نعم.. ولكنّي تعودت على بعده عن القرية..

- لا بأس يا صغيرتي، سأساعدك في حمل الأغراض..

كانت سالي فعلاً بحاجة لتسترد نفسها بعد فجيعتها بالقبض على قاسم.. لذلك تبعت العجوز بصمت.. حتى بيتها القريب، الذي كان أشبه بفيلا منعزلة.. وقد أبدت لها العجوز كل مودة وعطف وهذا ما خفّف من حزنها وقلقها، فبدأت تتمالك نفسها، وتفكر في حاضرها الصعب الذي وجدت نفسها فيه فجأة..

☆ ☆ ☆

قاد ديراك غنيمته إلى مكتبه في المدينة المجاورة، والدنيا لا تكاد تسعه من الفرحة، وكان قاسم قد تقبل أمر اعتقاله بهدوء لدرجة أنه لم يصدّق نفسه.. لقد أوكل أمر سالي إلى الله سبحانه وتعالى، ورجا أن تستطيع التكيّف مع ظروفها الجديدة وتتمكن من الاتصال بزهرة وزوجها..

هذا ما كان يشغله.. وحين جلس أمام ديراك الذي أخذ يستنطقه، كان هادئاً لدرجة أزعجت ديراك..

- أمعقول يا دكتور؟ لست ذاهباً في نزهة.. هه تبدو غير مبالٍ..

- لماذا أبالي؟ ليس من دليل ضدّي، لم أرتكب أي شيء يعرضني للمساءلة والعقاب..

- ولماذا هربت؟ لماذا اختفيت فجأة؟ ومن المسؤول عن كل هذا الخراب الذي حدث في منظمتنا؟ هه.. لا تتذاكى سنعرف كيف نخرج المعلومات التي نريدها منك في الوقت المناسب..

- قل لي يا ديراك.. كيف تزوجت هنا؟ كنت تعتبرها بلهاء..

- اكتشفت فيها أشياء كثيرة.. إنها بارعة بالتدليك، ثم إنها قدمت لنا تقارير كثيرة عنك،.. كانت تحصي عليك أنفاسك.. فوق مراقبتنا الدقيقة لك بأجهزة التصوير والتنصّت..

- لا تملك شيئاً ضدي، لم أفعل شيئاً.. الخوف هو الذي جعلني أهرب..

- الخوف من ماذا؟

- الخوف من أن تعتبروا العمليات التخريبية التي حدثت ذات علاقة بي، وأنا لا أعرف عنها شيئاً..

- لا تتحاذق، نحن نعرف كيف نستخرج منك الحقيقة..

ضغط أحد الأزرار لينبعث صوت هنا:

- ماذا تريد يا عزيزي؟..

- أدخلي نيللي يا هنا.. الفتاة المغناج..

- سأفعل يا حبيبي

فتح الباب آلياً ودخلت تلك الفتاة صارخة الجمال.

- طلبتني؟ أنت هنا يا دكتور؟..

- ماذا طلب منك هذا الشخص حين كان يعمل مديراً لفرعنا هناك؟..

- أعطاني مغلفاً نفذته بالحرف، فأدى ذلك لقتل عدد من أعضاء المنظمة.. هو من أعطاني المغلف..

احتج قاسم:

- أي مغلف، ربما استبدل أحدهم (أوامرك) الحقيقية بذلك المغلف الزائف الذي تسبب فيما تقولينه قتل بعض الناس.. اسمع يا ديراك.. أنا أنصحك وأنت على رأس الفرع هنا، أن تحقق في أسباب الخرق الذي حدث، ومن وراء هذا الخرق؟ وماذا يريد من خلخلة النظام المتماسك في منظمتنا؟ ابحث عن الأعداء الحقيقيين الذين تسببوا أيضاً في ضربي وإبعادي عنكم..

أكدت نيللي:

- أنا استلمت المغلف منك.. وليس من شخص آخر..

قال قاسم:

- ربما أبدلت المغلفات وهي في الطريق إليّ.. ابحثوا عن المسبّب..

قرصته وهي تهمس في أذنه:

- أنا غاضبة منك كثيراً، وعدتني أكثرمن مرة بليلة جميلة نسهر فيها معاً ولم تحقق وعدك.. سأجعلك تتورط أكثر..

توسل إليها:

- أنا آسف، قد أستطيع تحقيق هذا الوعد.. لا تزيدي من عذابي، جمالك لا يمكن أن يكون مدمراً..

- سأرى ما يمكن فعله..

خرجت تهز ردفيها، فقال له ديراك وهو ينظر إليه نظرات غامضة:

- هل نبدأ فعلاً بالتحقيق واستخدام الأجهزة المختلفة التي تكشف الخبايا؟ أم نؤجلك لساعات أخرى؟ مازالت الفتاة تعجبك؟

ردّدَ دون وعي:

- نعم.. نعم..

- قد أترككما معاً.. ربما كان هذا مفيداً لك..

كان قاسم يعلم أن الغرض من عزله مع الفتاة المغناج، استخراج معلومات تحت تأثير المتعة وربما الخدر من الشراب.. ولمح وجه سالي الحزين يتخايل أمامه، فأبعده عنه إشفاقاً عليه.. وهو يقارن بين سالي البريئة البسيطة وهذه الفتاة اللعوب..

ولكن شيئاً حدث عطّل ذلك اللقاء، فقد تلّقى (ديراك) أمراً بتسفيره إلى جهة كانت مجهولة بالنسبة إلى القاسم.. وهكذا وجد نفسه معصوب العينين، يساق إلى سيارة انطلقت تنهب به الأرض، حتى توقفت وعاونه رجلان في السير إلى ما خمّن أنه باب طائرة صغيرة..

مالبثت فعلاً أن ارتفعت به في الأجواء.. وشعر برائحة غريبة تدخل إلى أنفه وتتغلغل في رئتيه، وما لبث أن فقد الوعي..

حين صحا بعد زمن لا يعرف مقداره، رأى نفسه في غرفة ضيقة بها سرير صغير وإبريق من الماء وبالوعة يبدو أنها الوحيدة المخصصة لطرح الفضلات، ولم يكن في الغرفة نافذة.. شعر أن عيوناً تراقبه بواسطة مصوّرات خاصة..

إنهم يحصون عليه أنفاسه أيضاً، ولكن هل يستطيعون التغلغل إلى دماغه، والتقاط تصوراته وأحلامه وخيالاته؟.. كان هذا ما يرهقه.. إنه يعلم أن هذا ليس سهلاً، ولكنه قد لا يكون مستحيلاً عند أولئك الناس الذين وضعوا في خدمتهم أحدث التقنيات المعقدة...

ووظفوا مبدعين بطاقات عقلية جبارة تستنبط المستحيل لتجعله ممكناً.. وكان هو أحدهم في يوم من الأيام.

فتحت ثغرة في الجدار، ونفذ منها رغيف من الخبز وقطعة من الجبن المغلف مع كأس صغير من الماء، ثم أغلقت ولم تظهر آثارها..

لم يكن يشعر بالجوع، ولكن منظر الرغيف أغراه.. فالتقطه وأخذ يتناوله ببطء شديد مضيفاً لكل لقمة قطعة جبن صغيرة.. وفجأة أحسّ أن معدته تنتفخ، وانتبه إلى أن الرغيف مصنوع من عجينة أضيفت إليها مادة تجعل الدقيق ينتفخ كالبالون..

شعر بألم فظيع وبدأ بطنه يكبر، لم يكن قد تناول الكثير من الرغيف وبسبب بطء تناوله للطعام، وصل الانتفاخ حدّاً معيناً تكيّفَ مع ألمه.. ولكنه تظاهر أنه يتقطع من العذاب..

سمع هسيساً وانفتح باب إلى جواره، وهو يتقلب على السرير واندفع من الباب رجلان مقنعان.. حملاه من إبطيه وسحباه إلى عربة دفعاها في ممر طويل.. وغرس أحدهما حقنة في ذراعه، مالبث أن شعر بعدها أنه يغيب عن الوعي..

وحطّت عليه حالة من الهلوسة، رأى نفسه فيها يتقلّب بين أمكنة وأزمنة غامضة، وطالعته صورة أمه المشجعة.. فلفته بسحابة اطمئنان، ثم غاب كل شيء..

(١٠)

في غرفة معتمة وجد نفسه، وليس من بصيص للضوء... كان مرهقاً، يشعر بالخمول وحين بدأ يسترد وعيه، عرف أن رحلة العذاب الحقيقية في حياته قد بدأت...

قبضوا عليه في ظروف استثنائية وكانت التهم كثيرة، والعقوبة ستكون شديدة، أخفّها تنفيذ حكم الإعدام به لوقوفه في وجه تيار القوة الغاشمة..

تنهد بحرقة وهو يتذكر زوجته الحامل، وظروفها الصعبة، وقد وجدت نفسها وحيدة بلا سند، وتمنّى أن تستطيع الوصول إلى أخته، لتعينها في ظروفها الصعبة ...،

استعرض حياته منذ أن كان طفلاً معزولاً، حتى نجاحه في الدراسة وتفوقه، ثم سفره لمتابعة اختصاصه العالي، ثم عودته الدراماتيكية، وتورطه مع تلك المنظمة التي امتدت أذرعها لتطال الكثير من مواقع القرار في الدول...

ثم نجاحه في الهروب منها ولجوئه لكهف منعزل لنحو العامين، ثم سقوطه أخيراً بين براثن جلاديها.. طالعته صورة أمه المتوفاة وهي تشجعه على الصمود في وجه جلاديه... ثم انقطعت الصورة فجأة بانفتاح باب تسرب منه ضوء قوي أعشى عينيه..

- هيّا تحرك.. لجنة التحقيق في انتظارك..

- أشعر بضعف شديد... أريد بعض الماء..

- غير مسموح أن تتناول شيئاً، هيا سأساعدك في السير..

- ولكني أشعر بعطش شديد... أريد الماء..

- طالب اللجنة بذلك، أنا لا أخالف التعليمات.. هيا سأساعدك..

- آه يا إلهي.. أرجو ألاّ يكون مكاناً بعيداً..

- لا.. بضعة أمتار فقط.. إنها لجنة التحقيق التابعة للسجن.. وهناك ممثل للادعاء العام.. وقاضٍ للتحقيق مع مساعديه، وبعض الخبراء الآخرين.. يبدو أنك شديد الأهمية لهم..

لم يكترث قاسم لسخرية الرجل الذي قاده عبر ممر، أنواره شاحبة، حتى توقف أمام باب واسع مفتوح على مصراعيه، حيث استقبله جنديان بعتادهما الكامل.. دفعاه بقوة وهما يفتحان باباً مغلقاً، ليجد نفسه ينكب على وجهه وقد ارتطم رأسه بمكتب خشبي، شعر بعدها بآلام في رأسه...

وميّز الغرفة، كانت مكونة من منضدة ضخمة يجلس خلفها بعض الرجال، وإلى اليمين واليسار مناضد صغيرة يجلس خلفها أناس بوجوه صارمة عابسة..

كانوا يتأملونه جميعاً، وبعضهم يستعرض بعض الأوراق والصور وهو ينظر إليه.. وأخيراً شق الرجل الكهل الذي يجلس في وسط المنضدة الرئيسية، الصمت وهو يقول له:

- اجلس يا دكتور...

- لا أستطيع أن أجلس وحدي أشعر بضعف عام.. هل أنا في محكمة؟..

- أنت في محكمة استثنائية مشكّلة خصيصاً لحالتك.. لديك محامٍ أيضاً..

قال رجل بشارب عريض:

- أنا أمثلك قانونياً هنا يا دكتور..

- ولماذا لم تأتِ إليّ وتراني؟ ألست مدافعاً عني؟ أم إنك محامٍ وضعت لتكتمل شخوص المسرحية..

اعترض القاضي:

- لا يحق لك السخرية من محكمتنا يا دكتور..

- السخرية؟ أنا أسخر منكم؟ في أيديكم قرار إعدامي.. هل أجرؤ على السخرية من أناس بيدهم مصيري وقدري؟...

حسم القاضي الحوار:

- لنبدأ المحكمة يا حضرات.. يبدو أنه كثير الكلام..

- حسناً يا سيدي..

- ماذا ترى أيها المدعي العام؟..

- أرى يا سيدي، أنه رجل خطير استَغلّ منصبه في قتل الناس وتشريد أسرهم، حتى إنه قتل أقرب الناس إليه.. أمه...

شعر قاسم بقلبه ينبض بقوة، وانتفضت عروقه وهو يسمع ذكر أمه التي تسبَّبَ لها بالموت فعلاً بأوامره.. ثم نهض متهالكاً يجلس على المقعد الحديدي المخصص له، وتابع ما يقوله المدعي العام وهو يستعرض التهم الموجهة إليه..

- تسبَّبَ في موت الكثيرين، وفوق ذلك قتل أحد رؤسائه وزوّر تعاليمهم وقراراتهم.. ونجح في إبعاد الشبهة عن نفسه حتى هرب أخيراً.. كل هذا الكلام موثق ومحفوظ.. وهناك صور وتسجيلات تؤكده تماماً

- مادمتم تملكون هذه الأدلة، إذن لم المحاكمة؟..

- نحن لا نحكم سوى بالقانون...

- وأنا أريد أن أرى وهيئة المحكمة هذه الوثائق والتسجيلات.. أنا أعرف أنني لم أفعل شيئاً..

قال المدعي العام بسخرية:

- من الطبيعي أن ترفض التهم، ولكننا نملك كل الأدلة والشهود..

- أظهروها إذن، تريد هيئة المحكمة أن تراها.. أليس كذلك يا سيدي القاضي؟..

قال القاضي:

- هذه قضايا أنا أقررها وليس أنت.. ابدأ بتوجيه أسئلتك إليه يا أستاذ.

- حسناً.. من الذي تسببّ بقتل والدتك يا دكتور؟..

- بيوض الزواحف التي زرعت في المستنقعات والبرك والأماكن الرطبة.. المنظمة التي كنت أنتمي إليها هي من طلبت مني زرعها، أنا نفذت.. وكانت النتيجة أن كبرت الزواحف والبرمائيات وفتكت بالناس وكانت من جملة الضحايا أمي..

أكد المدعي العام:

- هو المسبّب إذن يا سيدي.. هه... سأستعرض لكم تفاصيل ماقام به من أعمال دنيئة.. اسمع أيها المتهم مطلوب منك الإجابة أو النفي، دون الدخول في التفاصيل..

- أنا أرفض كل تهمك، منذ الآن أنا أنفيها بشكلٍ قاطع..

وشوش له المحامي:

- لا تثر هيئة المحكمة يا دكتور، لن يخفف ذلك الحكم عليك بل سيزيدهم تمسكاً بعقابك الشديد.. سأقدم مرافعتي بعد استجوابك..

- يجب أن أدافع عن نفسي، أنا أعلم أن وضعي حرج، ولكني لا أستطيع السكوت.

أكمل المدعي العام:

- وماذا عن قتل المدير المسؤول عن شؤون الأبحاث والدراسات العالية؟

- لا أعرف عن ذلك شيئاً.. ولست مسؤولاً عن ذلك.. قدم لي الدليل على هذه التهمة.. قدّم أدلتك وشهودك..

قال القاضي للمدعي العام:

- أحصِ التهم أولاً، ثم أحضر أدلّتك وشهودك..

- سأفعل يا سيدي..

رفع قاسم يده:

- أيمكن أن أطلب كأساً من الماء، أشعر بوهن شديد..

أشار القاضي للحاجب:

- أعطهِ بعض الماء، نصف كأس يكفيه..

- ولكني أشعر بعطش شديد يا سيدي.. لم أتناول طعاماً ولا شراباً من مدة لا أعرفها.. منذ ذلك الاعتقال الوحشي...

- هذا غير وارد هنا، ولست مضطراً لتصديقه..

أعطه نصف كأس من الماء..

- تابع كلامك أيها المدعي العام وابدأ باستدعاء شهودك إن رغبت..

- سأفعل يا سيدي.. هه.. ماذا عن نشر ذلك المرض الفيروسي في منطقة المزارع؟.. إنها أرقى مناطق العاصمة، حقدك على الناس جعلك تأمر بنشر فيروسات ذات قدرة مُمرضة عالية في تلك المزارع..

- أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك.. ولا أعرف تلك المنطقة التي ذكرتها..

- هذا هو التقرير المستخلص من الحالة الراهنة.. هناك.. وهذه هي الورقة التي وقّع عليها لنشر الفيروسات.. كانت في يده سلطة كبيرة استغلَّها للقتل والتخريب..

- هذا غير صحيح، لم أفعل شيئاً دون أوامر من رؤسائي..

- يبدو أنك صممت على رفض التهم جميعاً.. هه ألم يكسروا هذه الكبرياء الفارغة والصوت الصاخب في تحقيقاتهم معك؟..

- لم يتركوا وسيلة إلاّ واستخدموها في التحقيق، نفخوا بطني بمواد وضعوها في الخبز، ثم وضعوا مواد هلوسة، وحقنوني بحقن تسبب الصداع *وتثير الأعصاب، تأكد أيها القاضي أنهم لم يدخروا جهداً في تعذيبي.. أما هذه* الكبرياء الفارغة كما سميتها والصوت الصاخب، فسببه يعود إلى براءتي.. أنا لست مجرماً.. أنا..

- يكفي.. أحضر شهودك أيها المدعي العام... يبدو أنه مصمم على الإنكار..

- أحضرناهم بالطائرة يا سيدي، إنهم في القاعة المجاورة..

قال بسخرية:

- إلى هذه الدرجة أنتم سريعو الحركة؟ أحضرتموهم إلى هنا؟..

- لا تكثر من تعليقاتك.. لن يعود عليك ذلك بالفائدة.. هه.. ابدأ بتقديم أدلَّة الاتهام.. أريد أن أنتهي منه سريعاً...

- حاضر ياسيدي.. هذا الرجل يا سيدي ارتكب عدة جرائم، الجريمة الواحدة منها تكفي لإعدامه.. وسأبدأ بذكر بعضها وأقرن أقوالي بالأدلة والإثباتات.

- تفضل وحاول أن توجز..

- أخطر الجرائم التي ارتكبها أنه أساء استخدام الأمانة، أمانة السلطة، فحين عهد إليه باستلام موقع هام له علاقة بحياة الناس وتطورهم، له علاقة بالأمن والحماية وحلّ المشكلات الصحيّة المعقدة.. بدأ يرسل الموظفين لتنفيذ عمليات قتل وإبادة وتلويث بيئي، وحاول أن يخرّب علاقات المجموعة التي أعطته ثقتها بدسّ الأوامر الكاذبة وقتل أعضائها وكبار موظفيها.. وأرجو أن تسمح لي يا سيدي بإحضار الشهود..

- حسناً يمكنك تقديم شهود الإثبات..

ونادوا على الشاهد الأول بلقب أمين سر المكتب الإقليمي.. ودخل ديراك، سأله القاضي عن اسمه وعمله وعنوانه والأسئلة الأخرى التقليدية:

- يا سيد ديراك ماذا لديك من قرائن ضد هذا الرجل؟..

- هذا هو ملفه يا سيدي، يمكنك وضع هذا القرص في الحاسوب وتتبع صوره وتحركاته.. الملف يوضح لك كل شيء.. وهذه هي أشرطة (فيديو) عن حياته في الأشهر الأخيرة..

قال المدعي العام:

- سوف نستعرض الأدلّة يا سيدي القاضي.. ونسأل الشاهد بعض الأسئلة..

كان ملّفاً ضخماً حوى اتهامات واضحة، ولم تكن القرائن المقدمة تدين الدكتور قاسم فعلاً، إذ حاول تفنيدهم بتقديم مرافعة مناقضة، لو قدمت لغير تلك المحكمة لاقتنعت بها وبرّأته، واعتبرت التهم ملفقة..

وشاركت (هنا) في شهادتها، وتحدثت طويلاً عن علاقته بسالي، وعن لياليه

الحمر التي كان يقضيها مع نسوة اقتنصهن مستغلاً مركزه.. كان يبدو أنها تحقد عليه كثيراً..

- هذا الرجل كان موظفاً رديئاً استغل مركزه لمتعته الخاصة.. آه ياسيدي كم من نساء مصونات، وزوجات مخلصات، أدخلهن إلى دائرة متعته، رغماً عن أزواجهن وعوائلهن..

- أنا فعلت ذلك؟ معقول؟ ماهي دلائلك يا هنا؟..

قال ديراك:

- زوجتي لا تكذب، وهي تعرف الكثير عنك، كانت وصيفتك الخاصة.

دمدم قاسم بغضب:

- هل أنا ثور هائج أحوي كل هذه القدرة على اقتناص المتعة؟.. ماهذا الكلام المشين؟ تعلمين أن ذلك ليس صحيحاً وهو مخالف للحقيقة..

نهره القاضي:

- اتركِ الشاهدة تكمل شهادتها ولا تقاطعها..

ولكنه احتج:

- لدي محامٍ كما أعلم، لماذا لا يتدخل؟..

قال المحامي:

- هي لا تكذب.. لقد أقسمت اليمين بقول الحقيقة، والتقرير المقدم عنها يؤكد أنها ذات كفاءة ممتازة.

- حتى أنت تقف ضدي والمفروض أن تكون محامياً عني.. تبحث عن براءتي؟

- أنت مدان بعدة جرائم.. ولا منفذ لديك..

تابع القاضي:

- ألديك شهود آخرون؟..

- نعم.. الكثير يا سيدي.. ومن بينهم أقرب الناس إليه..

وأدخل مفيداً صديقه، وشعر قاسم بذهول ماذا فعل لمفيد حتى يشهد ضده؟ كان يعتبره صديق عمره:

- ها أنذا يا سيدي.. إنه مجرم مجرم خطير يا سيدي..

قال قاسم بمرارة:

- أنا؟ كنت أقرب الأصدقاء إلي؟ ماذا فعلت لك؟..

تابع مفيد:

- طلبت منه توظيف ابنتي فطلب مبلغاً كبيراً من المال.. طلب رشوة مني يا سيدي.. ولولا السيد ديراك ما شغلت ابنتي تلك الوظيفة الهامة التي هي تتبوؤها الآن..

- بعتني يا مفيد؟ معقول؟..

خرج مفيد وهو يطرق رأسه متجنباً النظر إلى قاسم، ثم دخل الشاهد التالي الذي شعر قاسم أنه يكاد يتوقف قلبه، وقد رأى أخاه يمشي الهوينى رافعاً رأسه غير مكترث لنظرات قاسم المفجوعة..

حكى أشياء غريبة لم يستطع قاسم أن يصدق أنه قالها..

- منذ طفولته وهو يركض وراء متعته الخاصة، لا يبالي بأحد، يأخذ

ألعابنا ويسرق النقود من والدي، وظلَّ على هذا السلوك المشين حتى سافر إلى تلك البلاد المتطورة ليتابع دراسته.. وحين عاد وتبوأ ذلك المنصب

- أكمل أكمل يا بني.. أنت شاب شجاع لتشهد الحق حتى على أخيك..

- لم يتصل بنا حين عاد، كان والده يبكي من الشوق إليه، رغم معرفته بأخلاقه الفاسدة حتى أمه ماتت، دون أن يكترث بدفنها.. ليتني يا سيدي أحكي لك عن عذاباتها وشوقها إليه، وهو لا يرسل لها الرسائل ولا يكترث بشوقها إليه.. إنه عاق.. لم يفعل شيئاً لعائلته سوى الأذى والضرر..

- سامحك الله.. يبدو أن دمك الفاسد قد سيطر عليك... أهكذا وجهتك زوجتك لتساهم في ذبحي أيضاً؟ شجعه المدعي العام:

- قلتَ أن والدك كان يريد القدوم ليشهد ضده؟

- لولا كبر سنّه لأتى ينعي إليكم هذا الولد العاق..

انهارت مقاومته «آه يا إلهي... أمعقول ما يجري..»

شعر بأنه لم يستطع الوقوف في قفص الاتهام، ورغم محاولته أن يتماسك، إلا أنه سقط أرضاً وقد أحسّ بفجيعته بالناس.. واستمرت المهزلة الغريبة في عرضها، حتى أوقف القاضي المدعي العام عن جلب الشهود، وأصدر أمراً قضائياً بإلباس قاسم اللباس الأحمر، واصطحابه مع متهمين آخرين إلى قاعدة بعيدة، لينضموا إلى ما أطلق عليه لقب مجموعة الإرهاب الدولية...

تلقّى الحكم بهدوء، وقد تأكّد أن الموت سيكون بانتظاره هناك في تلك الجزيرة في المحيط الأطلسي، حيث القاعدة العسكرية التي يشرف عليها جنود شرسون وخبراء عسكريون في التحقيق والتعذيب وسحق الجانب الإنساني من الإنسان...

(١١)

كانت سالي مرهقة متعبة وهي تتمدد في بيت تلك العجوز الغريبة وفكرها مشدود صوب قاسم، ترى ماذا يفعل الآن؟ وهل هو يتعرض للتعذيب؟ أم إنهم قتلوه ونفذوا فيه حكمهم القاسي؟..

انفجرت تبكي حين ورد لها هذا الخاطر.. شعرت أن عليها أن تعود إلى الكهف لتتقوقع على نفسها وتبكي وتحاول مداواة جروحها بعيداً عن الناس من أجل ذلك الكائن البريء الذي يتحرك في بطنها..

حاولت العجوز أن تثنيها عن عزمها على الرحيل، ورجتها أن تتحلّى بالصبر وتثق بقدرة الله سبحانه وتعالى على مد يد العون لها وانتشالها من مأساتها..

- يكفيك حزناً يا ابنتي، هذا يؤثر على الجنين.. كيف لي أن أساعدك؟..

- يجب أن أذهب يا خالة..

- لن أتركك وأنتِ في هذه الحالة الصعبة.. حدثيني بأمرك.. أنا لا أعرف سبب هذا الحزن المفجع الذي يظهر عليك؟ هل مات زوجك الآن؟ أم أنتِ فقدته منذ زمن؟ أنا وحيدة مثلك، ليس لي أحد أيضاً، لِمَ لا تفتحين قلبك لي؟ خائفة مني؟ أنا في مقام أمك...

- يا خالة.. حكايتي لا تصدّق.. كيف انتهت هذه النهاية المفجعة؟ لا أعرف.. صحوت فجأة على كابوس سحب مني زوجي إلى المجهول..

- افتحي قلبك ياابنتي.. تكلّمي.. قد أستطيع عونك..

حكت لها شيئاً من قصتها وقاسم، ورجتها أن تساعدها في الوصول إلى أخت زوجها، إلى زهرة، زهرة التي كان قاسم يتوق إلى لقائها... ثم استأذنتها بالذهاب إلى مكان إقامتها لجمع أشيائها والعودة..

شعرت أن تلك المرأة المسنّة صادقة الطويّة، شاركتها في همومها وقلقها، وقد عرفت أن مصيبتها لا تقلّ عن مصيبتها نفسها.. ورغم محاولات العجوز الذهاب معها لجمع أشيائها كما قالت إلا أنها صممت أن تذهب وحيدة إلى ذلك الكهف المنعزل...

لم تشعر بالخوف وهي تجتاز الدغل رغم أن الشمس قاربت على المغيب، ولم تكن تحمل سوى القليل من الأغراض، وحين وصلت كانت الظلمة قد اشتدت.. ولمعرفتها بتفاصيل الكهف وصلت إلى مكان مصباح الجيب الذي كان قاسم يستعمله..

لم تشأ إشعال النار رغم شعورها بالبرودة.. وإنما لفّت نفسها ببطانية من الصوف، وجلست على الفراش المرتفع قليلاً وشردت تفكر بواقعها.. ثم انفجرت تبكي وقد أيقنت أن قاسماً ذهب إلى غير رجعة..

ظلّت شاردة وقد كثرت عليها الهموم، قطع عليها شرودها صوت زمجرة لوحش يبدو أنه دخل الكهف، انتبهت إلى أنها لم تشعل النار كعادتها وقاسم..

مدّت يدها إلى مصباح الجيب قربها، تشعله وتسلط ضوءه صوب المدخل فرأت فهداً مرقطاً يقترب منها.. ويبدو أن النور أعشاه فوقف متجمداً ثم دار على عقبيه وانطلق هارباً..

استنفرت حواسها وجمعت بعض الحطب على ضوء المصباح ثم أشعلت النار وجلست قربها وهي تتدثر ببطانيتها.. وعاد إليها شرودها، ورغم تعبها وإرهاقها ظلّت قلقة حتى ظهرت أولى تباشير الفجر..

كان عليها أن تعود إلى البلدة ومعها صرتها، لترى ما قامت به العجوز من محاولات للاتصال بزهرة، تمهيداً لذهابها إليها.. كان عليها أن تجتاز حدود البلدة في منطقة خالية من المراقبة، ثم تستقل سيارة تقلها إلى مكان إقامة زهرة...

وصلت دار العجوز ووقفت أمام مدخل الحديقة... مترددة، رأت بعض الناس يقفون بحذر وعيونهم على الطريق، فشعرت أن أحداً يحصي أنفاسها، فتابعت سيرها دون أن تصل إلى الباب وتفتحه.. كان الخوف قد أخذ منها كل مأخذ، ولم تعد تدري ما تفعل...

رأت سيارات الشرطة والأمن تقف بعيداً، ورأت كأن رجالاً عابسي الوجوه يحيطون بدار العجوز.. وازداد عددهم، وبعد فترة، خرج بعضهم وهم يدفعون العجوز التي بدت منهكة بائسة.. وقد قيدت يداها..

وقفت سالي تتأمل المشهد البائس عن بعد، كان الناس قد بدؤوا يتجمعون، وهم ينظرون بفضول صوب تجمع الشرطة حول العجوز، استغلّت سالي توافد الناس واندسّت بينهم وحالما وصلت العجوز إلى نقطة قريبة منها، رمقتها بعينين دامعتين بنظرة سريعة، ثم تابعت طريقها مرفوعة الرأس...

تهامست سالي تستفهم من الناس..

- لماذا يقيدون هذه المسكينة؟ ماذا فعلت؟..

- يقال: إن لها علاقة بالإرهابيين..

- أي إرهابيين؟ إنها امرأة بائسة متقدمة في السن..

- هكذا قال عنها رجال الأمن.. ربما كان لها ولد أو قريب يعمل معهم؟ من يدري؟..

شعرت سالي بالحزن على هذه المرأة النبيلة، واتجهت تمشي بعيداً عن الزحام فسمعت صياحاً خلفها، كانت هناك امرأة تركض في اتجاهها كانت تضع نقاباً فوق وجهها:

- انتظري يا سيدة.. لدي أمانة لك..

- أنا؟ أمانة؟

- ألا تتذكرين؟ أنا الخادمة التي تعمل عند تلك المرأة الطيبة..

رفعت النقاب عن وجهها:

- انظري إليّ جيداً؟

- آه عرفتك.. ماذا تريدين مني؟..

- لنبتعد قليلاً عن المنطقة.. لا أستطيع العودة إلى الدار، ختموها بالشمع الأحمر..

- مسكينة سيدتك... ماذا فعلت؟..

- لم تفعل شيئاً.. أراد أحد تجار العقارات شراء الدار لأنها في منطقة قريبة من الأسواق، حاول إغراءها بالمال ولكنها رفضت.. ثم لفق لها تهمة إيواء خارجين عن القانون، وأحضر شهوداً للشهادة ضدها، شهود زور.. قاتلهم الله..

فكرت سالي متنهدة كأن ذهابها إلى الكهف أمس، قد أنقذها من الوقوع بين أيديهم..

- طلبت مني سيدتي مرافقتك إلى حدود العاصمة.. وأعطتني هذا المظروف لأسلمه لك لحظة افتراقي عنك، لدينا سيارة تقف في الساحة الخلفية، وسائقها ينتظرنا ليقلنا إلى هناك.. تفضلي..

وصلا إلى السيارة، كان سائقها رجلاً كهلاً ينتظرهما.. وضع صرّة سالي في حقيبة فارغة، كان يحتفظ بها بعناية.. ثم انطلق دون أن يتبادل معهما الكلام.. وخارج حدود البلدة أوقفته دوريات عديدة، ولكنه اجتازها، وهو يهمس للمشرفين عليها بكلمات لم تستطع سالي سماعها.. أو فهمها..

وحين وصل حدود العاصمة لم يتوقف كما كانت سالي تتوقع.. قالت الخادمة العجوز:

- هل تريد أن تدخل العاصمة... الدوريات كثيرة أيضاً..

- وسأجتاز هذه الدوريات حتى أدخل قلب المدينة..

- ألا يشكل ذلك خطراً على السيدة؟..

- لا تقلقي كل شيء مدروس بدقة.. كما نجحنا في عبور مناطق الدوريات الأخرى سنعبر بإذن الله الدوريات المقبلة.. طلبت مني السيدة أن أوصلك إلى منطقة آمنة، ولن أتأخر في تنفيذ هذا الطلب..

- بارك الله فيك..

توقفت السيارة على بعد من الحاجز الذي يقف فيه كثير من رجال الأمن.. كان حاجزاً مكهرباً... نقطة الدخول الرئيسية للعاصمة..

أشار إليهما أن يغطيا نصف وجهيهما.. وحين وصل الحاجز المكهرب تأملهما بعض الرجال الذين كانوا يحملون صوراً.. ثم طلبوا من سالي النزول..

وهمس لهم السائق بعبارات، كانت كافية لأن يتراجعوا عن طلب إنزالها من السيارة.. والسماح للسيارة باجتياز الحاجز بأمان..

وهكذا تمكن السائق من النفوذ من الحواجز جميعها.. وحين أصبحوا في أمان التفت صوب سالي يودعها..

- في رعاية الله يا سيدتي.. ألم تعرفيني؟..

نظرت إليه مصعوقة كان أحد الرجال الذين يعملون تحت إمرتها في مكتب قاسم القديم:

- أنت؟ ماذا تفعل هنا؟..

- أنا مازلت أقدم خدماتي لهم.. وكلمتي مسموعة.. أنا أعمل مع السيد ديراك أقدم تقاريري عن الناس، وعن أعضاء المظمة المنتشرين في مستويات عمل بسيطة.. لا تقلقي يا سيدتي.. قُدِّمَ تقريرٌ عنك قبل عامين.. يفيد بأنك انتهيت بحادثة سيارة.. كانت تسوقها سيدة تشبهك.. وقد أقفل ملفك تماماً عندهم.. رغم أن (ديراك) مازال يعتقد أنك حيّة، هو وزوجته (هنا)، ويتمنى أن يثبت صحة اعتقاده هذا بالعثور عليك، لذلك مازالوا يعممون صورتك وأوصافك على كل الدوريات..

- ولماذا أنقذتني؟ كان من الممكن تسليمي ونيل جائزة وربما منصب جديد..

- أبعد كل ما فعلته لي من عون، يمكن أن أخونك؟ لا لن أفعل ذلك أبداً، أنتِ إنسانة قلَّ نظيرها..

- قد يكتشفون أنك ساعدتني وتعاقب؟...

- حتى لو حدث ذلك، وهذا افتراض من الصعب أن يتحقق، فلن أندم على عوني لكِ ما حييت... أنا لن أنسى وقوفك إلى جانبي وجانب أسرتي، في وقت لم أجد أحداً إلى جانبي حتى من أقرب الناس إليّ..

- بارك الله فيك..

-أصبحت المنطقة آمنة هنا... يمكنك التنقل بحرية.. سأوقف لك سيارة أجرة..

قالت الخادمة وهي تقدم لها مظروفاً..

- وهذا هو المغلّف الذي طلبت مني سيدتي تسليمه إليكِ، إنه يحوي رسالة

ومبلغاً من المال... تفضلي في رعاية الله يا سيدتي... ضمتها إلى صدرها وهي تبكي، ولوّح لها السائق مودعاً..

كان المغلف يحوي مبلغاً كبيراً من المال ورسالة قصيرة كتبتها العجوز لها، متمنية لها التوفيق في حياتها الجديدة، وآملة أن يعود إليها زوجها وقد أسقطت عنه كل التهم..

دمعت عينا سالي وهي تتذكر وقوف تلك المرأة الطيبة معها.. ثم كيف سيقت إلى السجن بتهمة ملفقة من قبل ثري جشع أراد الاستيلاء على دارها عنوة.. بعد دقائق توقفت السيارة أمام بناء بطوابق عديدة.. كانت زهرة تسكن إحدى طوابقه.. نقدت سالي السائق أجرته.. وحملت حقيبتها ودخلت البناء، واستقلّت المصعد الخالي حتى الطابق العاشر.. وحين فتح بابه اندفعت خارجة تنظر حولها.. فإذا بسيدة لها وجه سمح يشبه إلى حد كبير وجه زوجها، تندفع إليها مرحبة..

- حمداً لله على سلامتك.. تفضلي.. إن شاء الله لن تطول غيبة قاسم..

- قاسم؟.. إنه الآن في دائرة الخطر، الدائرة القاتلة..

- ماذا تقولين؟ ألن يلحق بك بعد أيام؟..

- لقد قبضوا عليه، ويعلم الله أين هو الآن...

- لا... لا... يا إلهي..

حكت لها سالي كل شيء.. وزهرة لم تنقطع عن البكاء.. حتى أيقظها رنين جرس الباب الخارجي، وعودة هاني الصغير من المدرسة.. تمالكت نفسها وعرّفته بزوجة خاله الغائب.. فاندفع إليها معانقاً، وهو يسألها عن خاله وعن عمله..

وهي تجيب عن أسئلته الملحّة متهربة من الحديث عن قاسم... وحين عاد الدكتور هاني من عمله، استقبلها بترحاب بالغ، وطلب منها أن تستريح، فالتعب وبذل الجهد والقلق والحزن ليسوا في صالح جنينها..

كان يعرف أنهم قبضوا على قاسم، وأنهم أرسلوه إلى تلك القاعدة البعيدة في طرف العالم... ولم يشأ إزعاج زهرة بتلك الأخبار المؤلمة... ويبدو أن سالي حكت لزهرة مالم يجرؤ هاني على قوله...

(١٢)

كان قاسم في ذلك الوقت يعاني من وحدته في زنزانته الانفرادية.. كانت زنزانة ضيقة بأثاث فقير، وكان يائساً ينتظر عقوبة الموت به، وقد ارتدى اللباس الأحمر كبقيّة المساجين.. بعد أن أفهمه المشرفون على السجن أن ارتداء ذلك اللباس يعني أن تنفيذ حكم الإعدام ليس بعيداً..

كانت المحكمة قد أدانته بعدة تهم، أقلها كان الإعدام بالكرسي الكهربائي.. وبعد وصوله إلى الجزيرة بيومين سمحوا له بالخروج للتنفس في منطقة تطل على البحر ومحاطة بالسياج المكهرب..

رأى حوله العديد من المساجين الذين يرتدون اللباس الأحمر كلباس موحّد للجميع، كأنهم بلا استثناء ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام الجماعي بهم..

كانت مشاهد المساجين قد زادت من كآبته، وقد رأى صور التعذيب بادية على وجوههم وأطرافهم.. وهم يجرون سلاسلهم الثقيلة وينظرون حولهم نظرات خابية كسيرة، خالية من أي تعبير عن الإحساس بالحياة.

أشباه موتى يتحركون، يعرجون، يحنون ظهورهم، لا يتبادلون الكلام، الذي يبدو أنه ممنوع عليهم.. وهذا ما تأكد منه قاسم حين حاول فتح الحديث

مع سجين كهل كان يجلس على صخرة متأملاً البحر الواسع الذي يذكّره بالحرية اللامحدودة..

- يذكرك البحر بالحرية.. هه؟

- اسكت.. ولا تلتفت إليّ، الكلام ممنوع، سيعاقبوننا إن اكتشفوا أننا نتكلم..

- حسناً سآخذ حذري..

- تعوّد أن تتكلم دون أن تحرّك شفتيك..

- من أين أنت؟ توقعتك من بلد عربي؟..

- أنا عربي فعلاً، ولكني عشت حياتي تقريباً في تلك الدولة المتطورة التي تحتجزنا هنا، كقطيع يساق للذبح..

- وماذا كنت تعمل؟..

- أنا طبيب.. كنت مسؤولاً عن قسم الجراحة في أضخم المستشفيات في عاصمة تلك الدولة..

- ولماذا أنت هنا؟..

- لفقوا لي تهمة مساعدة الإرهابيين وعلاج بعض جرحاهم.. التهم جاهزة هنا..

- والآخرون ماذا يفعلون؟..

- إنهم من أماكن شتّى، قبض عليهم في الحرب الأولى لتلك الدولة ضد ما تسميه بالخروج على الشرعيّة.. مساكين إنهم يستخدمونهم الآن كفئران تجارب.. انتبه.. هناك جندي قادم إلينا... ليبتعد بعضنا عن بعض، قد أراك في الموعد التالي للتنفس، إذا لم يحدث لأحدٍ منا طارئ..

أعيد إلى الزنزانة ثم أتى من يسحب منه دماً، وأتى أيضاً من أعطاه حقنة مخدرة نام بعدها لعدة ساعات، وحين صحا وجد نفسه في سرير طبي وقربه ممرضة وطبيب، لم يتبادلا معه الحديث رغم محاولته..

أدخله الطبيب في نفق جهاز ضخم، للرنين المغناطيسي.. وبعد دقائق، أغمضت عيناه، وشعر أنهم ينقلونه على سرير متحرك، ثم غاب عن الوعي..

صحا فوجد نفسه في زنزانته، وشعر بالألم في بطنه.. مدَّ يده يتحسسه وليبحث عن أثر لجرح توقع أنهم فتحوه لاستئصال أحد أعضائه كعادتهم في معاملة المحكوم عليهم بالإعدام..

لم يستطع العثور على جرح أو ثقب في جسمه، وبدأ يستعيد قوته بعد أن خفّت آلامه.. طالعه وجه سالي بعينيها الدامعتين وهي تبتسم مشجعة، فشعر بغصة تكاد تخنقه.. ثم غرق في بكاء صامت.. لم يتوقف إلاّ بعد أن غفا مرهقاً محبطاً..

صحا على صوت الباب ينفتح، واقتاده أحد الجنود بصمت إلى ممر طويل مالبث أن ازداد ضيقاً، ثم استلمه جندي آخر وأدخله إلى غرفة ضيقة، بها آلات وسلاسل معلقة، وقف فيها جنديان مقنعان، وإلى جانبهما مكتب صغير جلس خلفه رجل صارم القسمات...

- قيل لنا: إنك تحمل اختصاصاً عالياً وكنت متفوقاً في عملك العلمي؟..

- كنت.. أما الآن فأنا لا شيء.. لم يفدني علمي شيئاً..

- قد يفيدك فيما لو تعاونت معنا؟..

- أن أتعاون معكم؟ هل أنا مخيّر في ذلك؟.. ماذا تريدون مني بالضبط؟..

- يمكننا تخفيف الحكم عنك فيما لو تعاونت..

- ممنوع هذا التعاون؟..

- سنترك لك حرية الاختلاط بالسجناء وغالبيتهم من أبناء جلدتك.. حنـ بهم وقدم لنا تقارير عن حيواتهم وأفكارهم..

- تجسس عليهم؟..

- تتجسس عليهم؟ نحن نعرف كل شيء عنهم، ولكننا نريد أن نتأكد من معلوماتنا..

- المطلوب مني؟

- تصادق معهم، وقدّم لنا تقارير مفصلة عنهم، سنزودك بالتعليمات اللازمة لذلك.. نريد موافقتك أولاً..

بكر متردداً.. «إنه عمل قذر.. ولكنه قد يؤخر موتي قليلاً؟..»..

- هه؟ قبلت؟..

- ألا تعطيني مهلة؟..

- بالطبع لا.. إن رفضت سنسرّع في إعدامك..

- حسناً... حسناً.. اتفقنا.. ولكن ماهي التعليمات؟..

- ستعرف كل شيء بالتفصيل..

عادوه إلى الزنزانة.. وبدؤوا يغيرون قليلاً من معاملتهم له... وحين التقى ـــث الرجل مرّة ثانية، وأعطاه بعض التفاصيل عن المعلومات التي يرغبها ـ المساجين رأى فيها معلومات تافهة، ولم يجد فيها ما يمنعه أخلاقياً من محاولة الحصول عليها..

وهكذا بدأ يتصادق مع المساجين، ويتعرّف أسرارهم، وأعطته الحريّة

البسيطة التي يتمتع بها في السجن، الفرصة للنفوذ إلى العالم المخيف الذي يعيشه أولئك المساكين الذين يستخدمون كفئران تجارب، تطبق عليهم النظريات وتستأصل بعض أعضائهم..

وتزرع الجراثيم والفيروسات بينهم، لتجربة أدوية معينة.. بل إن بعضهم يستخدم كعينة هامة في تطبيق بعض أفكار الاستنساخ والهندسة الوراثية واللعب بالجينات.. أسرار كثيرة بدأ يتعرّفها....أسرار مذهلة، عن عالم محكوم بالرعب.. دون أية نزعة إنسانية...

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

صور مهشّمة في دائرة الموت

(١)

لم يكن قاسم يعتقد أنه سيقيم في تلك القاعدة العسكرية طويلاً، إذ إن أعداد المساجين كانت تتقلص فيها، وقد تبادل الحديث مع أحد السجناء، قرب البحر، دون أن يحركا شفاهيهما... وعرف منه معلومات أرجفته...

- إنهم يصنفون الناس هنا... قسم سيلحقونهم بالمخابر السريّة هنا، وقد بدؤوا ببناء بعضها، وقسم سيصحبون عينات لتجارب غريبة، لا نعرف نتائجها، أما القسم الباقي فسيرسلون إلى قاعدة (غوانتانامو)...

- وماذا سيفعلون بأولئك الناس في المخابر السريّة؟..

- لا أدري... ربما يستأصلون بعض أعضائهم، ويجرون عليهم اختبارات مجهولة لا نعرف عنها شيئاً..

- والذين سيصبحون عينات مخبرية؟

- ربما أصبحوا فئران تجارب بشريّة.. تعلم خطورة هذه التجارب، أدوية، فيروسات، سموماً، كيماويات وغير ذلك...

- لم أسمع من قبل بقاعدة (غوانتانامو)؟..

- إنها قاعدة في كوبا تملكها القوة العظمى منذ نحو مئة سنة... لقد جهزوا هذه القاعدة لاستقبال السجناء...

- قالوا لنا: إنهم مقبلون على تنفيذ أحكام الإعدام بنا...

- لا يعلم سوى الله ما ينتظرنا..

اقترب أحد الحرّاس منهما فسكتا متظاهرين بتأمل البحر، قال الحارس لقاسم:

- هيا معي... انتهت فترة تنفسك... سيراك الرئيس...

قاده إلى قبو فيه ردهات ودهاليز حيث أوصله إلى غرفة قليلة الضوء، ثم أشار إليه بالجلوس على كرسي منخفض فلم تسعفه القيود بالحركة، فوقع على الأرض، تهيأ الجندي لضربه فقال له سيده:

- أجلسه بنفسك ألا ترى أن السلاسل تعرقل نهوضه؟..

ساعده الجندي للجلوس:

- هه.. ماهي آخر معلوماتك؟ ماذا قال لك السجين الذي كنت تقف معه؟

- لم يتبادل معي الكلام رغم محاولاتي...

- متأكد من ذلك...

ضغط على زر إلى جانبه لينبعث صوت المسجّل وهو يعيد حديثه مع ذلك الرجل:

- أتعتقد أننا لا نعرف ألاعيبكم؟ أنت تروي لنا المعلومات التي ترغب بإيصالها إلينا، وليست المعلومات الحقيقيّة التي تحصل عليها...

- أنا لم أصدّق ما قاله لذلك لم أحكه لكم.؟

- ألم نتفق أن تحكي لنا كل شيء؟.. أنت تخون اتفاقنا منذ أن بدأناه... يبدو أنك ستمر بكل المراحل التي ذكرها لك ذلك الرجل...

- لم أفهم يا سيدي...

- ستزور مخابرنا السريّة، ثم ستصبح بعد ذلك فأر اختبار، وإن بقيت حيّاً سنرسلك إلى (غوانتانامو).

أعطى أمره لجندي آخر يقف خلف أجهزة داخليّة:

- ثبّت الأشرطة على رأسه وصدره.. وصلْها بالكهرباء...

- في الحال يا سيدي...

تعرّض قاسم لعذاب شديد.. والصعقات الكهربائية تتالت عليه.. ثم أوقفها ذلك الرجل خشن المظهر بنفسه وهو يقول له:

- إنها صدمات بسيطة، نريدك أن تستمر في رحلتك، وأنت على ما يرام، قد تكون ذا فائدة كبيرة في مخابرنا..

ثم أعطى أمره للجندي الأول:

- خذه إلى زنزانته وأعطه بعض الشراب المقوّي، سيمر عليه الطبيب ليقيس مدى استعداده للالتحاق بالمخبر بعد نحو الساعة.. لا تكن فظاً معه.. ساعده في سيره..

- حسناً يا سيدي..

سار متهالكاً والرجل يسنده قليلاً، حتى هبط زنزانته المنفردة، حيث أجلسه الحارس على أرض الزنزانة وفك قيد يديه ورجليه.. وأغلق الباب عليه.. وتركه في ظلام دامس..

كان قاسم منهكاً يشعر بتعب فظيع.. وقد انحلّت أعصابه لدرجة الخدر..... تمدد على أرض الزنزانة الباردة، وقد أنعشته برودتها قليلاً، وغامت عيناه بالدموع، لم يتمنَّ الموت في حياته كما تمناه في تلك اللحظات... شعر أن

كبرياءه قد انكسرت تماماً، وأن بقايا الإنسان فيه غير قادرة على التجمع... طالعه وجه سالي الحزين فغرق في بكاء مرير... ولم يدرِ كيف غفا.. صرّ باب الزنزانة وطالعه ضوء كشاف أعشى عينيه.

- تناول هذا الشراب هيّا..

قال متألماً:

- ظهري متيبس لا أستطيع النهوض.. آه..

- هل تريدني أن أضربك.. هيا انهض..

- أنا لا أستطيع النهوض.. إذا رغبت في ضربي فافعل ما تشاء، لن يستطيع الضرب إنهاضي من رقدتي..

رفسه برجله فلم يتحرك، وبعد لحظات أقبل بعض الناس من بينهم طبيب عاين حالته، ثم سلّط الكشّاف عليه وبدأ بفحص عينيه وفمه وصدره ثم قال لمن معه:

- يحتاج لنقله إلى المركز الطبّي، ضعوه على نقالة وخذوه إلى هناك..

حملوه على نقالة، واجتازوا به ممرّات مظلمة، ومداخل، ثم أصعدوه في سيارة سريعة، خلال دقائق وجد نفسه داخل غرفة اختبارات وقد تجمع حوله الأطباء والجراحون...

أعطي حقنة وريديّة فقد الوعي على أثرها، شعر أنه يخترق عوالم، ويطير محلقاً فوق بلدان ومدن وقرى تقصف بأعتى آلات الدمار، ووجه ذئب سمين بكرشه المترهل، يشير بيديه نحو الناس الذين تحصدهم القنابل والانفجارات..

رأى جثثاً مشوّهة المعالم، وجنوداً قذرين يرتكبون أفعالاً غاية في الوحشية يبقرون البطون يفقؤون الأعين يعتدون على حرمات الإنسان، والجثث المشوّهة في كل مكان...

صرخات استغاثة، نداءات موجعة تكاد تلتف حوله حتى تغطي كل شيء.. ويكتشف أن الضحايا، إخوته وأقرباؤه وأصدقاؤه، وتمتد المجازر تغطي على كل شيء.. وفجأة يستيقظ فيجد نفسه في غرفة بها أجهزة طبيّة متطورة... رأى ممرضة عجوزاً تنظر إليه، وقربها طبيب كهل.. كان منشغلاً بفك يده عن الجهاز الضخم.. وفهم شيئاً من حوارهما..

- هل اجتاز فعلاً مرحلة الخطر، كأنني رأيته يفتح عينيه ثم يغلقهما..

- أعتقد أنه اجتاز مرحلة الخطر فعلاً..

- هل سيتمكن من الحياة، بعد عمليّة الاستئصال تلك؟..

- ستؤثر عليه بعض الوقت، ولكن جسمه سرعان ما سيتكيّف مع الوضع الجديد... أعتقد أنهم بالغوا في استئصال الأعضاء منه...

- ربما كان محظوظاً أمام المساجين الآخرين.. لم يخضع لتجارب اختبار سميّة بعض العناصر، أو لزرع فيروسات.. أو لإعطائه حقناً أو أدوية في مناطق حسّاسة من جسمه...

- معك حق.. ولكنه كان عالماً معروفاً، له إنجازات علمية كبيرة.. ولا أدري ما دعاهم لإحضاره إلى هنا... كأنه ارتكب جرماً عظيماً... لسبب نجهله.. وإن كنت أعتقد أنها الاثنينية التي نتعامل فيها مع الغرباء، بعد أن نستنفذ منهم طاقتهم..

كان قاسم في تلك اللحظات يشعر بآلام فظيعة في بطنه لم يدرِ ما فعل معه أولئك الناس؟

- استيقظت؟ ستعيد إليك المقويات عافيتك.. أنت تتألم سأعطيك حقنة مسكّنة بعد دقائق..

- يبدو زائغ البصر، هل يسمعك جيداً؟..

- أعتقد ذلك.. أين موضع الألم، أتستطيع أن تخبرني؟..

- بطني، كأن آلاف السكاكين تقطّعه...

- سيزول الألم بالتدريج مع المسكّنات... لا تقلق..

- أقلق؟ تشفق عليّ من القلق؟.. يعلم الله ما فعلتم بي، وأية أعضاء استأصلتموها مني؟ وما الذي بقي مني حتى أحيا؟..

- وماذا باستطاعتنا أن نفعل لك؟ نحن عسكريون، وننفذ الأوامر، ولا يهمنا نوع هذه الأوامر، نحن ننفذها دون أن نعترض عليها..

(٢)

تعرّض قاسم لحالات من الهلوسة عدة ساعات، وحين استيقظ وجد نفسه في زنزانة فيها ضوء خفيف، وقربه بعض الطعام والشراب...

كان يشعر بالغثيان والدوار، ورغم جوعه لم يستطع الاقتراب من الطعام كان منهكاً تماماً، وقد تأكّد أنهم أجروا على جسده الكثير من التجارب...

عاد النعاس والخدر إليه، ثم صحا على يد تهزه بقسوة.. كان هناك جنديان قال له أحدهما بغلظة:

- هيّا سنأخذك إلى المختبر...

- ألا تجده بمشقة يتحرك.. لنضعه على نقالة ونحمله..

- يجب أن يسير وحده، هيا انهض..

صرخ به قاسم والألم يعتصره:

- لا تدفعني، لن أستطيع السير.. ولو قتلتني، ليست بي القدرة على النهوض..

- لِمَ لم تأكل من هذا الطعام، كان سيقويك؟

- ألا ترى جسده المتهالك، لا يستطيع.. ساعدني لنضعه على النقالة... هيّا..

وضعاه فوق سرير ضمن غرفة مليئة بالأجهزة.. وسمع حواراً بين شخصين اقشعرّ منه بدنه.. كان الحوار يدور حول التجربة التي يزمعون تطبيقها عليه..

- سنحقنه بالبريونات المعدية، ونرى تأثيرها فيه، قبل أن نحقنه بالترياق الذي نجرب فاعليته..

- يا دكتورة، إنه متعب من الصعب أن نجرّب عليه البريونات المعدية، قد تصل إلى الدماغ وتقتله قبل أن يوقفها الترياق الذي استنبطناه..

- إنها تجربة مثيرة يا دكتور.. وقد ننجح في القضاء على جنون البقر الذي ينتقل للناس، ونحقق نتائج مذهلة على الصعيد العالمي.. حتى وزارة الدفاع ستمنحنا جوائز كبيرة، وربما نلنا على البحث (جائزة نوبل)..

- هذا إذا نجحنا ..، الأفضل ألاّ نجرّب (البريونات) المعدية على هذا السجين.. إنه متهالك، وربما أخضع لتجارب أخرى قبلنا..

عاينته المرأة بدقة ثم قالت:

- أنا معك يا دكتور.. هذا السجين في وضع منهار، ربما سيموت إن أجريت عليه اختبارات أخرى، لن يستطيع أن يقاوم..

- إذن سنجري التجربة على سجين آخر..؟

- هذا أفضل يا دكتور... هل أعيده إلى الزنزانة؟..

- لا.. اتركيه هنا.. سنفحص حالته... ونعطيه بعض المقويات، هل هو من ذلك التنظيم الإرهابي المطارد؟..

- المعلومات في إضبارته تؤكد أنه كان يعمل في الجمعيّة العالمية للبنائين الأحرار، وقد خان ثقتها كما يؤكد ذلك رؤساؤه.. إنه أحد الاختصاصيين المهمين في مجال علمي دقيق..

- آه.. فهمت.. قد نستطيع تبادل الحوار معه، حين تعود إليه قوته..

- حسناً يا دكتور.. وقع لي على هذه الاستمارة حتى يصبح في عهدتك..

- لا بأس..

شعر قاسم بغصة تكاد تخنقه... أمعقول أن يعرضوا الناس لمثل هذه التجارب القاتلة؟ أليس في داخل أي منهم نأمة حسّ إنساني؟..

عاودته صورة سالي فشعر بأن انفعاله يتحول إلى دموع انسابت من عينيه رغماً منه.. ترى أين هي الآن؟ وهل تمكنت من الوصول إلى زهرة؟..

(٣)

أرغمت زهرة، سالي على الاقتناع بأن قاسماً قد لا يعود، وأن عليها الاهتمام بنفسها وبجنينها، وأنها ستقيم معها إلى أجلٍ غير مسمّى، وأن البحث في مستقبلها الآن يجب ألاّ تأخذه بعين الاعتبار، لأن العالم مقبل على تغير مخيف، ربما قد لا يجعل للممكن مجالاً للتحقيق أمام الفوضى القائمة...

آه يا زهرة، كم كنت تتألمين وأنت تتكلمين مع سالي، وقلبك واجف خائف على المصير الذي ينتظر أحب الناس إليكِ بعد هاني، قاسم، الذي لم يكن الأخ بل كان الأخ والصديق والرفيق والأب... كان كل شيء في حياتك إبان الصبا...

قاسم الوديع الطيّب المتفوق، العبقري، أصبح بين أيدي أولئك المجرمين الذين طغوا وبغوا في عالم مأفون مضيّع بالأحقاد...

لحظ هاني وجوم زهرة، وشرودها، وحزنها الذي ليس خافياً على أحد.. عرف أنها تفكر بقاسم، وهي قلقة على وضع زوجته سالي...

- آه يازهرة... أصبح الهمُّ عامّاً.. كل الناس خائفون قلقون على المستقبل القاتم الذي ينتظرهم... لا أدري لِمَ أتوقع قتامته؟ ليس من بارقة أمل... ألا ترين ما يفعلون في الأرض المقدسة؟ زعيمة العالم أعطت الضوء الأخضر للجزارين ليقوموا بعمل من أكثر الأعمال وحشية في التاريخ البشري..

- أعلم يا هاني.. ولكن الذكريات تطفح في ذهني أحياناً، فأشفق على قاسم الوديع الطيّب من مصير قاس، يعلم الله، كم سيكون مستوى قساوته التي ربما لا يمكن تصورها... تلك المنظمة هي جزء من لعبة وضيعة تسيطر على العالم وتستعبد الأذكياء الذين ينساقون وراء إغراءاتها، ولكنهم أوقعوا بقاسم بالإكراه، بالتهديد، بالحصار.. ورضخ لهم بعض الوقت، ثم شعر أنه يخرج من جلده فعادت إليه أصالته فقاومهم وانساب من بين أيديهم بعدما خرّب الكثير من مخططاتهم المشبوهة ضد الإنسان في هذا العالم...

- لا بأس، ألم يختر بنفسه هذا المصير؟ لم يتمكن من مجاراتهم بعد ذلك...

- نعم.. لم يتمكن من مجاراتهم، ثار عليه ضميره وقلبه وذكرياته ونزعة الخير فيه..

- إذن لا بأس يا عزيزتي.. لننسَ موضوعه.. ولنعطِ سالي الاهتمام وهي تحمل قطعة منه في بطنها.. لا تدعيها ترى حزنك، ستتأثر، وستحبط، وقد بدأت تتكيّف مع وضعها الجديد من دون زوجها..

تنهدت:

- معك حق..

اندفع إليهما هاني الصغير راكضاً:

- الخالة سالي تتقلّب على السرير... إنها تبكي...

- تبكي.. وهل نستطيع أن نخفف عنها.. قلت لي: إنها بدأت تتكيَّف مع وضعها.. قد يعن لنفسها أن تبكي أحياناً.. لا بأس..

- إنها تتألم.. متوجعة..

- يا إلهي.. أنا ذاهبة حالاً.. تعال يا هاني، قد تحتاج إليك..

- هي في شهرها السابع... معقول؟..

- عجِّلْ أرجوك...

كانت سالي تتفرّج على التلفاز، وهو يعرض مقاومة أبطال فلسطين في الدفاع ضد الغزو العنصري، ثم عرضت المحطّة صوراً لبعض الجثث المتفحمة، وقد أطلق الجزّار قذائفه الوحشية عليهم، من صواريخ وقنابل مدمّرة وقنابل حارقة وظل يقصف ويقصف حتى دمّر البيوت وسوّاها بالأرض..

دون أن يكترث لساكنيها، وكأنما راق له الدم الذي غطّى الشوارع فانكبَّ يلعقه متشفياً، وقد وصل إحساسه المتوحش الوضيع إلى ذروته.. أية دونيّة أفظع من هذا؟ هكذا كانت تحدّث نفسها حين شعرت بالدوار، وبوجع في أسفل بطنها... فدخلت إلى غرفتها تتقلب متألمة.. حين دخل عليها هاني الصغير، وهرع إلى أمه يخبرها..

عاينها الدكتور هاني فعرف أن حالتها ليست طبيعيّة، فطلب سيارة إسعاف لنقلها إلى المستشفى، وهو يدعو في سرّه أن يتمكن من إسعافها.. وهي تحمل بذرة أحب الناس إلى قلب زوجته...

لم تتأخر سيارة الإسعاف، نقلت سالي إلى المستشفى، وحضر الطبيب المختص بناءً على طلب الدكتور هاني، وأسرَّ له أنها بحاجة إلى عملية سريعة لإنقاذ الجنين الذي يهبط مجهزاً نفسه للخروج قبل أوانه... وربما استطاع أن يجعل ولادتها طبيعيّة، رغم أن ذلك لا يبدو ممكناً الآن...

بدا القلق على زهرة، وهي ترى سالي الخائفة تدخل غرفة العمليات.. ولم يطل الوقت حتى خرج الطبيب مؤكداً أن حالتها على ما يرام، وأن الطفل سيكون بخير، فلقد تجاوبت معه بطريقة أدهشته، وتمكن أن يخرج الطفل دون متاعب.. ودون إجراء جراحة، وهذه حالة نادرة أحياناً...

شعرت زهرة أن الفرحة لا تكاد تسعها، فدمعت عيناها وأخذت تبكي بصمت، تشكر الله على أن ابن أخيها قد خرج إلى الوجود بصحّة جيدة.. وأن أمه أيضاً تجاوزت محنتها، وسيعزيها الطفل عن زوجها المفقود..

- حمداً لله على سلامتك يا سالي..

- شكراً لك..

- وماذا سنسميه؟

دمعت عيناها:

- إنه قاسم الصغير.. أرجو أن يصبح مثل قاسم الكبير..

- هَوِّني عليكِ يا عزيزتي.. يجب أن تنتبهي لنفسك من أجله.. إنه يحتاج إليك كثيراً.. ونحن نحتاج إليك إلى جانبنا..

- سبحان الله... منذ أن بدأ رحلة الحياة في بطني ووالده متأكد أنه صبي، حتى إنه كان يتحدث إليه كصبي.. رغم أنه كان يحب أن يكون الولد التالي بنتاً... ولكنه كان يقول لي.. هذا الحمل صبي، ولكن الحمل الثاني سيكون بنتاً سأتعلق بها كثيراً... يا حسرتي عليك يا قاسم قد لا تراه أبداً..

غرقت في بكاء مرير، وهي تنشج، وزهرة تحاول تهدئتها، ثم دخل الدكتور هاني:

- اهدئي أرجوكِ يا سالي... من أجل الصغير، يحتاج إلى الحليب، ويحتاج إلى حنانك وعطفك.. حافظي على هدوئك، القلق والحزن يؤثران فيك وفي صحتك..

- لا بأس.. أعانني الله على تربيته.. أتعبتكما معي... أنا آسفة..

- ماهذا الكلام.. أنت أختي.. وزهرة أقرب الناس إلى قاسم، فهي أقرب الناس إلى زوجته الحبيبة التي انتقاها من بين كل النساء...

أحضرت الممرضة الطفل... دمعت عينا زهرة:

- انظري ما أجمله، بسم الله الرحمن الرحيم.. إنه يشبه والده..

- نعم.. تقاطيع قاسم نفسها.. ولكنهم يقولون: إن هذه التقاطيع قد تتغيّر عندما يكبر..

- ليس مستحيلاً أن يشبه والده شبهاً كبيراً إلى هذا الحد.. انظري إلى هاني الصغير، كان منذ ولادته يشبه هانياً الكبير، ولم يتغيّر مع نموّه وامتلائه... هيا أرضعيه يا سالي..

خرج الدكتور هاني وهو يقول:

- سأترككما الآن وأطمئن عن هاني الصغير..

كان هاني قد شعر في الأشهر الأخيرة بفراغ كبير، بعد أن غابت عنه الأحلام، ولم يعد يرى أمينة في أحلامه، أو الأميرة الصغيرة أو الملكة المحكومة من قبل زوجها... ولم يعد يستفسر عن هدى أو عن عايدة اللتين تشبهان أمينة والأميرة الصغيرة، شعر أن الأحداث التي تجري من حوله قد

غطّت كل شيء، حتى توقعاته التي أعطته إياها أحلامه المخيفة.. عن عالم تتحكم به قوة غاشمة، استعبدت الناس في كل بقاع الأرض.. وأرعبتهم بأسلحتها الفتاكة وحصاراتها المرعبة ...

هل بدأ العصر الذي تحدّثت عنه أمينة بعد الحادي عشر من الشهر التاسع... العصر الذي سيصبح فيه الوجود الإنساني مهدداً برمته، وخاضعاً لسيطرة قوة غاشمة، يتحكم فيها مهووسون باستعباد الشعوب وإذلالها..

إما أن تستسلم لهم وتصبح عبداً، وإمّا أن تصبح على قائمة الإرهاب، وهذا يعني أن عقابهم سيطالك في أي مكان وزمان... أمعقول أن تصل البشرية إلى هذا العصر المرعب البغيض؟ وصل إلى البيت واطمأن عن هاني الصغير وبدأ ينتقل بين المحطّات يتعرّف الإعلام المجنون...

الإعلام المجنون الذي يلاحق القتل والتشرّد والاستعباد، ويجري لقاءات مع محللين سذج أو مغرر بهم، يحكون عن منطق القوة والاستسلام في زمن عزّ فيه الكبرياء والشجاعة المواجهة للظلم...

(٤)

كان قاسم في تلك الأثناء قد اشتد قليلاً وهو في المستشفى، واسترجع شيئاً من قوته، دون أن يعيدوه إلى السجن، وصادق أحد الأطباء الذي ساعده وقد عرف قصته، ولكن المراقبة الصحيّة الصارمة نبّهت المشرفين على المخبر الصحّي لوضعه الحسن...

- سنعيده إلى السجن الآن؟

- حالته على مايرام الآن...

- أخبروني بضرورة إعادته إلى الزنزانة...

- ربما نحتاج إليه في مكان آخر.. ليس بعيداً عن هنا..

- أي مكان تقصدينه يا دكتورة؟..

- القاعدة التي نجمّع فيها الإرهابيين..

- تقصدين (غوانتانامو)؟.. معقول؟ الذي أعرفه من سجله أنه ليس إرهابياً من تلك البلاد الفقيرة الشرقية، أو من تلك المنظمات التي تقوم بعمليات ضد جنودنا أو ضد من يتبعونهم، هو عالم كبير في اختصاصه، ويبدو أن المنظمة العالمية التي كان يعمل بها قد غضبت عليه فأرسلته إلى هنا..

- على كل حال أعتقد أنه لن يتحمّل ظروف نقله إلى هناك، الأفضل أن نجري عليه الاختبارات هنا وليس هناك...

- عدتِ إلى الحديث عن تجربة ذلك البروتين المعدي؟..

- أتمنى أن أجريها عليه.. إنه عينة فريدة..

- ليس بالشكل الذي تتخيلينه.. لم يصل إلى القوة الكافية بعد..

- سأخابر المسؤولين.. وأرى ما يزمعون فعله معه..

- أرجوكِ حاولي ألاّ تدعيهم يأخذونه إلى هناك... إنها الجحيم أعرف ذلك.. وسمعت الكثير عن تجاربهم المرعبة على المساجين هناك...

- آسفة يا دكتور... ليس الأمر في يدي...

- حاولي أرجوكِ... مهما كان ما فعله لا يستحق أن يزجّ به في تلك القاعدة اللعينة..

- ولكني جنديّة، أنفذ الأوامر..

- كما تشائين..

سمع قاسم نتفاً من الحديث، وعرف أن القرار قد يتخذ في نقله إلى مكان لم يسمع به من قبل، وربما كان أشد سوءاً من القاعدة التي هو فيها الآن...

لم يكترث كثيراً وقد تأكد أن الحياة لم تعد ذات فائدة له، ولن يحلم بالخلاص منهم، إنهم رسموا عذابه وموته، دون رحمة.. ويجب أن يتقبّل ذلك...

انتابته موجة من الصوفيّة، وشعر أنه قريب من الله عزَّ وجلّ، وأنه سيعطيه الصبر على العذاب والضنى. ولم يتركه الطبيب الشهم، ظلَّ معه يؤنس وحدته ويعزيه.. وشعر أنه نقطة بيضاء في صفحة سوداء هي عقوبته وعذابه...

عزّاه ذلك الرجل.. وحاول إدخال الصبر والسلوى إليه، متأملاً ألاّ تقرر السلطات نقله إلى غوانتانامو. ولكن القدر كان يخبئ له فصولاً أخرى من حياة متعبة مخيفة.. أتت الطبيبة الكهلة وهي بلباسها العسكري:

- هيا خذاه من هنا.. سينقل بالطائرة إلى هناك.. أنا آسفة يا دكتور ليس في اليد حيلة، صدر القرار بترحيله..

همهم الطبيب حزيناً:

- مسكين، لن يتحمل ذلك العذاب...

شعر قاسم أن الطبيب يبكي وهو يشد على يديه.. والطائرة ترتفع به إلى جزيرة في طرفها قاعدة عسكرية لتلك القوة الباغية...

استقبله الجنود بغلظة.. وأَصْلَوْهُ ضربات ولكمات.. قبل أن يرتدي قناعاً وكمامة ولباساً، وأغلالاً أثقلته. آه يا قاسم، بدأت رحلة عذابك الحقيقية...

كانت هناك كمامة طبيّة تغطي الأنف والفم والتنفس منها ليس مريحاً، وعلى العينين نظارة داكنة تماماً مثبتة بإحكام تمنع الرؤية بشكل كامل هدفها كما

قالوا له فيما بعد منع السجناء من تعرّف بعضهم ببعض، بل ومنع أي تصوّر لهم لمحاولة الهرب..

كان يشعر بحرّ في تنفسه المحصور بتلك الكمامة اللعينة، كاد هذا الحرّ يحرق رأسه حتى الآهات لم تكن تنطلق من فمه، إذ كانت تنطلق لتصطدم بتلك الكمامة ثم ترتد... هي لم تكمم التنفس فحسب وإنما كمّمت الكلام ومنعت اختراقه لحاجزها اللعين...

أما على الأذنين فسدادتان محكمتان مشدودتان بإحكام لتمنعا وصول أي صوت إليه، ولم يكن يسمع سوى نبضات قلبه والصمت الخارجي المطبق.. والسترة اللعينة أيضاً التي يرتديها، كانت مخاطة بشكل يمنع الحركة السهلة، إنها قيد آخر يضاف إلى قيوده.. قيد مرهق يحبس حرارة الجسم فينهك بسرعة...

وفي اليدين والرجلين أصفاد ثقيلة.. تمنع حركة اليدين المربوطتين بسلسلة مع أصفاد القدمين، بؤس وإذلال إنساني ليس له مثيل حتى زمن محاكم التفتيش المرعبة في القرون الوسطى.. بأية همجيّة لا تصدق، يتعامل معها أولئك السجانون مع مساجينهم؟..

شعر قاسم أنه يخوض تجربة مرهقة مريرة لا يصدقها العقل...

آه يا إلهي.. لم أتصوّر في حياتي أن يداهمني مثل هذا الخوف، ويد غريبة قاسية تدفعني في اتجاه لا أعرف دربه.. عتمة حالكة وصمت مطبق سوى من نبضات قلبي المتعب، والأصفاد الثقيلة يكاد جسمي المنهك أن ينوء بحملها، والسترة التي ألبسها تزيدني تعباً وحرارة، سترة تنقل حرّ الشمس إلى جسمي الملتصق بها.. آه كل حواسي معطلة لا سمع ولا بصر ولا شم وليس سوى الحر يكوي جسمي.. أبت عيناي المعصوبتان التكيّف مع الهوّة المظلمة في عالم الظلام الدامس الذي غرقت فيه.. وفقدت فوراً الإحساس بالاتجاهات

وسحقني فقدان المكان ورهاب الأماكن المغلقة، وعجزت عن تحسس طريقي أو تلمس دربي في هذه الظلمة الغامرة، والقفازات التي كنت أرتديها والقيود الثقيلة في معصمي قد شلّت حركتي تماماً...

أشعر أن ذراعي بتلك القيود الثقيلة والقفازات قد بترتا.. كان اللباس الأحمر القاني المهين الضيّق الذي ينقل حرارة الشمس حتى يحرق الجلد، والأربطة حول رأسي تكاد تقلقه أيضاً، ثم يأتي الخدر الثقيل يحزُّ في النفس ويجرّح القلب البائس الكسير.. وبدأت موجات الألم الجسدي تجتاحني، وأحسست بالدموع في عيني وقطرات العرق تتصبّب وتتجمّع عند حاجبي وتعطّلت جوارحي.. شهقت لأتنسم الهواء، ولم ينفذ من الكمامة الكريهة سوى رائحتها البلاستيكية، كانت فظيعة أثارت الغثيان في نفسي، وأدركت أخيراً أن أنيني وزفراتي لا يسمعها أحد، وضمن هذه العزلة النفسيّة القاتلة، لا إحساس، لا تنفس، لا شيء سوى الوحشة والظلمة والصمت والألم الفظيع البغيض، حاولت أن أنحني للأرض، فداس أحدهم على قدمي، وأنا أنتعل نعلاً إسفنجياً رقيقاً فصرخت من الألم...

آه يا إلهي، أفي العالم وحش يرضى أن يعذب أخاه الإنسان بمثل هذا العذاب الفظيع.؟..

☆ ☆ ☆

واستمرّت رحلة العذاب.. ولكن شيئاً خارقاً حصل.. شيئاً لم يتوقعه أبداً.. ولم يكن في خاطره مطلقاً..

شيئاً جعله يتنهد منذهلاً من قبس ضوء بَدَّدَ ظلام حياته المعتم...

أعدت قاعدة (غوانتانامو) لتستقبل آلاف السجناء، وأقيمت على أرضها زنزانات في الهواء الطلق مطلّة على البحر، تفصلها بعضها عن بعض الأسلاك

الشبكية والقضبان، وهي ضيقة لا تسمح للسجين أن يتمدد فيها، وإنما عليه أن يظلّ واقفاً أو قاعداً..

وفي الأبنية المطلّة زنزانات معتمة، وغرف فيها أجهزة طبيّة لاختبار حالة السجين، واستخدامه أحياناً كأنموذج لتجارب علميّة وطبيّة، وقد أنشئت الأبنية حديثاً، وبسرعة خرافيّة لاستقدام المساجين والمعتقلين الذين أسروا في (طورابورا) أو المناطق الجبليّة الأخرى.. كما زودت بخبراء متميزين من المخابر المركزية المتطورة...

تلك المخابر التي تجري فيها جميع أنواع التجارب على الجسم البشري، ويستخدم فيها المساجين الذين أدينوا بجرائم قتل، أو جرائم مخدرات... أولئك المساجين الذين يتلقون عقوبات تتراوح بين الأشغال الشاقة لمدة محدّدة لا تقل عن خمس سنوات حتى عقوبة الإعدام...

كان قاسم يجلس في زنزانته الشبكيّة، وهو يضع الكمامة البلاستيكية وقد عصبوا له عينيه، وأغلقوا أذنيه وهو يرتدي سترته الملتصقة بجسمه عدا عن القبعة والحذاء الخفيف الذي لا يعزل حرارة الأرض، أو حرارة الشمس عن قدميه بل يزيدها بسبب نوعيته الخاصة.

كان يعلم من الحرارة الخانقة التي تعذبه أنهم في منتصف النهار تقريباً.. كان مرهقاً متعباً، لم يستطع أن يستجمع قواه، ليشغّل فكره بأيةِ قضيّة تشعره أنه مازال حيّاً ككائن بشري عنده عقل، هذا العقل كان مخزوناً في الماضي بالمعارف الكثيرة، التي بدت أنها منسيّة الآن.

آه.. من هذا الواقع القاسي الذي لا يمكن تصوره.. إنه تعذيب يفوق الوصف، تعذيب جسدي ونفسي وروحي.. تعذيب يستل من الإنسان قواه المخزونة ويحطمه ليصبح كتلة حيّة هلامية دون حسّ..

شعر بيدين تسحبه من كتفيه وتخرجه بقوة من الزنزانة، وكالعادة يقوده جنديان وهو يستند إليهما تقريباً من ضيق السلاسل وثقلها... شعر ببرودة تصله ثم أجلس على كرسي مريح، وبعد لحظات نزعت الكمامة والعصابة التي غطّت عينيه، وأزيل القوس الذي ينتهي بسدادتين والذي كان يغلق أذنيه..

لم يرَ شيئاً في البداية، كأنما أعشى النور عينيه.. وحين اعتاد الضوء رأى نفسه داخل غرفة طبيّة وحوله أطباء ومساعدون وممرضات... ويقف جنديان باستعداد، وقربهما ضابط يتبادل الحديث مع رجل كبير السن يبدو أنه المسؤول الطبّي.

- نريد أن نعرف عقوبته، حتى نأخذ راحتنا في التعامل معه كعيّنة..

- من الاطلاع على ملفه، ومن طريقة إحضاره إلى هنا، يعني أنكم تستطيعون أن تفعلوا ماتريدون به.. هو محكوم بالإعدام...

- سلمونا الملفّ حتى نعرف كيف نتعامل معه، يبدو كأنه أحد قادة الإرهابيين، أو أحد القادة السياسيين، إنه لا يملك عضلات قويّة، ويبدو أيضاً كأنه كان يعيش عيشة مرفّهة..

- أحضر الملف رقم (١٣٤٠)...

- أمرك يا سيدي..

- اسمع يا دكتور بيتر..

- نعم يا دكتور..؟

- أدخله لغرفة الاختبار.. وأجرِ عليه كل الفحوص على أجهزة جسمه... سيكون ضمن العينات القادمة من (طورا بورا).

- هيا يا صموئيل ستساعدني أنت وديفيد وكاثي..

- نعم.. نعم.. أنا جاهز..

كانت هناك عينات كثيرة وكل هذه العينات البشرية ستخضع لتجارب واختبارات كثيرة أيضاً...

كان الكشف الطبي الكامل هو الذي يحدد نوعية تلك الاختبارات.

استلم بيتر الملف والطبيب الكهل يقول له:

- خذ صورة عنه.. وأعده لي.. الصور أيضاً، وأشرطة الكاسيت والفيديو تابعة كلها للملف..

- لا حاجة لي بها، أريد معلومات عنه، الأشرطة تخصكم أنتم في الاستخبارات..

- بالطبع.. إنها من جملة الوثائق التي أدانته..

قلّب الأوراق ثم قال معلقاً:

- إنه عالم.. درس في جامعاتنا.. وتبوأ مناصب علميّة.. ليس من إرهابيي وسط آسية.. إنه يفهم لغتنا جيداً.. لماذا حكم عليه تلك الأحكام الكبيرة.. ولِمَ أحضر إلى هنا؟.. إنه أمر غريب يحتاج ملفه لدراسة معمقة....

(٥)

كان قاسم مستسلماً لمصيره، وهم ينقّلونه بين الأجهزة ويسحبون عينات من دمه، ومن سوائل جهازه التناسلي، وكبده وطحاله، ويفحصون حواسه وردّ فعله الانعكاسي...

كانوا يتعاملون معه كحيوان مخبري، دون اهتمام بأوجاعه وآهاته المنطلقة من فمه.. وبعد أن انتهوا منه أدخل إلى غرفة ضيقة ومدد على سرير.. وترك بعض الوقت.. كان بيتر عندها يقرأ ملفه بعناية..

وفي مكتب كبير الأطباء دخل صموئيل الطبيب الشاب واللهفة بادية عليه:

- دكتور.. وردنا طلب من مستشفى (العائلة المقدسة) في كاليفورنيا.. أرسلوه إلي على عنواني في الإنترنيت -البريد الإلكتروني- أخرجته على هذه الورقة...

- أرني يا صموئيل.. إنهم يطلبون كبداً سليماً.. بمواصفات نسيجيّة معينة..

- وقد عثرت على هذا الكبد يا دكتور...

- بين المساجين؟..

- نعم.. في السجين الذي أدخلناه لغرفة الاختبار قبل قليل..

- ستستأصلون كبده؟..

- نعم يا دكتور.. أريد موافقة خطيّة منك..

- ماذا قال لك بيتر؟..

- لم أكلمه، إنه طلب سرّي للغاية، بيتر سينفذ أوامرك.. أنت المشرف على هذه الحالات يا دكتور..

- وحالة السجين الصحيّة هل هي على مايرام؟..

- المهم كبده في حالة جيّدة...

- قد يميته هذا الاستئصال فوراً؟.. وقد لا يكون الكبد عندها في حالة ملائمة؟

- محكوم عليه بالإعدام.. ما الفائدة في تأخير موته؟.. كلما أسرعنا أنقذنا الكبد من تدهور حالته..

- قد نتمكّن من إجراء اختبارات مهمّة عليه؟..

- إنها حالة استثنائية، أحد الحاخامات في أكبر كنيس في كاليفورنيا الحاخام (شاؤول)

- سأتباحث مع بيتر بشأن هذه القضية..

- أرجوك، (شاؤول) في وضع صحي صعب.. هناك تجانس خليوي بين نسيجه ونسيج السجين هذا..

- أعدك أن أبذل جهدي لتحقيق ذلك في أسرع وقت...

- شكراً لك يا دكتور... ستنقذ ذلك الرجل المقدّس بموافقتك على منحه كبداً يعطيه حياة جديدة..

رأى بيتر أن يعطي قاسماً مقويّات حتى يسترد صحته قليلاً، وأمهل المشرف الطبي العام يومين، حتى يعطيه قراره بشأن الحالة الصحية الدقيقة لقاسم...

رأى الاهتمام الذي يلاقيه قاسم من صموئيل، فتساءل عن السبب، ولم يعرف أنه ينتظر اللحظة المناسبة للإجهاز عليه واستئصال كبده...

لم تكن تبدو على قاسم القوّة الكافية للتحسّن السريع، كان في داخله يتعجّل الموت.. وقد شعر بيتر بالشفقة عليه وتبادل الحديث حول حالته في اليوم التالي مع الرجل الكهل كبير أطباء المركز:

- لا يبدو عليه أنه مثل الآخرين..

- هو ليس مثلهم فعلاً.. اطلعت على ملفه أمس، وقد احتفظت بصورة عنه يمكنك الاطلاع عليها إن رغبت.. كان أحد العاملين المهمّين في بلادنا.. إنه عالم له فتوحات في مجال اختصاصه...

ودخل الدكتور صموئيل متلهفاً:

– حالة السجين ليست على مايرام.. أعطِ الأمر باستئصال كبده يا سيدي أرجوك..

– ما الذي جرى له؟..

– كأنه فقد رغبة الحياة، وعندما أجبرته على الأكل بصق في وجهي..

– لِمَ أجبرته؟..

– أريده أن يتحسّن بسرعة من أجل إجراء التجارب عليه.. نعم.. من أجل التجارب.

– لا بدَّ أنك كنت قاسياً معه...

– ومن هو حتى نعامله بلطف؟ إنه إرهابي قتل الكثير من الأبرياء...

– مادمنا نحتاج إليه حتى في تجارب، حتى في استئصال أعضاء منه، يجب أن نعامله برفق..

– له كلية واحدة، والأخرى مستأصلة.. كما استأصلوا له من قبل جزءاً من طحاله.. بدا ذلك في الفحص..

قال بيتر بسخرية:

– كبده سليم كما أعتقد... هل تنوي استئصاله يا صموئيل؟.. لاحظت اهتمامك بنسيجه الخليوي، وخاصة نسيج الكبد، إنها عملية خطيرة.. الرجل منهك متعب الآن.. يجب أن يقوى جسمه قليلاً.. يحتاج ذلك إلى عدة أيام...

خرج صموئيل غاضباً، علق الكهل:

– تعرف قوة صموئيل، باستطاعته استصدار قرار من الرئيس في البيت الأبيض باستئصال كبد هذا السجين من أجل ذلك الحاخام الذي يحتاج سريعاً

إلى إبدال كبده التالف بكبد هذا السجين.. ولكني أستغرب لم وافق على نقل كبد غير يهودي لحاخام يهودي، هذا مخالف لعقيدته، يبدو أن جرم هذا السجين كان أكبر من كل تراثه العلمي.. قدمت منظمة (البنّائين الأحرار) ملفاً أمنياً كاملاً ضده.. هي من ضغطت لإحضاره إلى هنا..

- أمر غريب.. إنه رجل يستحق الإعجاب، لِمَ لم ترحمه تلك المنظمة.؟.. يبدو جسمه مليئاً بالقروح والجروح وآثار العمليات.. حتى دماغه يبدو منهكاً، في ذاكرته، في أحاسيسه في كل تركيبته الإنسانية..

وماذا نستطيع أن نفعل يا بيتر؟ إنه واحد مثل كل المساجين بالنسبة إلينا.. سننفذ الأوامر التي تأتينا من أجل فعل أي شيء به.. حتى لو كان هذا الشيء هو قتله...

- معك حق يا سيدي..

- سأعطيك فرصة للعناية به وتقويته قبل أن نقرر ما نفعل بشأن عملية استئصال الكبد.. هل سنستأصل جزءاً من هذا الكبد، أم الكبد كلّه؟..

- سأطلّع بدقة على الملف وأعيده بعد الظهر مع الأشرطة والتسجيلات كلها..

- لا بأس يا بيتر، حافظ على سريته بحرص بالغ..

- سأفعل يا سيدي... لا تقلق..

استراح بيتر في غرفته وهو يطالع بقية الملف، وشعر بتعاطف مع قاسم، وخاصة أنه عانى الكثير في بدايات حياته، قبل أن يبدأ بالبحث العلمي المركز، ويقدم الكثير من الإنجازات العلمية للجامعة التي كان يعمل بها، ولمركز البحوث الملحق بها والتابع سراً للبنتاغون..

استغرب ألاّ تغفر له أعماله الكبيرة في خدمة أبحاث القوة العظمى، مانسب إليه من جرائم.. وعاد صموئيل يلحّ عليه لاستئصال كبد قاسم.. كان عندها غارقاً في قراءة ذلك الملف العجيب للسجين الذي شعر بالتعاطف معه..

- يا دكتور بيتر، أكد لي كبير الأطباء أنه حكى لك حاجتنا إلى كبد هذا السجين..

- كبده بالكامل، لِمَ لا تستأصل جزءاً منه ونترك له قسماً يمنع عنه الموت قد نحتاجه في تجارب أخرى؟.. على كل حال مازالت حالته سيئة، يجب أن ننتظر بعض الوقت...

- ولكنها حالة عاجلة.. أتتني رسالة أخرى بالبريد الإلكتروني حول ضرورة الإسراع في استئصال الكبد بكامله.. وإرساله بالطائرة، سأقوم بنفسي بإيصاله..

- أرجوك يا دكتور انتظر قليلاً، يوماً آخر فقط، أنا لست ضد الفكرة، ولكني خائف على تهتك الكبد نتيجة الانهيار الخليوي العام عند المريض... سأعمل المستحيل لأعيد إليه حيويته سريعاً، وفي ذلك تضمن سلامة الكبد، ونضمن سلامة الشخص الذي سينقل إليه.. لا تقلق.. أنا أتحدث إليك بلغة طبيّة..

- حسناً يا دكتور.. سننتظر يوماً آخر، ابذل جهدك أرجوك ليكون كل شيء على مايرام..

- لا تقلق يا صموئيل.. يمكنك العودة إلى عملك..

شعر بيتر بالشفقة على قاسم المسكين هذا الرجل، يبدو أنه في طريق النهاية.. لو استأصلنا كبده كاملاً لقتلناه..

(٦)

واستقبلت قاعدة (غوانتا نامو) المزيد من المساجين، وألحقت بأقفاص السجون الشبكية الزنزانات التي أسرعوا في بنائها وأطلقوا عليها اسم (دلتا) وهي لا تقل ترويعاً عن الأخرى.. ومع المساجين الذين جيء بهم من أماكن أخرى حضر بعض الجنود، ليساهموا في الإشراف على تنفيذ تعليمات قيادتهم المركزية...

كان قاسم مستغرباً من العناية الشديدة الذي يبديها العاملون بصحته، ولم يمضِ على وجوده في المختبر الطبي أكثر من ثلاثة أيام.. وشعر أن الدكتور بيتر الذي يهتم كثيراً في إعادة تأهيله، يتعاطف معه..

وحاول أن يبادله الحديث، ولكن بيتر كان ينظر إليه بعمق دون أن يتكلم حتى كان ذلك الصباح، صباح اليوم الأربعين لوجوده، شعر بيد بيتر توقظه في الصباح..

- استيقظ يا دكتور قاسم.. سنجري لك اليوم عملية، يجب أن تكون مستعداً لها..

- عملية؟ ستستأصلون أحد أعضائي أيضاً؟ أم ستجربون عليّ عقاراً جديداً؟ أم سأحقن بمادة فيها فيروسات مرض غريب؟ أم؟..

- يكفي يا دكتور.. لا تكن فضولياً، المهم أن تبقى على قيد الحياة..

- فأر تجارب، لا علاقة له بالبشر، لا علاقة له بالمشاعر والحسّ.. لا بأس لو عرضتموه لكل أنواع التعذيب الجسدي والعقلي؟..

- هذا هو قدرك... أنا آسف..

- ولم تناديني بالدكتور قاسم؟ مانفع شهاداتي العالية إذا كنتم لا تحترمونها وتعاملونني كفأر.. فأر وضيع.

- يكفي.. لا تزد الأمور سوءاً..

وفجأة دخل مجنّد يرتدي بذلة مموّهة:

- صباح الخير يا دكتور.. كيف حال المريض؟..

- كيف دخلت إلى هنا؟ هذه أماكن ممنوع دخولها بالنسبة للجنود.. إنها أماكن معقّمة لها وضعيّة خاصة.

- أنا آسف.. جئت أرى وضع المريض..

- ومن أرسلك؟ لماذا يهمكم وضعه؟ إنه بين أيدينا، لن نعيده إليكم.. سيخضع لاختبارات وتجارب، المركز الطبي هنا أنشئ لهذا الغرض.. أرجو أن تخرج من هنا، سأقابلك في المكتب.. لا يمكنك الدخول هنا، دون لباس طبيّ معقّم..

- أنا آسف.. سأنتظرك في المكتب..

- حسناً، أنا قادم حالاً.. الساعة الآن السادسة والنصف صباحاً ستجرى على المريض عملية خطيرة في نحو التاسعة..

- عملية خطيرة؟ سأنتظرك في المكتب لا تتأخر أرجوك..

كان قاسم يفكر بقلق:

«أنا أعرف هذا الشاب، وجهه ليس غريباً عن عينيّ.. ولكنه يظل جنديّاً متوحشاً كغيره.. ربما كان يشبه إنساناً أعرفه.. آه يا إلهي أشعر بصداع فظيع يمنعني منّ تذكر أي شيء.. ليتني أنتهي من هذه الحياة، اعتقدت أنهم انتبهوا لي وأوقفوا عقوبتي تمهيداً لعرض يقدمونه.. ولكن هيهات، أمامي عمل جراحي، يعلم الله ما الذي سيستأصلونه من جسدي؟..»

خرج بيتر من غرفة قاسم، حانقاً من ذاك الجندي الشاب الذي قطع عليه

حواره مع قاسم، رغم أن ذلك الحوار كان يؤلمه.. ولكنه كان يريد الوصول إلى حقيقة يبحث عنها قبل أن يساهم مع صموئيل في نزع كبد هذا الرجل، وبالتالي قتله، حسب أوامر رؤسائه...

كان يريد أن يتعرّف أسباب اعتقاله وتجريمه بهذه الجرائم الخطيرة التي عُددت في ملفه، وكانت عديدة وقاسية.. وصل إلى المكتب وهو يرتجف من الغضب..

- هه.. ماذا تحمل من تعليمات؟ لِمَ حضرت إلى هنا مخترقاً حواجز الأمن الطبي؟..

- أرجو أن تهدأ يا دكتور.. اسمي (جون) حضرت البارحة مع عدد من المساجين الجدد.. بالمصادفة تعرفت بصاحب الرقم (١٣٤٠)...

- تعرفت شخصه؟ كيف؟..

- كتب تحت رقمه «نقل إلى المختبر الطبي، بلا عودة» وهذا يعني في مصطلحنا أن اختبارات خطيرة ستجرى عليه.. الفضول هو الذي جعلني أطلع على ملفه المبدئي الذي وضع في مكتب مراقبة الزنزانات الشبكيّة، حيث قضيت الليل مناوباً في الحراسة.. أنا أعرفه من قبل..

- تعرفه؟ كيف؟.. وأين قابلته؟..

- أنا من جنود الاحتياط، استدعيت للخدمة هنا، وكنت من قبل أعمل في مركز بحوث علميّة تابع لجامعة مشهورة، كان هذا الرجل أستاذي فيها.. أنا آسف يا دكتور، دخلت إلى المختبر الطبي وقلبي أصابه الرعب، من أن يكون الشخص نفسه الذي أعرفه، وقد رأيته يرقد على السرير ويبدو أنه لم يعرفني..

- ولماذا تريد التأكد من أنه أستاذك نفسه؟ ما الفائدة؟ يبدو أن جرمه أكبر مما تتوقع، حتى جيء به إلى هنا..

- دكتور بيتر، أنا لا أريد منك شيئاً، أريد أن تسمح لي برؤيته على انفراد، لأعزيه في وضعه الخطير وأخفف عنه.. لا تعلم كم أكن لهذا الرجل من حب.. إنه مثال الأخلاق والاستقامة والإخلاص لعمله.. أنا لا أكذب إن قلت لك، إنني أفضّله بصدقه وعبقريته وغزارة علمه، وكياسته، بل ومشاعره الفياضة بحب الناس، على كل أهلي.. إنه رجل نادر المثال.. لا أستطيع أن أتصوّر أنه هنا يخضع لكل أنواع التعذيب، والتجارب الوحشيّة..

- إلى هذه الدرجة أنت متعلّق به؟..

- نعم.. عشت ملتصقاً معه في الجامعة وفي حياته البسيطة مدة سنتين ونصف جعلني فيها متفوقاً، غيّر نظرتي للحياة، جعلني إنساناً فياضاً بالمشاعر... و ...

- اسمع يا جون.. لا وقت لدينا، الساعة الآن هي السابعة إلا الربع في السابعة سيبدأ تدفق العاملين، أريد منك أن تفهم منه سبب وضعه مع الإرهابيين، وكيف أتى إلى هنا؟ وماذا فعل حتى استحق هذه العقوبة المرعبة.. ارتدِ هذا اللباس بسرعة وضع القناع الطبي، وادخل إليه، أمامك أقل من ربع ساعة.. هيّا بسرعة..

- شكراً لك يا دكتور بيتر، لن أنسى هذا ما حييت..

خلال أقل من دقيقتين كان (جون) يدخل غرفة قاسم وقلبه ينتفض من الانفعال.. وقد لحظ مدى ما يعانيه أستاذه...

- دكتور.. أنا جون تلميذك.. انظر إلى وجهي، ألا تتذكرني؟..

- جون..؟ أنت جون؟ معقول؟ لماذا ترتدي هذا اللباس؟.. آه.. جون معقول.. جون الذي كنت أعتبره أخي الأصغر وتلميذي؟.. مستحيل.. كيف جئت إلى هنا؟ أنت تعمل معهم؟ لا.. لا.. أنت لست مثلهم..

- أنا من الاحتياط يا دكتور.. ألا تتذكّر ذلك؟.. بالمصادفة أرسلوني إلى هنا وقرأت اسمك.. كدت أجنّ من الرعب.. ماذا حدث؟ لِمَ أحضروك إلى هنا؟ أمعقول؟ أنت هنا..؟ لا أصدق أبداً..

- لا بأس يا جون، هي تصاريف القدر..

قال بحزن:

- أرجوك، احكِ لي كل شيء، ليس لدي سوى دقائق معدودة.. أرجوك..

- آه.. ليت ذاكرتي تسعفني، أعطني كأس الشراب، قد يقويني قليلاً.. وضعوه بعيداً حتى لا أتناوله، سيقومون بعمل جراحي صعب كما قالوا، يجب ألاّ أتناول شيئاً ولكن لا بأس.. أعطني الشراب..

- تفضل.. هل أساعدك في النهوض؟.. لا بأس.. اشرب العصير..

حكى له قاسم بعضاً مما حدث له.. والزمن يمر بسرعة.. ولكن ما حكاه كان كافياً لجون أن يرسم صورة قريبة لما حصل لأستاذه بالفعل..

قطع خلوتهما مجيء بيتر، يستعجل جون في الخروج، وقد بدأ المركز يشهد تحركات للعاملين فيه، بدأت في غرفة الإدارة.. ثم غرف المعاينة قبل أن تصل إلى غرف المرضى..

شدّه بيتر من يده، إلى المكتب، ليستمع إليه.. فحكى له كل ما سمعه... فعرف الطبيب أن الدكتور قاسماً يتعرض لعقوبة مريعة، لا أحد يستطيع إنقاذه منها مهما أوتي من نفوذ.. رجاه جون أن يؤخر الجراحة ليوم آخر.. أي أن يؤخر موت أستاذه ليوم آخر، فخطرت للطبيب فكرة إنهاك الكبد بكمية كبيرة من السكر الصناعي، الذي سينهكه لوقت معيّن فتتأجل جراحته..

لم يدرِ لِمَ تحوّل تعاطفه مع قاسم إلى هذا الحد الذي يجعله يخرق القواعد المتبعة في المختبر الطبي، بل والقوانين المطبقة على السجناء؟..

صرف جون سريعاً، وقد وعده أن يبذل مافي وسعه لتأخير الجراحة.. وهكذا عاد جون إلى معسكره وهو مضطرب الحواس، يشعر بقلق على أستاذه الذي كان يوماً أقرب الناس إليه...

(٧)

وفي الركن الآخر من العالم، كانت سالي زوجة قاسم تحتضن قاسماً الصغير، بحنان، وقد عزّاها قليلاً أنه يشبه والده شبهاً عجيباً.. أقنعتها زهرة أخت قاسم أن تتكيّف مع وضع فقدان زوجها، الذي يبدو خلاصه مستحيلاً فتكيّفت بحزن شديد مع هذا الوضع، خائفة من أن يؤثر حزنها وقلقها في عنايتها بالصغير..

دخلت زهرة إليها وهي تداعب (قاسم الصغير)، ومعها ابنها (هاني) أيضاً.. وقد رغبت في إخراجها من عزلتها، في الذهاب إلى منتزه نقابة الأطباء، حيث تلتقي العائلات بعضها ببعض وتتبادل الزيارات في جو أليف مسلٍّ..

- سبحان الله، ألا ترين أن شبهه بأخي يزداد؟

- نعم.. حتى في حركاته الصغيرة... أرجو أن يظل هذا الشبه كبيراً بعد أن يزداد نمواً..

- إن شاء الله.. سنذهب إلى المنتزه اليوم، لن أدعك ترفضين هذه المرّة أيضاً..

- قد يقصفون المدينة اليوم أيضاً؟ وربما طال القصف المنتزه؟..

- هناك ملجأ مريح، وواسع، إن حدث ذلك.. لا تقلقي...

قال هاني الصغير:

- أرجوكِ يا خالة سالي.. ماما لن تذهب من دونك..

- ولكن يا حبيبي، قاسم مازال صغيراً على الخروج والصخب..

- قالت ماما: إن باستطاعته الخروج..

وتحرك قاسم الصغير يشير إلى الباب وهو يمشي متثاقلاً:

- أترين.. إنه موافق على الخروج، أليس كذلك يا قاسم؟ أرأيتِ؟ إنه موافق..

- لا ترددي يا سالي.. أرجوكِ أترين لهفة هاني للخروج؟..

- وأين الدكتور هاني؟ قد يعود في فترة غيابنا؟..

- سأتصل به وأطلب منه الانضمام إلينا في المنتزه...

- لا بأس، سأجهز نفسي، وإن كنت خائفة أن يتعرّف بي أحد من العاملين في تلك المنظمة اللعينة.؟

- سأجري بعض التغيير في ملامحك.. تعلمين مهارتي في الماكياج..

- لا بأس.. على بركة الله إذن..

فكرت بقاسم وشعرت بالحزن والقلق:

«ترى ماذا يحدث لك الآن يا حبيبي؟ هل مازلت في هذا العالم؟ أم إنك غادرته منذ زمن؟..»

أتقنت زهرة تغيير بعض ملامح سالي بمهارة، وانطلقت وسالي وقاسم الصغير وزهرة وهاني الصغير إلى المنتزه، في ذلك اليوم الربيعي المشمس، وقد غص المنتزه بأسر الأطباء وعائلاتهم...

انزوت زهرة وسالي في مكان منعزل، وطلبتا طعاماً خفيفاً، وهاني الصغير يعطو قربهما، وهو ينتقل من لعبة إلى أخرى.. وقاسم الصغير ينام في العربة الصغيرة بعد وجبة حليب دافئة..

لحق الدكتور هاني بهما إلى المنتزه، وقضى معهما بعض الوقت، وقد شعر بالراحة لأن الغارات الجوية لم تحدث، وهم في اجتماعهم في تلك الجلسة الجميلة التي ذكرته بأيام الصبا، حين كانت الحدائق هي السلوى والمتعة لكل الناس، قبل أن يخرج الوحش من جحره ويضيّق عليهم حاجز الأمن..

رنَّ الهاتف النقال الذي يحمله، فأيقظه من شروده، وسمع صوت صديقه (مديح) الذي كلفه بمعرفة الطريق التي أوصلوا إليها قاسم.. وكان (مديح) معروفاً بكثرة علاقاته وصداقاته الدولية..

- أين أنت يا هاني؟ اتصلت بك في العيادة، وفي المستشفى، وفي البيت، تعرفني لا أحب الاتصال بالهاتف النقّال..

- خير يا مديح؟ لديك أخبار؟ أنا في منتزه النقابة، يمكنك الحضور إلى هنا..

- حسناً، دقائق وأنضم إليكم..

كان مديح أحد أقرب الأصدقاء للدكتور هاني، وكان يرى حسب آخر معلوماته أن الهاتف النقّال يشكل خطراً على الشخص الذي يستخدمه، فمن خلاله يمكن تتبع تحركاته ورصده ومعرفة موقعه والتجسس عليه، بل حتى قتله

عن طريق الصعق الموجي... وكان مديح صحافياً مشهوراً بتحقيقاته المثيرة وإتقانه لعدة لغات..

كان كثير الأسفار، متشابك العلاقات، يمكنه الوصول إلى المعلومات شديدة السرية بطرق بارعة، مهما كانت درجة سريتها.. وحين وصل إلى الحديقة، عرفت زهرة أنه يحمل خبراً عن أخيها...

أشار إليها هاني أن تشغل سالي، لينفرد بمديح ويعرف أخباره..

- هذه زوجته لديها طفل أيضاً؟..

- نعم..؟ ماهي أخبارك يا مديح.. نحن وحدنا الآن؟..

- إنه في (غوانتانامو) مع من يطلق عليهم اسم (الإرهابيين الدوليين)..

- يا إلهي، معقول؟..

- نعم يا هاني.. إنها أخبار مؤكدة.. تعلم قوة تلك المنظمة وتأثيرها في سياسة العالم، إنها تتشعّب بأذرعها الأخطبوطية في كل مكان..

- مسكين قاسم، إنها نهاية مؤلمة..

- سيكون مرتعاً لتجاربهم الطبية والعلمية قبل إعدامه، وربما سيستأصلون بعض أعضائه، ستصلني الأخبار أولاً بأول عن وضعه..

- لا أدري ما أقوله لزهرة، إنها تنتظر خبراً عنه..

- قل لها الحقيقة.. زهرة قويّة ويمكنها احتمال مثل هذا الخبر..

- مسكينة زوجته، لقد وضعت في اعتبارها أنها فقدته إلى الأبد.. وقد أوحت إليها زهرة أن نسيانه والاهتمام بطفله قد يعزّيها قليلاً.. وماهي أخبارك الأخرى يا مديح؟ كيف تبدو صورة العالم اليوم؟ وماهو مستقبل هذه الصورة؟..

- سيطرة القوة العظمى على العالم بدأت تتوضح استراتيجيتها.. حرب ساحقة في ظل تعتيم إعلامي مخيف، بدأت في وسط آسية، واستمرّت في غربها بدءاً من البحر المتوسط، شاملة دول شرق المتوسط بمساعدة نظام عنصري وضيع لا يترفع عن القيام بأي عمل ضد الإنسان.. رغم المقاومة البطوليّة في ظروف شديدة الصعوبة، ثم يستمر الزحف في هذه الحرب الساحقة لجلب نماذج من السلطة التابعة للقوة العظمى.. بقيادات مثل قارض (١) وقارض (٢) وقارض (٣).. وهكذا..

- قارض (١) الذي أتى في بداية الحرب الساحقة في وسط آسية؟..

- نعم.. بعد الحادي عشر من الشهر التاسع، ابتزّت القوة العظمى العالم.. وبدأت تفرض هيمنتها على الجميع بالحديد والنار والحصار الاقتصادي...

- المستقبل يبدو قاتماً إذن؟..

- نعم... رغم كل التضحيات التي يقدمها المقاومون، فإن آلة الدمار تسحق كل شيء، ورغم اقتناعي بأن هذه التضحيات مهما كبرت وعظمت، من الشعوب المقهورة، ستأتي نتائجها الإيجابية فيما بعد... فإن السنوات القادمة المنظورة تبدو شديدة الصعوبة..

- وماذا عنّا نحن العرب؟ أسيظل السواد الحالك هو قدرنا في هذه السنوات؟

تنهد مديح:

- يا دكتور هاني... العقول المهاجرة الفاعلة بدؤوا يبتزونها، ويزيدون عليها الحصار، ويصطادونها للعمل، في مزارع عبيدهم التكنولوجيّة.. أليس (د. قاسم) أحد الأمثلة المرعبة؟.. خَدَمَ تقنيتهم وطوّر أبحاثهم، فاصطادته المنظمة العالمية للبنائين الأحرار التي تحكم العالم فعلياً، وبدأت تبتزه وحين

وجد أن خدماته لها تسبب في قتل الناس وتدميرهم، حاول التمرّد، فكانت النتيجة صف الإعدام في (غوانتانامو)..

- أمعقول أن نصبح خارج إطار العالم بهذه السهولة؟..

- اسمع يا دكتور هاني، سرقة الآثار من بلادنا مستمرة منذ زمن بعيد، وسرقة المخطوطات والوثائق وصلت إلى حدّها المخيف، لم يبقَ عندنا ما يربطنا بالتاريخ سوى الذكريات، بعد أن دمرت الطائرات بقايا الآثار المهدمة.. يريدون محونا من الخارطة البشرية، ومسح تاريخنا وحضاراتنا، وإنتاج أجيال مدجنة من الناس الذين فقدوا الذاكرة والشخصية.. محطات فضائية استهلاكية تقدم الغث وتشجع على الانحلال ونسيان القيم، ومسؤولون يبعدون المبدع، ويبدلونه بمنافق هزيل تكبر فيه الأنا حتى يصبح شديد الحمق..

- أمعقول أن يصل بنا اليأس إلى هذا الحدّ؟..

- انظر إلى السلطات الحاكمة في عالمنا العربي، وتأمل جيداً، إنها سلطات تحمي المنافق وتحاصر المبدع..

ما أقوله هو أننا يجب أن نلملم أنفسنا بصمت.. ونشكل تجمعات منظمة سريّة، حتى نستطيع أن نقف في وجه تيار الانقراض.. وهي مسؤولية هائلة الضخامة..

انضمت زهرة إليهما:

- مديح.. ما أخبار قاسم؟ أتحمل عنه شيئاً جديداً؟..

- مازال ينتقل من سجن إلى سجن..

- وأين هو الآن؟..

- في سجن ملحق بقاعدة عسكرية.. لا تقلقي إنه بخير..

- قاعدة (غوانتانامو)؟ معقول؟..

- لم أقل لك قاعدة (غوانتانامو)؟ لماذا تخمنين أنه في تلك القاعدة؟..

- لأن تلك القاعدة من أشهر القواعد التي تجمع إرهابيي العالم على حد زعمهم، وهم يعتبرون قاسماً إرهابياً، هكذا قالت لي سالي، لا تخفِ عني شيئاً يا مديح، أعلم أن أخي في ظروف غاية في الخطورة، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله..

- فعلاً إنه هناك.. ولكنه مازال بخير..

قالت بحزن:

- مسكين، إنه يعاني الآن من تعذيب غير محتمل، وهو يرتدي ذلك اللباس الأحمر، ينتظر دوره في الموت، آه، يا إلهي..

انخرطت في البكاء قال هاني مخففاً:

- انتبهي يا زهرة، قد تنتبه سالي لبكائك، وتقرأ شيئاً مما حدث لقاسم.. اهدئي أرجوك يا عزيزتي..

غصت وهي تجيبه:

- حسناً.. سأكابر على نفسي، اذهبا إليها وبادلاها الحديث حتى أستعيد هدوئي..

قال مديح:

- معك حق..

غرقت زهرة في بكاء مرير، وقد شعرت أنها لن ترى قاسماً بعد ذلك، ورغم أنها كانت مستعدة لهذا الخبر، إلا أنه حين أتى كان قاسياً مرعباً،

انفلتت ذكرياتها مع قاسم، أخيها الحبيب، ذكريات الطفولة بما فيها من مرارة وفرح..

دخلت إلى حمام الحديقة تغسل وجهها محاولة استعادة رباطة جأشها، من أجل سالي المسكينة، التي أيقنت اليوم أنها فقدت زوجها إلى الأبد..

أما قاسم فكان يدخل في زمن آخر، زمن غريب لم يتوقع مجيئه..

(٨)

آه يا قاسم، ماالذي يحدث لك؟ اعتقدت أنهم يقوون جسدك لتعود إلى تماسكك، وقد رأيت تلميذك الشاب يقطع عليك حصارك، وتدمع عيناه لحالتك...

هل كان ذلك وهماً؟ إنك تشعر بآلام هائلة، وتغيم عيناك في ضباب تتراءى من خلاله النجوم الباهتة في ليل مظلم..

لم يدرِ قاسم بما يقوم به بيتر من تأخير عمليّة استئصال كبده، لقد أعطاه حقنة من السكر الصناعي أرهقت كبده، وجعلته في جحيم آخر من الآلام والهلوسات...

وجاء (صموئيل) ومعه المشرف الطبي الكهل، يستفسران عمّا حدث، ولِمَ تأخرت عملية استئصال الكبد، وقد أرسلت رسالة رسمية تؤكد حاجتهم إليه...

عرض عليهم (بيتر) تشخيصاً لحالته الحاضرة، مقروناً بالصور والمخططات، كان الكبد في وضع غير سليم، وهذا يعني أن استئصاله لن يكون ذا فائدة، يجب أن تتحسّن حالته ليعود إلى طبيعته السليمة قبل عملية الاستئصال...

- هذا تطوّر خطير في حالته... كيف حدثت له هذه الحالة الاستثنائية؟..

- يا دكتور، السجين فقد بعض أعضائه، ويبدو أن الأعضاء الباقية لم تتكيّف بعد مع وضع الجسم الحالي، يحتاج إلى راحة ومقويات ومراقبة طبيّة مستمرة حتى يعود إلى طبيعته، ويتكيّف جسمه مع الوضع الجديد... هذه معلومات يعرفها المبتدئون في علم الطبّ..

قال صموئيل غاضباً:

- كان يجب أن نستأصل الكبد أمس، لم تكن حالته سيئة...

- وعملية الاستئصال يا دكتور صموئيل تستدعي أن يتحملها المريض حتى آخر لحظة، حتى مرحلة قطع الأوردة والشرايين المتصلة بالكبد.. ولم تكن مضمونة أبداً...

قال الكهل:

- على كل حال تابع الاهتمام به، وليعاونك الدكتور صموئيل.. أرجو أن تتحسن حالته سريعاً حتى ننتهي من هذه المشكلة، ونرسل كبده إلى كاليفورنيا...

- حسناً يا سيدي.. أرجو أن يبذل الدكتور صموئيل جهده في تقوية جسم المريض ومراقبته جيداً حتى يبدأ بالتحسن فعلاً...

- سيكون هذا هدفي يا دكتور بيتر.. ولن أدخر جهداً في تحقيقه بأقصى سرعة..

ثم خرج غاضباً، اصطحب الكهل الدكتور بيتر إلى مكتبه..

ولم يغفل بيتر عن نظرات الحقد التي سددها (صموئيل) إليه، كأنه اعتبره مسؤولاً عن تأخير استئصال كبد قاسم الذي قام بعمل يعطل فيه إجراء مثل هذه العملية سريعاً..

صمم على القيام بشيء صاعق، يبعد بيتر تماماً عن المريض.. وكان بيتر في ذلك الوقت في مكتب المشرف الطبي...

- اسمع يا بيتر، لحظت أنك تتعاطف مع هذا السجين، وأنك قمت بعمل عطّل إجراء العملية، يبدو أن قراءاتك للفّه قد أنساك أنه سجين عندنا، ينتظر دوره في الموت...

- ماذا تقصد يا سيدي بقولك: إنني قمت بعمل عطّلت فيه إجراء العملية؟..

- لا يتأذى الكبد بهذه السرعة إلا من السكر الصناعي..

- لماذا تفترض ذلك يا سيدي؟ مع أن الوضع العام للمريض ليس مطمئناً، هناك خلل في معظم أعضائه.. القلب، الجهاز الهضمي، الصدر، الشرايين والأوردة، الكلية الباقية المضطربة.. كل شيء عنده غير طبيعي.. والكبد يتعرض لضغوط نتيجة الاضطراب الهضمي.. كل ذلك سبّب الخلل الظاهر..

- ربما.. ولكن فرضيتي، فرضية السكر الصناعي تظل ممكنة الحدوث أيضاً..

- كما تشاء يا سيدي..

ورنَّ جرس الهاتف قرب الكهل فرفع السماعة ثم وقف احتراماً:

- نعم.. احترامي يا سيدي..

قال الصوت على الطرف الآخر:

- ما الذي أخّر وصول الكبد إلينا؟ جهزوا المريض في المشفى هنا من أجل استقبال الكبد الجديد..

- حالة المريض غير مستقرة يا سيدي.. وكبده يتأثر بعدم استقرار حالته..

- الدكتور صموئيل، طبيب نثق به كثيراً، اجعله مسؤولاً عن سجينكم حتى نسرّع في تحسين حالته واستئصال كبده...

- أصبح منذ دقائق مسؤولاً عنه.. طلبت منه القيام بهذه المهمة..

- طيّب، حاول يا دكتور الإسراع بإرسال الكبد حين يحين الوقت المناسب.

- سأفعل يا سيدي..

وضع السماعة بانفعال:

- اسمع يا بيتر لم تعد لك علاقة بذلك السجين.. الدكتور صموئيل هو المسؤول الفعلي عنه.. هكذا أتتني الأوامر..

- كما تشاء يا سيدي.. سأقدم طلباً للنقل إلى مكان آخر..

- نقل؟ لماذا؟..

- لم أعد أتمتع بثقتكم يا سيدي.. وهذا سيؤثر في عملي..

- أنت جرّاح ممتاز يا بيتر.. وفي عملنا يجب ألاّ تطغى المشاعر الإنسانية علينا.. نحن عسكريون، يجب ألاّ نجعل للشفقة مكاناً في قلوبنا.. هؤلاء مساجين محكوم عليهم بالموت، نحن نجرّب عليهم بحوثنا وعلومنا.. تمهيداً لإعدامهم.. لن يبقى أحد حياً منهم بالتأكيد.. على كل حال إن رغبت بتقديم طلب النقل، ليس لدي مانع...

- سأفعل يا سيدي..

حالما خرج (بيتر) من المكتب، استقبله وجه (صموئيل) المتشفّي.. كأنه يعلم تفاصيل ما جرى.. قال ساخراً:

- ستنتقل من هنا؟ هه.. يمكنك البدء بالاستعداد لذلك، سيعيدونك إلى المشفى العسكري التابع للقوات البحرية في غرب البلاد.. إنه مكان منعزل..

- اسمع يا صموئيل، قدمت لك الكثير من العون في دراستك، وفي تدريباتك، ولم أتصوّر أنك تحمل مثل هذا الحقد على من ضحى بالكثير ليجعلك جراحاً ناجحاً..

غضب صموئيل:

- اسمع يا دكتور.. لولم تقم بتدريبي، ربما قام آخر أفضل منك بإعطائي ما أحتاج إليه من معلومات، وخبرة في الجراحة.. لماذا تعتبر مافعلته لي جميلاً، يجب أن أردّه إليك؟ فعلاً أنت مثير للسخرية..

كان بيتر يغلي من الغضب، وهو يستمع لنبرات مساعده الوقحة.. دخل غرفته، وتمدد على سريره، وقد شعر أن القهر الذي أصابه أكبر من أن يحتمل..

وبالتدريج بدأ يسترد هدوءه، وهو يفكر بالقيام بعمل يعطّل على (صموئيل) خططه ولو أدّى ذلك لتخريب كبد قاسم.. سمع طرقاً على الباب، أيقظه من شروده فنهض يفتح الباب..

- جون؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟..

- الدكتور قاسم، أدخل إلى غرفة العناية المركزة..

- ومن قال لك ذلك؟..

- أحد أصدقائي العاملين في تلك الغرفة...

- اسمع يا جون، اهتمامك بهذا السجين سيجلب عليك الويلات.. إنه ليس سجيناً عادياً، إنه محكوم بالإعدام... في سجله إدانة بالإرهاب..

- أعرف كل ذلك يا دكتور.. ولكني لن أقف مكتوف الأيدي، وأنا أرى رجلاً بريئاً أحبّه وأقدره، وقدم لي الكثير في حياتي، يساق للذبح كالخراف...

- كما تشاء.. ولكن لِمَ نقلوه إلى غرفة العناية المركزة؟..

- ألا تعرف السبب يا دكتور؟..

- مع الأسف لم تعد لي علاقة به.. أنت تراني اليوم، وقد لا تراني غداً، سينقلونني بتهمة الاهتمام بالمريض وتعطيل عملية استئصال كبده.. الدكتور صموئيل هو المسؤول الآن عنه.. وهو يرغب بانتزاع كبده اليوم قبل الغد..

- يا إلهي.. لا وقت لدي إذن...

- وماذا تنوي أن تفعل؟.. قد أساعدك..

- أنت؟ أنت تتهيأ للانتقال من هنا، ربما لا تستطيع التجوّل بحريّة..

- بالعكس لأنني سأنتقل لن يهتموا كثيراً بتجوالي... انتبه لنفسك وأنت تخرج.. جيّد أنك ارتديت اللباس الأبيض ووضعت الكمامة.. حتى لا تثير انتباه أحد.. اسمع يا جون سنلتقي بعد دقائق في غرفة العناية المركزة.. أمامي عمل سريع سأقوم به..

كان قاسم يشعر أنه يدخل مرحلة أخرى في آلامه.. وهو يراقب ذلك الطبيب حاد النظرات الذي يتابع حالته الصحية، باهتمام بالغ.. وقد تدهورت في الساعات الأخيرة..

رافقه إلى قسم العناية المركزة وكان على وشك الصراخ وهو يسمع ما يجري حوله من حديث...

- يجب أنّ نحاول إعادة القوة إليه وتأهيل الكبد من جديد، وتقوية خلاياه نحن نحتاج إلى هذا العضو ونرغب باستئصاله وهو سليم تماماً...

- سنحاول يا دكتور (صموئيل) أن نقدم أقصى طاقاتنا، لإعادة تأهيل المريض..

فكر قاسم برعب:

«يا إلهي سيستأصلون الكبد؟ أي إن ساعتي الأخيرة قد أصبحت قريبة لذلك فهم يحاولون إعادة تأهيلي كما يقولون.. لماذا لا أرى الطبّيب الآخر؟ كان وديعاً عطوفاً أكثر من هذا المتوحش..؟»

كان صموئيل يتبادل الحديث مع الممرضة التي سألته:

- هل أضع محتويات هذه الحقنة بالسيروم مباشرة؟..

- نعم.. وأضيفي إليه هذا المحلول أيضاً.. إنه غني بالفيتامينات..

- حسناً يا دكتور.. ومتى تنوون إجراء الجراحة؟..

- فور تحسن وضعه العام، وتحسّن وضع الكبد على الأخص...

- تبدو متعباً يا دكتور، يمكنك نيل قسط من الراحة في غرفتك.. سأظل على اتصال بك..

- لن أرتاح قبل إجراء مثل هذه العملية.. هناك مريض ينتظر كبد هذا المريض بفارغ الصبر..

- إنها غرفة العناية المركزة، نحن نبذل أقصى جهودنا فيها، العناية فيها تصل إلى حد ممتاز، وهي غنية بجهازها الطبي وأجهزتها المتطورة..

- حسناً سأجلس في غرفة الطبيب المناوب، وسأظل على اتصال مع أجهزة المريض المرتبطة به مباشرة.

- لا بأس يا دكتور.. وسأظل أيضاً على اتصال بك..

شعرت الممرضة أن اهتمام الدكتور صموئيل بهذا المريض زائد عن الحد فاستنفرت حواسها وهي تعرف أنه ليس من السهل التعامل معه، إنهم يهيئون

المريض لاستئصال كبده، لقد قال لها: إن مريضاً ينتظر كبد هذا المريض بفارغ الصبر... وحين شعر بيتر أن صموئيل ابتعد اقترب من سرير قاسم باهتمام:

- كيف الحال؟ هه.. المريض بخير؟..

- يبدو أنكم مهتمون جميعاً به.. من أجل استئصال كبده..

- أخبرك صموئيل؟..

- نعم.. وهو يشرف بنفسه عليه، إنه في غرفة الطبيب المناوب..

- حسناً.. يبدو وضعه طبيعياً، إنه يفتح عينيه..

- إنه زائغ البصر، يقاوم النعاس الذي يتعرّض له نتيجة المسكن القويّ الذي حقنه به الدكتور صموئيل مع المقويات..

واقترب جون منهما كان يرتدي لباساً طبياً كطبيب جديد يجب عليه أن يتقن هذا الدور..

سألت الممرضة:

- في أي قسم تعمل؟ آسف لم أعرفك، أنت تضع القناع الطبي..

قال بيتر:

- إنه في قسم (الهضمية)، مهتم بكبد المريض أيضاً.. إنه جديد قدم أمس

- ما الاسم دكتور؟..

قال مرتبكاً:

- إيليا.... كل شيء على ما يرام؟..

- نعم... نعم...

- ما الذي في داخل هذا السيروم؟ يبدو السائل متداخل الألوان...

- أحضر الدكتور صموئيل أمراً يخوله الإشراف الكلي على المريض.. هو من وضع المزيج في السيروم.

شدّه بيتر من يده بعيداً، وهو يقول:

- تفضل يا دكتور (إيليا) سنجلس في الغرفة المجاورة..

قالت الممرضة:

- أتريد شيئاً مني يا دكتور (بيتر)؟ أعتقد أنك من سيقوم باستئصال الكبد، أنت أبرع الجراحين هنا..

- شكراً لك.. أعتقد أن صموئيل هو من سيقوم بها، وليس أنا..

- إنه تلميذك.. أنت أكثر براعة منه..

- لا بأس، هو من تبنّى هذه العملية، وصمم على الانفراد بها.... تفضل يا دكتور.. بإذنك يا آنسة..

بدا الأمر صعباً لهما، وقاسم يخضع لمراقبة شديدة.. ولو اطمأن صموئيل على تحسن حالته، سيدخله إلى غرفة العمليات فوراً.. إنه متعجّل لاستئصال كبده وإرساله سريعاً.. قال جون:

- أمامنا الليل بطوله.. لن أهدأ حتى أنفذ ما في رأسي.. ولن أبالي بأي عقاب..

- أعتقد أنه الليل الأخير لقاسم هنا.. مسكين كل الظروف التي مرّ بها جعلت حالته ميؤوساً منها..

- سأبذل جهدي بكل ما أستطيع لأزيح هذا اليأس من أمامه.. أعدك يا دكتور قاسم بذلك، وليشهد الله عليّ....

(٩)

تمكنت زهرة أخت قاسم من أن تخفي معرفتها بنقل قاسم إلى (غوانتانامو) عن زوجته سالي، وبذلت جهداً مضاعفاً لتبدو على طبيعتها أمام سالي..

وكان الدكتور هاني يمر بمرحلة صعبة، وقد أيقن أن العالم مقبل على تغييرات مخيفة، وأن هذه التغييرات تطال كل الناس في كل زمان ومكان...

كان حديثه مع مديح قد أكثر من همومه، وحطّ عليه يأس من إمكانية انفراج هذه الأزمة الإنسانية الخانقة.. وخاصة أن جميع الدول بلا استثناء خضعت لابتزاز القوة العظمى الوحيدة في العالم...

وهو في مكتبه في المستشفى يرتاح بعد إجراء عمليتين جراحيتين، رن جرس الهاتف قربه..

- دكتور هاني.. أنا هدى.. كيف حالك؟..

- أهلاً يا هدى، منذ زمن لم نسمع صوتك..

- اتصلت بزهرة لم يجبني هاتفها النقال.. أردت دعوتكما إلى حفلة صغيرة أقيمها اليوم.. بمناسبة عيد ميلاد ابنتي، أكملت اليوم العامين..

- حسناً يا هدى.. سأخبر زهرة، ونحاول أن نلبي الدعوة...

- أحضرا هانياً الصغير معكما.. اشتقت إليه كثيراً...

- إن شاء الله، إن شاء الله.. شكراً لك.

وضع السماعة وهو يفكر:

«كدنا ننسى الواجب الاجتماعي وسط هذه الأحداث التي تعصف بنا.. إن مجيء سالي المسكينة إلينا، قد عزلنا عن الناس..»

وأتت ممرضته الخاصة، وقد هدرت أصوات القصف:

- دكتور هاني.. القصف قريب من هنا.. لماذا أنت جالس دون حراك؟ هيّا إلى الملجأ لا أدري أية أهداف جديدة يقصفون.؟

- ألن ننتهي من هذا؟ غربلوا مدننا بالقنابل.. بحجّة البحث عن إرهابيين.. ورصد تجمعاتهم، ورصد أماكن وجودهم..

- أسرع يا دكتور.. القصف يقترب من المستشفى..

- أمعقول أن يقصفوا المستشفى أيضاً؟..

- إنه قصف عشوائي.. اعتدنا ذلك..

- سيكون ملجأ المستشفى ممتلئاً، وحالات المرضى المستعصية تمنعهم من النزول إلى الملجأ.. مساكين، سيؤثر الرعب المستمر في حالتهم، بعد كل قصف..

- تفضل يا دكتور.. نسيت أن أشكرك على الجراحة الناجحة التي قمت بها في السادسة صباحاً.. المريض بحالة جيدة، إنه أخي.. نحن متفائلون، بعد نجاح العملية لم يسبق أن انتكس مريض من مرضاك.

☆ ☆ ☆

ترددت زهرة بالموافقة على دعوة هدى... لم ترغب أن تترك سالي وقاسماً الصغير وحدهما.. كما لم ترغب باصطحابهما، فهي تخاف على سالي في زمن كثر فيه البصّاصون والمخبرون، قد يعرفها أحد ويبلّغ عنها...

ولكن هانياً أقنع زهرة بالموافقة، وقد شرح الأمر لسالي.. التي شجعتهما على الخروج وعدم ربط وجودها بنشاطاتهما الاجتماعية، مؤكدة أن ذلك يريحها..

وبعد أن انتهى هاني من عيادته اتجه صوب البيت ليصطحب زهرة وهانياً الصغير إلى منزل هدى، ثم اتجهوا إلى الطرف الآخر من المدينة، كانت هدى تسكن وزوجها في منطقة التوسع الجديدة في إحدى الضواحي.. وفي الطريق لاحظ هاني آثار القصف والدمار في الأحياء الشعبية التي مرَّ بها.. كانت مشاهد مؤثرة والناس يحاولون إزالة الأنقاض والبحث بين الركام عن جثث ومفقودين وعن أثاث ومتاع يمكن إصلاحه وسط البقايا المدمّرة..

اعتاد الناس القصف، وأدمنوا على صفارات الإنذار والقذائف والانفجارات الصاعقة، كما أدمنوا الموت والخراب والدمار.. أصبح كل هذا جزءاً من حياتهم.. أصبح فقدان الأحبّة طبيعياً في أي وقت.. كثرت الهموم والوساوس والاكتئابات الموجعة..

أشفقت زهرة عليه، وهو صامت حزين يتأمل البيوت المدمرة، والأسر التي تلوب بين أنقاض البيوت المتواضعة.. إنهم يستهدفون المناطق الشعبية، في قصفهم، أكثر من غيرها، فهم يعتبرون الفقراء منبع الإرهاب، لأنهم يقاومون ويستشهدون ويتحملون المصائب والحصار والجوع والضنى..

لحظت زهرة دموع هاني الصامتة فشعرت بالإشفاق عليه، وشدّت على يده التي تمسك بالمقود، متأثرة من عاطفته المتأثرة بجو الناس البسطاء الذين وضعهم المعتدي هدفاً له، كأنه يريد مسحهم من الوجود، لأنهم يقاومون جبروته وعنجهيته...

وصل هاني إلى الضاحية الجديدة، وركن سيارته في أحد المواقف المجاورة للبناء البرّجي الذي تسكن (هدى) إحدى شققه.. واتجه وزهرة وهاني الصغير إلى أحد المصاعد التي تتوسط البناء، ليتوقف المصعد في الطابق العاشر حيث ضغط هاني الصغير على جرس باب شقة هدى، لينفتح وتغمره هدى بالقبلات وهي تحضنه..

بدت هدى متأثرة من مجيئهم بعد فترة انقطاع طويلة.. ولم يكن هناك من مدعوين آخرين.. كأن الحفلة مخصصة لأسرة الدكتور هاني الصغيرة... تكلمت هدى بدموعها الصامتة، وهي تشرح لهم وضعها وأسرتها :

- آه يا زهرة، كنت أتحيّن الفرصة للاتصال بكم.. وأنا خجلة من اقتحام عالمكم.. أعلم أن الدكتور هانياً منشغل باستمرار في معايناته وجراحاته في المستشفى، في العيادة، في الزيارات الطارئة.. كنت مترددة بالاتصال بكم حتى لا أقتحم عالمكم الهادئ كما ذكرت..

- أمعقول يا هدى؟ هل عالمنا يختلف عن عالمكم؟ نحن نعيش في زمن صعب، كلنا نعاني الهم والقلق وانتظار الفجائع في أي وقت.. مادام المعتدي مستمراً في طغيانه.. اهدئي أرجوك

- أنا وزوجي نعيش في عزلة، وسط هذا البناء المكون من خمسين شقة، علاقتنا مع الجيران مقتصرة على عدد قليل منهم، وهي علاقة رسمية غالباً، حتى في العمل.. الكل منشغل بنفسه بعمله بهمومه.. اختفت الابتسامة، وليس سوى الوجوم الحزين يسيطر على الوجوه الكالحة المفجوعة المضيّعة.. أي زمن صعب نعيشه؟ وماهو مستقبلنا؟ هل أضاعوا أحلامنا وأمنياتنا بغدٍ أفضل؟ أمعقول أن نعيش في وقت، اليوم أفضل فيه من الغد، وأمس أفضل من اليوم؟..

حاول عهد زوجها أن يهدئها :

- مابك يا هدى، هل دعوناهما إلى مأتم حزين ليس فيه سوى الأحزان وتبادل المعاناة؟..

- اعذرني يا عهد.. أريد أن أنفث عمّا في صدري، أكاد أختنق.. إنهما

أقرب الناس إلينا.. هكذا أشعر، أنا آسفة يا زهرة.. أنا آسفة يا دكتور هاني.. ربما كنت مبالغة في التعبير عن قهرنا ومعاناتنا..

- ماذا تقولين يا هدى؟ نحن في الدائرة نفسها من القهر والمعاناة.. بالعكس أشعر بإكبار لك وأنت تنفثين عن صدرك لتتحدثي إلينا.. وقد جعلك شعورك الصادق نحونا، تلقي بهمومك وحزنك أمامنا بعفوية صادقة....

خرجت للحظات تطمئن عن الصغيرين، ثم عادت وهي تقول:

- هاني الصغير مع أمينة إنه يداعبها.. وهي مسرورة معه..

سألها الدكتور هاني بجديّة:

- اسم الطفلة (أمينة)؟..

قال عهد:

- نعم.. هكذا ارتأت هدى أن تسميها، إنها ترغب أن تكون أمينة على نزعة الإنسان الخيّرة التي سنحاول تنشئتها عليها... ستكون هذه النزعة الخيّرة قدرها إن شاء الله..

(١٠)

غرق هاني في شروده بعيداً، وهو يسترجع أحلامه عن المستقبل، أمينة الصغيرة هذه هي ماضي أمينة الكبيرة التي يراها في أحلامه، أمينة التي علمته الدروس والعبر، وهو يقفز فوق الزمن في حلم خرافي.. أتكون هدى هي والدتها؟ آه من هذا الغد القادم... كم يبدو صعباً في تفاصيله المخيفة!

شعرت به زهرة وقد فوجئ باسم الطفلة، كما فاجأها الاسم أيضاً.. أتكون أحلامه التي كان يشاهدها باستمرار، هي أحلام تنبؤية تطل على عالم الغد؟ آه يا هاني.. كم أنت سيئ الحظ لتغوص في أحلام تخترق الأزمان لتطلّ

على عوالم خلف أبوابها يربض الرعب..

شدّت زهرة على يده توقظه من شروده ليعود إلى الجلسة الحميمة مع هدى وزوجها وقد انضم إليهم هاني الصغير وهو يمسك بيده أمينة...

- أمينة ظريفة جداً يا خالة..

- وأنت ظريف جداً يا حبيبي.. ساعدني يا عهد سنجهز للاحتفال الصغير..

قالت زهرة:

- سأساعدك أنا يا هدى.. اتركي عهداً مع هاني.. هناك الكثير من الأحاديث المشتركة بينهما بالتأكيد..

- معك حق.. وأنت يا حبيبي الصغير، عُدْ وأمينة لغرفة الحاسوب والألعاب..

قالت أمه:

- انتبه إليها جيداً...

فأجاب بثقة:

- لا تقلقي يا أمي.. إنها رائعة كثيرة المرح..

بقي الدكتور هاني وعهد وحيدين:

- مسكينة هدى، إنها تشعر بوطأة الحالة التي نعيشها.. تصوّر إنها خائفة على مستقبل أمينة، وتردد باستمرار أنها لن تنجب غيرها.. وأنا معها في ذلك..

- مع الأسف كل المعطيات التي بين أيدينا تؤكد أن الغد لن يكون سهلاً..

بل ربما سيكون شديد الصعوبة بالنسبة إلى الإنسان بشكل عام على هذا الكوكب..

- أتتذكر كم كنا متفائلين في القرن الماضي؟ كنا نعتقد أن المستقبل سيشهد اهتماماً أكبر بمشاكل الإنسان المستعصية، ويحاول حلها، سيشهد تفوقاً في تقنيات الفضاء واكتشاف الكواكب والبحث عن حضارات عاقلة تستوطن الكون.. سيشهد تفوقاً طبيّاً، تفوقاً في الانتصار على الأمراض والأوبئة، ومكافحة التلوّث وفوضى الخلل في التوازن البيئي... كأن كل تلك الأحلام ظلّت أحلاماً مستعصية على التحقيق..

- معك حق يا عهد في حياتي المهنية أكتشف دائماً أمراضاً معنّدة على العلاج، وحين أدرس الأسباب أكتشف المتاعب النفسية والتشاؤم والقهر والحزن.. والألم المكتوم عند المرضى، هو الذي يسبب عدم الاستجابة للعلاج...

- وهذا ما يؤثر في تنوّع الفيروسات وتنوع طرق انتشارها.. أليس كذلك؟

- بالتأكيد.. لحظت خلال السنوات الماضية أن أمراضاً جديدة لم تكن معروفة من قبل بدأت تظهر وتنتشر بين الناس.. ومع الأسف أغلب المرضى والمصابين هم من الطبقات الفقيرة، إنها طبقات يتجذر الهمّ والخوف في داخلها، وسط دوائر من الحصار وسحق الجانب الإنساني فيها..

- انقسم العالم بكامله يا دكتور هاني إلى قلّة من المتحكمين والتجار والمتسلطين والتابعين، يملكون كل شيء، وكثرة من الفقراء المضطهدين

المقموعين الذين لا أمل لهم في اختراق أسوار تطوقهم، أسوار من الخوف والقهر والاستلاب والعوز والجوع...

- المشكلة في هؤلاء الكثرة، لم لا يحطمون هذه الأسوار ويخرجون إلى الأمان والحرية والحصول على الحقوق المشروعة في كل القوانين الإنسانية، ولو أدّى ذلك إلى التضحية بملايين منهم.. مادامت القوة العظمى والتابعون لها، لا تجد من يقف في وجهها، كيف لنا أن ننتظر التغيير؟..

- معك حق...

وبدأت هدى وزهرة يدخلان الصحون والأطعمة والعصائر... اعتذرت هدى من زهرة بلطف:

- أتعبتك معي يا زهرة..

- كيف؟ أنا سعيدة جداً بهذه السهرة، وأتمنى أن تتكرر دائماً، رغم كل الظروف..

- معكِ حق، يجب أن نظل معاً في زمن عزّت فيه الصداقة والعلاقات الإنسانية.

تأمل هاني أمينة الصغيرة، وهو يقارن بينها وبين الصورة التي رآها في أحلامه عن أمينة الكبيرة، كما قارن بين صورة العجوز أمها وبين هدى الشابة زوجة عهد، شعر بتطابق الصور لدرجة فظيعة.. وعاد إليه شروده الثقيل.. وهو يسترجع أحداث أحلامه بفظاعتها، ويقارنها بالحاضر القلق الذي تعيشه الإنسانية الآن.. وتذكر عايدة، تلك الفتاة التي تشبه الأميرة الصغيرة التي تكرر ظهورها في أحلامه..

شعر أنه يرغب أن يزور عونياً ليتعرّف بحياتها وقد شعر أن شيئاً يربطها بالمستقبل..

(١١)

كان أمام بيتر عملاً خطيراً صمم على القيام به، لتأخير عمل استئصال الكبد من قاسم حتى لا يسهل الطريق أمام (صموئيل) الذي رآه يتصل باستمرار بالممرضة المناوبة يطمئن عن صحة المريض المتحسنة...

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً، وقد خلا قسم العناية المركزة سوى من الممرضة التي كانت تراقب حالة (قاسم)، وسوى طبيب شاب يطمئن عن حالة مريضين آخرين، أسرتهما القوات الخاصة من جبال في وسط آسية بعد إصابات بالغة..

كانت حالة هذين المريضين في تدهور، وقد أعطي كل منهما عقاراً في مراحل تجربته الأولى يمسح مافي الذاكرة من ماضٍ، ويحوّل المريض إلى كائن جديد أبله، ليست له علاقة بمحيطه.. هادئ مطيع، ينفذ ما يطلب منه بآلية لا تعرف التردد...

رغم أن المريضين عولجا من إصاباتهما وشفيا تماماً، إلا أن حقنهما بالعقار، جعلهما ينهاران في هذيان محموم، أثر في أعصابهما وفي دماغيهما تأثيراً أدخلهما في (غيبوبة) لم تنجح العقارات الأخرى في إنقاذهما منها..

وقد سمع صوت إنذار أحد الجهازين الموصولين بهما.. وهرع الطبيب الشاب، ليرى الهبوط الحاد في الضغط، وتباطؤ حركة القلب، وتضاؤل الاستجابة في مخططات عمل الدماغ والأعصاب.. وهو في حيرة من أمره شعر بيد توضع على كتفه.. فالتفت ليجد الدكتور بيتر ومعه طبيب آخر..

- الوضْع حرج للغاية يا دكتور.. الحالة ميؤوس منها..

- دكتور بيتر؟ أنا سعيد بأنك هنا.. لا أعرف ما أفعل؟..

- أعطه هذه الحقنة، سيسترد القلب عمله من جديد.. وربما ازدادت نسبة الاستجابة.. هه.. لا بأس، أنا سأحقنه بها..

- أنت أستاذ كبير يا دكتور بيتر..

ثم عرفه على جون:

- إنه الدكتور إيليا في قسم الهضمية، نحن نعمل معاً الآن..

عاد النبض إلى انتظامه.. ولكن الاستجابة الانعكاسية لم تتغيّر.. اقترب الطبيب المقيم من جون:

- أنا آسف يا دكتور إيليا.. فرصة طيبة أنت جديد هنا؟..

- نعم.. نعم.. أنا مع الدكتور بيتر منذ البارحة.. وصلت مع الأسرى الجدد..

قال بيتر:

- تبدو متعباً.. سأجعل الدكتور إيليا يناوب عنك لساعة، يمكنك الذهاب للاستراحة قليلاً.... لا تتردد لن يلحظ أحد ذلك..

- ما دمت أنت تقول ذلك، فلا بأس.. أنت ذو مركز كبير، وربما من أمهر الجراحين في القوات البحرية.. فعلاً أنا متعب.. سأرتاح بعض الوقت وأعود..

سأله جون بعد ذهاب الطبيب:

- كيف عادت ضربات القلب إلى طبيعتها بهذه السرعة؟..

- إنه إجراء سريع نقوم به، ولكن حالة المريض سيئة جداً، دقائق وتتدهور حالته، وهذه فرصتنا قبل أن ينتبه صموئيل.. يا إلهي.. أدر ظهرك واجعل وجهك في اتجاه رأس المريض، كأنك تفحصه.. صموئيل يخرج من غرفة استراحته.. إنه يتجه صوب سرير قاسم.. كن حذراً قد يأتي إلى هنا..

- لا تقلق يا دكتور بيتر..

كان صموئيل يتحاور مع الممرضة المناوبة:

- وضعه يتحسّن، أعتقد أن الصباح سيشهد جراحة استئصال كبده..

- يحتاج بعض الوقت أيضاً يا دكتور.. ما زال الوضع مشوشاً..

- أنا أراقب كبده، إنه في تحسّن مستمر.. حالته الأخرى لا تهمني.. انتبهي جيداً وإن حدث أمر طارئ نبهيني...

- يجب أن ترتاح يا دكتور، مادمت أنت من سيقوم بالجراحة، إنه عمل دقيق كما تعلم، سأوقظك إن طرأ شيء غير عادي على حالته..

- ومن قال لك: إنني سأجري له عملية الاستئصال؟..

- الدكتور بيتر.. لقد تكلّم عنك كلاماً أطنب فيه ببراعتك في الجراحة..

قال بغرور:

- الدكتور بيتر إنه محق، وقد عرف أنني ربما أتفوق عليه.. هه.. أليس ذلك الطبيب هناك، هو بيتر نفسه؟..

- يبدو أنها حالة طارئة استدعوه من أجلها، لقد ابتعد إلى الجانب الآخر...

- لا بأس.. انتبهي جيداً يا آنسة، أنا المسؤول الوحيد عن حالة هذا المريض...

- أعرف ذلك يا دكتور.. اطمئن.. اذهب واخلد إلى النوم بعض الوقت..

- حسناً... سأذهب..

تظاهر جون بالانكباب على فحص حالة المريض، وقد لحظ أن الدكتور

صموئيل توقف قليلاً على بعد خطوات منه ثم تابع مشيته البطيئة.. شعر بالعرق يتصببّ منه، ثم تنفس بارتياح، ونظر صوب سرير قاسم فرأى الممرضة تجلس على كرسي قربه، وهي تقلّب صفحات مجلّة ولا يبدو عليها التعب.. فشعر بالقلق ينتابه، وأنه مقبل على عملية خطيرة...

ولكنه استعاد رباطة جأشه بعد لحظات، وقد رأى بيتر يقبل في اتجاهه.. فتنفّس الصعداء، وشعر أنه ليس وحيداً...

- ألم يستوقفك ذلك الفضولي؟ ولم يلقِ عليك أية أسئلة؟..

- الحمد لله شعرت بنظراته تخترق ظهري، ولكن تظاهري بالانشغال بالمريض، جعله يستمر في سيره.. وماذا سنفعل الآن؟..

- اسمع يا جون، قررت أن أساعدك لإنقاذ هذا الرجل بعدما اقتنعت أنه مظلوم فعلاً، ولا يستحق هذه الوحشية التي يعامل بها ..، وأنا أعلم أن العملية التي اتفقنا على القيام بها تشكل خطراً كبيراً علينا... واحتمال نجاحها دون الانتباه لنا هو احتمال ضعيف، أتعرف ماسبب إرسالي للطبيب المناوب إلى غرفته للاستراحة؟..

- لا.. وهذا مايثير استغرابي؟..

- سأزيح الغطاء عن المريض، انظر جيداً.. له قامة قاسم نفسها.. وحتى وجهه مشعث الهيئة يشبه وجه قاسم، ربما لمنبتهما الشرقي.. قرأت المعلومات عنه في الشاشة ولفت نظري نوعاً من تطابق المواصفات بينه وبين قاسم..

- يا إلهي هذا يسهل عملنا كثيراً..

- استعد يا جون لدينا وقت حرج يجب أن نستثمره جيداً..

- والممرضة المناوبة قربه؟

- لا تقلق، احتطت لذلك جيداً..

وببراعة فائقة عالج بيتر موضوع زيادة التشابه بين المريضين، وكانت الممرضة المناوبة قرب قاسم تقلّب في المجلة التي أمامها، حين شعرت بنفحة هواء تعبر أمام وجهها، وشعرت بعدها بنعاس قاومته قبل أن تغرق في خدر لذيذ..

كان بيتر مشدوداً إلى الأجهزة المرتبطة بالطبيبين المناوبين، وأقل حركة قد تنطلق أجهزة الإنذار عند الطبيبين المناوبين، وأحدهما هو الذي يشكل الخطر الشديد على العملية.. الدكتور صموئيل..

قرر بيتر القيام بمبادرة سريعة، لحل هذه المشكلة.. وخدمه الحظ في ذلك.. وجرت أحداث متلاحقة..

وفي الصباح حين استيقظ صموئيل وجد الممرضة تهزّه، كانت الساعة تقارب السادسة، أكدّت له أن المريض بخير وجاهز للعملية..

كان خبراً ساراً له.. إذ نهض نشيطاً وعاين المريض وقد أكدت الأجهزة أن كبده سليم.. ولكنه لمح وجهه المشعث كوجه لوحته الشمس، كان شعر ذقنه وشعر رأسه قد تكاثف وازداد تشوشاً..

لحظ بيتر يقترب منه كأنه يريد أن يكلمه.. ثم أحجم عن ذلك ولوح بيده مودعاً فعرف أنه راحل، منقول.. كما تمنى هو ورجا السلطات لتحقيق ذلك.. شعر بالاستخفاف ولم يرفع يده ليلوّح له مودعاً.. بل أدار له ظهره باحتقار..

أما ماجرى حقيقة، فكان غريباً.. لو حكاه أحد من الناس لجماعة، لما صدقوه..

(١٢)

آه يا قاسم.. كم تعذّب هذا الجسد، وكم أثخنت الروح بالجراح؟ ما الذي يحدث لك الآن؟ لا ترى سوى الوجوه الكالحة من حولك.. وليس في الجسد ذماء من قوة.. أنت مهشّم تماماً.. زائغ البصر، تشعر بالخدر يتغلغل في شرايينك..

تلمح وجه جون تلميذك يبتسم في وجهك، ثم ترى ذلك الطبيب اللطيف يهز رأسه كأنما يشجعك وهو يحمل حقنة في يده، يقربها من ساعدك.. لا تشعر بها لكثرة الثقوب التي ثقبوك بها... تشعر برغبة في النوم، وتشعر أنك تسقط في هاوية ليس لها قرار...

☆ ☆ ☆

بسرعة كبيرة تعاونا لتبديل المريضين، وبذلا جهداً خارقاً في وصل الأسلاك والأجهزة وجون ينفذ تعليمات بيتر بدقة حتى لا يحدث خطأ... وبعد أن انتهيا حرك بيتر أحد الأسلاك المربوطة برأس قاسم، انطلق صوت الإنذار في غرفة الطبيب المناوب..

نهض متثاقلاً، ليتجه صوب المريض في غرفة العناية المشددة، كان وحيداً.. اقترب منه يفحص حالته، كانت كل الأجهزة صامتة، تدل على موته.. لم يدرِ ما يفعل، وحين رأى الدكتور بيتر مقترباً شعر بالراحة وقال:

- يبدو أن تلك الحقنة لم تنفعه طويلاً...

- حدث هبوط حاد في القلب.. إنه ميّت منذ نصف ساعة..

- وما العمل يا دكتور بيتر؟.

- أنت طبيب شاب، لا يجب أن تربكك مثل هذه الحالة... يجب أن تتوقع حدوث مثلها

الرجل مات، بعدما أجريت عليه اختبارات كثيرة، أصبح جسده بلا فائدة.. سأخابر من ينقل جثته من هنا.. اكتب تقريرك عما حدث ووقع عليه ولا تقلق..

ضغط أزرار الهاتف:

- أنا الدكتور بيتر.. انقلوا المريض المتوفي رقم /٢/ في غرفة العناية المشددة..

همهم الطبيب الشاب:

- شكراً لك يا دكتور بيتر..

رجا بيتر أن يكون تنكّر جون متقناً بلباسه وكمامته التي تغطي وجهه إلا عينيه، كان يجب أن يتحركا بسرعة قبل انبلاج الصبح.. وفعلاً حين وصل جون وهو يدفع عربة أمامه...

كان متنكراً بإتقان وهو يردد:

- لم يعد جسده ذا فائدة لكم؟ هه.. طلبوا مني وضعه في الغرفة المبردة تمهيداً لنقله إلى المحرقة.. سأنقله بواسطة هذا الصندوق المعقم.. المتحرك على عجلات..

سأله بيتر متظاهراً بالاهتمام:

- لماذا لا يساعدك أحد؟

- أنا المناوب الوحيد يا سيدي..

قال بيتر:

- حسناً.. سأساعدك

وضعاه في الصندوق المعقّم، لم يكن بيتر يشعر بالقلق على صحة قاسم، كما كان جون.. الذي شعر بالخوف لأول مرة في حياته.. وهو يدفع الصندوق أمامه إلى غرفة خلفيّة عرفه عليها بيتر، كانت أشبه بالمستودع الذي توضع فيه الجثث.. وكانت خالية في تلك الفترة..

استأذن بيتر من الطبيب الشاب بعد أن ساعده في كتابة التقرير.. ثم هرع إلى جون الذي كان يقف قرب الصندوق الذي يحمل جسد قاسم.. وهو يرتجف من الانفعال...

- مابك يا جون؟ المرحلة الهامة من عمليتنا انتهت على خير..

- ومرحلة الخروج من هنا إلى مكان آمن؟..

- ستكون مسؤوليتي، لا تقلق.. أنا واثق أننا أخرجنا أستاذك من دائرة الموت..

- وماهي المراحل التي ستقوم بها فيما بعد؟..

- سأحدثك عنها بالتفصيل.. لم يبق سوى نصف ساعة على الفجر.. وساعة أخرى حتى تبدأ العمليات أواثق من أن الصندوق غيرمصمت؟..

- افحصه جيداً أرجوك.. حتى أطمئن

- حسناً..

وبعدما تأكد بيتر أن كل شيء على مايرام قال مؤكداً:

- تكفي هذه الفتحات لا تقلق.. لن يستيقظ حتى أوقظه بنفسي، اذهب وتمدد لبعض الوقت، قبل أن يكتشفوا غيابك.. ولا تنس أن تقدم طلبك للإجازة السريعة، قد ننجح بالسفر معاً؟..

تنهد جون قلقاً:

- ليساعدنا الله في إنقاذ حياة هذا الرجل..

كان الأطباء يفحصون الجثة في القاعدة ويأخذون عينات منها، وكانت تجري تجارب كثيرة على تلك العينات من قبل علماء تخصصوا بالخليّة الحية ومكوناتها..

أما جثة من يجربون عليه عقاقير مقاومة لفيروسات أو جراثيم مزروعة في جسده، فترسل إلى مختبر الحرق مباشرة دون أخذ عينات، مخافة تسرب هذه الفيروسات أو الجراثيم إلى الخارج، بعد أن يستفحل خطرها.. ورغم كل الحيطة والحذر في حرق الجثث، كانت تجري عمليات رش مواد كيماوية تذيب المادة العضوية تماماً، فوق البقايا المحترقة وكان مختبر الحرق في جزيرة أخرى لا تبعد كثيراً عن غوانتانامو.

وقد تمكن بيتر من إضافة عبارة إلى تقرير الطبيب الذي كتب تقرير الوفاة، كانت تقول «جثة تحمل نتائج اختبارات بكتريولوجية خطيرة» ويعني ذلك أنها ستحرق وترش فوقها المواد الكيماوية المذيبة لكل أثر عضوي في البقايا المحترقة.. بل يعني ذلك أن الصندوق الذي يحوي الجثة معقّم، ويجب ألاّ يفتح أبداً. ذهب بيتر ليرتاح في غرفته بعض الوقت، وذهب جون متسللاً إلى المهجع الذي ينام فيه مع خمسة من رفاقه، كانوا يغطون في نوم عميق، وحين وصل إلى سريره، قرأ عبارة كتبها له أحد رفاقه «راجع السرجنت ماكاي فور استيقاظك» أقلقته تلك العبارة ولكنه غفا لشدة تعبه.. وغرق في أحلام كابوسية عن الموتى وغرف العمليات.. ورأى أجساداً مقطوعة الرؤوس، وبطوناً مبقورة وأيديَ مقطوعة.. ورأى وجوهاً مشوهة مرعبة المنظر.. واشتد وجيب قلبه وهو ينتقل بين المشاهد المفزعة، حتى صحا أخيراً على يد تهزّه انهض يا جون... مابك؟..

فتح جون عينيه مستغرباً فرأى وجه السرجنت ماكاي يطالعه وهو يبتسم:

- مابك؟ كنت تحلم؟ يبدو أن أحلامك كانت مزعجة كثيراً..

- بل كانت كوابيس مخيفة.. خير ياسرجنت، ماذا تريد مني؟..

- لاحظ رفاقك كثرة تغيبك عن المهجع، والنادي، منذ أن وصلت إلى هنا؟ ولاحظوا أنك كثير القلق والاكتئاب.. ماذا يحدث يا جون؟ هل أنت منزعج من وجودك هنا؟.. ألم تعتد على هذه الحياة بعد؟..

- لا.. ليس في استطاعتي أن أتعود الحياة هنا... أنا أمرّ بمتاعب..

- متاعب؟ لماذا؟ أبسبب وضع المساجين المزري؟..

- ربما.. أشعر بالانقباض دائماً حين أجبر على التعامل معهم.. لا أستطيع أبداً أن أتقبل الأمر..

- آه.. إذن سأقترح نقلك من هنا وإعادتك إلى القاعدة البحرية في الشاطئ الجنوبي الغربي..

- أكون ممتناً لك، إذا كان الاقتراح بنقلي سريعاً..

- لا بأس سأقدم ذلك غداً، وأعتقد أن العقيد بيل سيوافق على اقتراحي دون تردد.. إنها جزء من متطلبات الحياة هنا، الموافقة على التكيّف مع كل ظروف القاعدة الصعبة.. ومن لا يستطيع التكيّف يعاد إلى قاعدته الأصلية، وهذا ينطبق عليك؟..

- لماذا غداً يا سرجنت وليس اليوم؟

- تريد الذهاب من هنا سريعاً.. لا بأس سأقدم الاقتراح حالاً.. أنت تعلم كم أحترمك وأقدرك، وأنت الشاب المتعلّم المثقف الذي يرتبط بقضايا

الإنسان حتى في أحلك المواقف.. هه سأزور العقيد (بيل) بعض الوقت، وأرجو أن أراك بعد عودتي مستعداً لمغادرة القاعدة..

- حسناً يا سرجنت.. أقدم إليك منتهى شكري وامتناني..

- لا بأس.. أرجو أن أوفق في تحقيق مطلبك..

فكر متوتراً « أرجو أن أنجح في الخروج وأن يكون الصندوق الذي يحوي جسد أستاذي النائم، معي في المروحيّة التي ستقلني..»

☆ ☆ ☆

بسهولة غريبة وافق كبير الأطباء الكهل على إبعاد الدكتور بيتر إلى القاعدة البحرية في المنطقة الغربية، كما اقترح صموئيل للمسؤولين الذين يتصل بهم دائماً... ووجد بيتر نفسه متحرراً من قلقه وقد صدر الأمر بإبعاده، ورغم أنه كان مستمتعاً بعملياته الجراحية التي يقوم بها منذ بداية التحاقه بالمختبر الطبي..

إلا أنه كان يشعر بالأيام الأخيرة بثقل وطأة هذه المهمات الجراحية التي يقوم بها من استئصال عيون وكلى وأكباد.. وحقن أجساد كليلة بفيروسات وعقاقير ومواد كيماوية ودراسة تأثير ذلك فيها.. كأن شيئاً استيقظ في ذاته..

كأن شيئاً جعله يخرج عن رتابة جراحاته، ليفكر فعلاً في هؤلاء الناس الذين يجربون عليهم كل أنواع الاختبارات والتجارب الشديدة الخطورة، التي تحولهم إلى فئران مذعورة تعاني العذاب والضنى..

أيكون هذا الرجل الأربعيني، الذي كان أحد الأعلام المشهورين في اختصاصه هو السبب؟ هل أيقظ ذلك الرجل فيه أحاسيسه ومشاعره.؟ أم إن (جون) هو السبب بتعلقه العاطفي بذلك الرجل.. الذي حكى الكثير عن عبقريته وعن إنسانيته ومحبته للناس؟..

☆ ☆ ☆

في نحو العاشرة صباحاً كانت المروحية جاهزة لنقل الدكتور بيتر إلى جنوب نيويورك تمهيداً لنقله بواسطة طائرة نقل إلى القاعدة البحرية الشرقية.. كان وجون معه ينتظران قرب المروحية التي تتسع لعشرين شخصاً، بقية الركب الذي أعلن عنه (الكابتن هوارد) قائد المروحية..

وشعر بيتر بالدهشة وهو يرى الدكتور (صموئيل) مقبلاً وهو يتمايل مزهواً وهو يحمل براداً صغيراً فيه الكبد الذي استأصله، والذي كان من المفترض أن يكون كبد قاسم... نظر لـ (بيتر) باستعلاء وسخرية.

- ذاهب إلى القاعدة جنوب نيويورك حيث ستنتقل منها إلى الغرب؟..

- نعم.. تحمل الكبد الذي استأصلته؟

- لو انتظرت موافقتك، لما كان هذا الكبد بين يدي الآن.. سأسرع لإيصاله إلى ذلك الحاخام المريض.. وأحوز على رضاه وبركته.. إنهم ينتظرونني الآن بفارغ الصبر،.. أما مريضك الميت فسيستأصلون منه أعضاء أخرى..

- حسناً، أتمنى لك النجاح..

واقترب بعض الجنود يحملون صندوقاً أسود:

انفجر صموئيل:

- ماهذا؟ ماذا يحضرون أيضاً؟ ماهذا الصندوق الأسود؟..

- تابوت يحمل مريضاً ميتاً.. سيحرق في المختبر القريب..

- سينقلونه معنا؟ هذا مستحيل.. لن أوافق على ذلك.. ماهذا يا كابتن؟..

قال قائد الطائرة:

- إنها الأوامر يا دكتور..

اندفع مسرعاً إلى داخل المختبر الطبي:

- سأغير هذه الأوامر.. يجب أن يخصصوا لي حوامة تنقلني إلى المستشفى الذي أقصده..

علق قائد الطائرة على تصرفه:

- لماذا يتبجّح هكذا؟ ماذا يفعل هنا؟ هل وظيفته خطيرة إلى هذه الدرجة؟..

قال بيتر:

- إنه جرّاح، وكان تلميذاً لي، ولكن صلاته كبيرة مع المسؤولين هناك في العاصمة.. سترى كيف سيهيئون له حوامة خاصة...

- ماذا سنفعل الآن؟ هل سننتظره؟..

غمغم بيتر:

- لا أدري..

انفجر غاضباً:

- إذا لم يحضر هذا الطبيب خلال دقائق فسأنطلق بسرعة.. هل تعرف قيادة الطائرة يا جون؟ ملفّك يقول نعم.. ويضعك بين المتفوقين في مجال الإدارة والقيادة، حتى إنهم ذكروا أنك تتابع دراستك العليا في اختصاص علمي دقيق..

- نعم يا (كابتن)... أنا أعرف كل ماذكرته..

وأقبل أحد الجنود مهرولاً وهو يقول:

- يمكنك الانطلاق يا (كابتن)، سيذهب الدكتور صموئيل، لقد جهزوا له حوامة خاصة سريعة.. حتى لا يفسد الكبد الذي يحمله..

تنهد بارتياح:

- عظيم، يمكننا أن ننطلق الآن

ثم أدار المروحية منطلقاً:

- اربطا حزاميكما.. سنمر على مختبر الحرق قبل أن ننطلق صوب الشاطئ الشرقي جنوب نيويورك..

- ألن يساعدك أحد يا (كابتن)؟..

- لا داعي لذلك، إنه طيران نحو الساعة فقط..

قال جون:

- يبدو أنني سأهبط بصحبتك يا دكتور.. حتى جنوب المدينة الكبيرة..

وعلق بيتر:

- ستكون محطّة قصيرة لنا فقط.. ثم نتابع سفرنا بطائرة نقل إلى القاعدة الغربية..

- الطقس جيد، والطيران في هذا الطقس فوق المحيط سيكون ممتعاً..

- معك حق يا (كابتن)..

كانوا يطيرون هم الثلاثة، وقربهم الصندوق الأسود الذي يتمدد فيه قاسم، ولكن خلال دقائق شعر الكابتن (هوارد) بالنعاس.. وبدأت المروحية تتمايل فطلب من جون أن يقودها عنه، دون أن يفهم سبب هذا النعاس المفاجئ...

وهكذا أزاحه جون، وهو يشعر بفرحة كبيرة، وانطلق بمروحيته صوب مختبر الحرق في الجزيرة القريبة، فيما كان بيتر يفتح غطاء الصندوق ويخرج منه

قاسم الغائب عن الوعي، ثم يغلق الصندوق بإحكام، ويمدد قاسم في الجهة الخلفية من الحوامة.. وهكذا سلّم جون الصندوق الأسود للمختبر، فحمله العمال بحذر إلى المحرقة، وبعد أن عادت المروحية للتحليق انطلق جون صوب الشاطئ الشرقي إلى منطقة حددها له بيتر، حيث هبط بيتر وهو يحمل قاسماً بمساعدة جون الذي عاد إلى الحوامة، وانطلق بها إلى القاعدة وحين استيقظ (هوارد) وقد زال تأثير المخدر الذي وضعه له (بيتر) في كأس العصير غمغم معتذراً من جون:

- لا أدري سبب هذا النعاس المفاجئ الذي حطّ عليّ..

كان (جون) عندها قد أتم هبوطه في القاعدة، علق على كلامه:

- جيد أنني أعرف كيف أقود الطائرة، وإلا لتأخرنا كثيراً.. الدكتور بيتر هبط بسرعة.. لأن أحدهم بانتظاره كما قال.. وأنا سأودعك الآن يا (كابتن) لألتحق به..

- قل لي ياجون، هل أوصلتما الجثة إلى مختبر الحرق؟..

- نعم.. وأنا أعرفه جيداً بقيت فيه مدة أسبوعين.. في تلك الجزيرة الصغيرة

- جيد... أي إن المهمة تمت بنجاح..

- بالطبع، وقد وقعوا على محضر استلام الصندوق، وهذه هي نسخته لا تقلق كل شيء على مايرام..

شد (هوارد) على يد (جون) مودعاً، وقد رآه يتجه صوب إدارة القاعدة ليقدم نفسه.. ثم هبط إلى النادي يشرب بعض العصير البارد...

كان بيتر قد تكلم بهاتفه النقال ثم بدأ عملية إيقاظ قاسم.. في تلك المنطقة الغنية بالشجر القريبة من الشاطئ، فتح قاسم عينيه بعض الوقت، قبل أن

يغمضهما وهو يرى الطبيب يبتسم في وجهه سعيداً.. كان بيتر منشغلاً بإجراء اختبارات القوة عليه حين سمع ضجة وصخباً...

كانت هناك مجموعة من الناس تقترب من المكان، سحب قاسماً بسرعة وهو غائب عن الوعي، إلى داخل المنطقة كثيفة الشجر ثم ربض ينتظر وهو يشعر بقلق شديد...

(١٣)

تلقى الدكتور هاني اتصالاً من مديح.. كان يحمل تأكيداً أن يلتقيا في المقصف القريب لأمرٍ هام.. بعد انتهاء عياداته للمرضى.. وحين وصل المقصف متأخراً بضعة دقائق كان مديح قلقاً ملهوفاً..

- تأخرت يا دكتور، ليست من عادتك..

- أنا آسف، مريض أتاني في وقت استثنائي.. إنه مصاب بالتهاب السحايا.. اضطررت أن أتأخر من أجله..

- التهاب السحايا؟ هل بدأ بالانتشار هنا؟ ماذا يعمل ذلك المريض؟..

- إنه أول مريض أصادفه اليوم يشكو من التهاب غشاء الدماغ.. لماذا قلت: إنه بدأ بالانتشار هنا؟ هل هناك حالات عديدة في مناطق أخرى من العالم؟..

- نعم.. فيروس غامض يصيب الجنود في وسط آسية، بدأ ينتشر، وصل عدد الإصابات إلى (٥٤٠) شخصاً.. إنه يصيب السحايا، وله مضاعفات في الجهاز الهضمي...

- كيف؟ من المفروض أن أولئك الجنود يحظون برعاية جيدة.. طعام متكامل، راتب غذائي يحوي كل احتياجات الجسم.. أهم أسباب السحايا نقص فيتامينات (B بي)..

- أتعلم يا هاني؟ ثمة أحداث غريبة كثيرة تحصل في العالم.. ويتم إخفاؤها عن الناس من بينها تلك الأمراض الغريبة التي بدأت تنتشر.. هل أن انتشارها منظّم مبرمج من قبل القوة العظمى؟ أم إنها خرجت عن سيطرتها من مخابرها التي تهتم بدراسة الأمراض والأوبئة؟ ثم كيف يتم نشرها ضمن خطط الحرب الجرثومية التي قد تشن على شعب من الشعوب بقصد إبادته...؟

- يبدو الأمر غريباً فعلاً، وخاصة أن المريض الذي أتاني اليوم كان في حالة يرثى لها، خلال ساعات قليلة نهشت الجراثيم والفطريات جلده وأصابع رجليه وقدميه.. عدا عن إصابة غشاء السحايا الرقيق الشفاف الذي يحيط بالدماغ.. لم يكن أمامي إمكانية لعلاجه.. وهو ينهار بسرعة كبيرة..

- اسمع يا هاني.. نحن مقبلون على تغيرات خطيرة في العالم، تغيرات غير متوقعة في السياسة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجية والمرض والتجارب الخطيرة على الأنسجة الحية، واستعباد الشعوب وقهرها وحصارها وتحويلها إلى قطعان من السائمة...

- أهناك أخبار جديدة؟ أما زال قاسم في تلك القاعدة؟..

- أحمل خبراً سيئاً عنه، تشدّد يا هاني، وأرجو ألاّ تخبر زهرة بذلك، لقد مات قاسم، بعد أن استأصلوا له كبده بكامله.. ثم إرسال جثمانه إلى مختبر حرق الجثث كما وصلت إليَّ الأخبار..

شعر هاني بالحزن وهز رأسه:

- رحمة الله عليه، كنت أتوقع هذا الخبر منذ فترة.. إنها إرادة الله...

- في رأيي أجّلْ إخبار زهرة وسالي بعض الوقت.. لا بأس أن يستمر الأمل عندهما بعض الوقت..

- معك حق.. تبدو قلقاً؟ أهناك أخبار أخرى؟..

- لدي مهمة صعبة، سأسافر إلى وسط آسية لمدة (٢٠) يوماً.. إنه تحقيق صحفي عن حوادث غامضة تجري هناك، سألقاك فور عودتي..

- حوادث غامضة؟ لا بد أنك ستجمع الكثير من الأسرار.. مسكين قاسم كان فضولياً أيضاً كما حكت لي زهرة، وكان يهتم بكشف الأسرار.. وربما هذا الذي جعله يستمر فترة غير قصيرة مع تلك المنظمة الأخطبوطية، التي أوردته إلى تلك الميتة الشنيعة...

- لا تقلق أنا أعمل في الصحافة، وأعرف كيف أكشف الأسرار، وأجمعها دون أن يشكل ذلك خطراً علي.. أشكر لك مشاعرك الفياضة يا هاني...

- أنت صديقي الوحيد الذي أتكلم معه بملء حريتي، بصوتٍ عالٍ، سأنتظر عودتك بفارغ الصبر، اهتف لي متى تجد وقتاً مناسباً..

- إن شاء الله..

(١٤)

كان جون قد استقل سيارة أحد أصدقائه متجهاً إلى الجنوب صوب المنطقة التي أنزل فيها بيتر قاسماً.. وكان يقودها مسرعاً يفكّر بقلق بحالة قاسم أستاذه، وقد أكبر تضحية بيتر في مشاركته له هذه المغامرة الخطيرة.. بعد نحو نصف ساعة، كان يجتاز الدغل صوب تلك الفسحة على الشاطئ، حيث أنزلهما من الحوامة..جال بعينيه، لم يرَ أحداً، فأخذ يصرخ منادياً بيتر.. وكاد ييأس وهو يجول حائراً قلقاً.. حين رأى امرأة تتجه صوبه..

كانت في عقدها الرابع ترتدي بنطالاً وسترة من اللون الكحلي الغامق نفسه.. وترتدي حذاءً رياضياً وقبعة.

- السيد جون؟ كأنك كنت تنادي على بيتر؟..

- نعم أنا جون.. أتعرفين بيتر؟..

- استقل سيارة أحد السكان المقيمين هنا، صوب (الشاليهات) القريبة... طلب مني مرافقتك إلى هناك..

- شكراً لك.. هل المكان بعيد؟..

- لا.. يمكننا السير إلى هناك، لن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق..

- سيارتي تتوقف هناك، سنستقلها، تفضلي..

وصل جون والمرأة إلى (الشاليهات).. وأشارت إليه المرأة أن يتوقف عند أحدها، حيث وجد بيتر بانتظاره مع امرأة أخرى.. حيث أدخله إلى غرفة داخلية ليجد قاسماً ينام بعمق، وقد طمأنه بيتر أن وضعه الصحي يتحسّن... وأن من الضروري إبقاءه هناك بعض الوقت حتى يسترد صحته..

- هذه (لارا) ابنة عمي، وهذه (مادلين) أختي التي رافقتك.. اتصلت بها من الحوامة بواسطة الهاتف النقال تذكر ذلك جيداً، هي التي حدّدت لي المنطقة التي هبطت فيها... يمكنك الحديث بحريّة دون قلق أو خوف.. مادلين ولارا تقيمان في المدينة القريبة، وهذا (الشاليه) ملك شخصي لمادلين..

- تشرفنا.. كيف حال أستاذي ومعلمي؟..

- لا تقلق ستشرف عليه مادلين ولارا حتى يستعيد قوته.. وقد نلتقي معه بعد أيام لِنبحث في أمر وجوده هنا، وإقامته، وماذا يرغب أن يفعل في المستقبل وسط هذه الظروف الأمنية البالغة الخطورة عليه..

- لا بأس.. مادمت مطمئناً إلى أنه في منأى عن الخطر هنا..

قالت مادلين:

- (الشاليهات) شبه خالية هنا، لم يبدأ موسم الاصطياف بعد، هذا يعني أن المنطقة بعيدة عن أعين الفضوليين..

قال بيتر:

- يجب أن نتابع طريقنا معاً صوب القاعدة لنستقل الطائرة إلى الشاطئ الغربي..

سأل جون:

- ألا يمكن أن أتبادل الحديث معه، لأشجعه على المقاومة والصمود، حتى يسترد صحته سريعاً؟ سيشعر بالأمان إن رأى وجهي..

- لا بأس.. تفضل..

انسحبت مادلين:

- سأجهز بعض الطعام لكما لا بد أنكما جائعان.. تعالي معي يالارا..

هزَّ بيتر برفق:

- استيقظ يا دكتور.. جون يرغب في الحديث إليك..

فتح عينيه:

- آه.. أين أنا؟ جون.. أنت؟ ماذا أفعل هنا؟ أمازلت في المستشفى، متى سيعيدونني إلى السجن؟..

- لا تقلق يا دكتور.. لقد استطعنا تهريبك من جحيم تلك القاعدة.. أنت الآن في أمان.. يجب أن تسترد صحتك سريعاً.. هناك من سيعتني بك جيداً هنا، لا تخف من تبادل الحديث مع من هنا بكل حرية.. سأغادرك والدكتور بيتر إلى قاعدتنا البعيدة، نحن جنديان وعلينا الالتحاق بعملنا..

- آه.. فهمت.. أمعقول أنني حرّ الآن؟ لقد فعلتها يا جون، وأرجو ألاّ يشكل ذلك خطراً عليك وعلى هذا الطبيب الشجاع..

وأشار إلى بيتر، طمأنه جون:

- لا تقلق يا دكتور.. إن شاء الله ستسير الأمور معنا على مايرام..

ونادى بيتر مادلين ولارا ليعرفه بهما:

- أختي مادلين وهذه ابنة عمي لارا.. ستشرفان على العناية بك، أنت مازلت متعباً، عد إلى النوم وحين ستستيقظ ستتناول وجبه شهية تعيد إليك حيويتك... ستقدم لي (مادلين) تقريراً يومياً عنك وعن تحسن حالتك الصحية بالهاتف النقال، عد إلى النوم الآن.. وضع في ذهنك أنك في أمان هنا.. في أمان تام..

غامت عينا قاسم بالدموع وهو يشعر بأصابع جون تشد على يده، وقد عرف أن هذا الشاب يحمل قلباً ناصع البياض، فيه من الوفاء والإخلاص مالم يتوافر في ملايين البشر.. تقلّب بعد خروجهما ثم عاد إلى النوم بعمق، وهذه المرة كان نوماً خالياً من اليأس، وطالعته صورة (سالي) تبتسم له مشجعة، وهي تحمل طفلاً صغيراً يشبهه إلى حد بعيد فشعر بالأمان والرضا..

(١٥)

كانت سالي في تلك الأثناء، تربت على طفلها لينام وهي تتحادث مع زهرة.. بعد أن عادتا من الملجأ بعد غارة جوية استمرت نصف ساعة من قبل طائرات متطورة، تعودت على شنّ هذه الغارات منذ زمن طويل، ملاحقة كما يدعي من يعطون طياريها الأوامر، فلول الإرهابيين وأماكن تجمعاتهم ووجودهم..

كانت زهرة تحدثها عن انتشار مرض التهاب السحايا بين بعض الجنود الذين يقومون بعمليات ملاحقة وحصار لمن يقاومهم في وسط آسية..

- تعتقدين أنه وباء إذن؟.

- نعم يا سالي، إنه وباء قد يأتي على الكثيرين من أولئك الجنود هناك..

- أرجو أن ينتشر إذن بين الجنود الذين مازالوا في حصارهم وعدوانهم على الناس في فلسطين..

- مادام الوباء لا يصيب سوى الجنود، الذين يعتدون ويشردون ويدمرون الحياة من حولهم.. فسينتشر أيضاً بين هؤلاء المحتلين لمنطقة من شرق المتوسط، عانت منهم ومن قادتهم الكثير من الويلات، وسقط من سكانها الألوف من الضحايا، في مذابح منظمة، لم يعرف لها التاريخ مثيلاً..

- هاني ينشغل الآن بمكافحة هذا الوباء.. ولكن لماذا ينتشر هنا في بلادنا؟..

- هذا ما يثير استغراب هاني... وهو يحقق في الأمر بسرية مطلقة، يريد أن يعرف السبب بأي شكل من الأشكال، حتى تتخذ الاحتياطات اللازمة من سريان المرض بسرعة بين الناس..

- أعتقد أنه لا يصيب كل الناس، هناك فئة معينة منهم..

- سنعرف الجواب من هاني بعد أيام..

وجاء هاني الصغير ومعه قاسم الصغير، قال لأمه:

- أريد أن أرى أمينة.. لماذا لا نزورها؟..

- أمينة؟ ولماذا تتذكرها الآن؟..

- إنها ظريفة.. أنا أحبها، وليس لدي أخت... أريد أن أراها لنلعب معاً..

- حين يعود والدك سأجعله يدعوها وأهلها إلى هنا.. هه.. مارأيك؟

- وهل سيدعوها والدي؟..

- بالتأكيد يا بني، سأطلب منه دعوة أهلها لتناول الطعام معنا، اليوم أو غداً.. أعدك بذلك يا هاني..

قبَّلَ أمه واصطحب قاسماً معه وهو يعطو متثاقلاً وهاني يداعبه.. علّقت سالي:

- حكى لي كثيراً عنها، لا بد أنها فتاة ظريفة..

- نعم وأهلها ظرفاء أيضاً.. ولا أعتقد أن هناك مانعاً من دعوتهم لزيارتنا بوجودك.. هم أناس مثلنا لا يعرفون الغدر.. هدى أم أمينة امرأة رائعة..

- لا بأس، مادام هذا يريحك يازهرة..

- يريحني أن تظلي وقاسم الصغير، بيننا، سعيدة مطمئنة..

لم تستطع حبس دموعها:

- ليس لي أهل سواكِ يا زهرة.. أنتِ كل عالمي ..،

- ياحبيبتي الصغيرة.. لا تبكي أرجوك...

☆ ☆ ☆

كان الدكتور هاني منشغلاً باستقبال حالات التهاب السحايا التي بدأت تنتشر، وقد تذكر ذلك المرض الغريب الذي أصاب (عوني) في دماغه قبل أشهر، والذي تمكن من علاجه بالماء النقي بعد جراحة طويلة ناجحة في الدماغ..

كان مرضاً انتشر بين الناس قبل أن ينجح هاني وصديقه المخبري المتخصص من الوصول إلى علاج جذري، يقتل الخلايا النامية المنتفخة، التي لو استفحلت لقتلت المصاب بعد عذاب مضنٍ..

تذكره لعوني، وعايدة التي تشبه الأميرة الصغيرة التي كان يراها في أحلامه.. جعله يرفع سماعة الهاتف وهو في العيادة ليتصل به.. ويطمئن عنه..

- منزل الأستاذ عوني؟ هل هو موجود الآن؟.. أنا الدكتور هاني..

- أنا سعيدة بسماع صوتك يا دكتور، أنا زوجته...

- كيف حاله الآن؟ هل هو بخير؟ منذ زمن لم يتصل بي..

- الحمد لله صحته جيدة، وهو يتعب كثيراً في عمله كما تعلم، أصبحت متطلبات الحياة قاسية الآن... موضوع (عايدة) أتعبه كثيراً.. عايدة أختي تتذكرها..؟

- خير؟ مالذي جرى لعايدة؟ أحدث لها شيء لاسمح الله؟..

- إنه موضوع طويل، يصعب شرحه على الهاتف، ولكننا نرغب أن نلتقي بك مباشرة.. نحن مشتاقون إليك وإلى زهرة والصغير.. متى ستشرفنا يا دكتور؟ سنكون سعداء باستقبالك وأسرتك الصغيرة..

- شكراً لك.. لدي عمل متواصل هذه الأيام، المرضى يزدادون والوضع العام غير مطمئن..

- سأجعل عونياً يتصل بك وينسق معك موعداً لزيارتنا.. أرجو ألاّ ترفض ذلك يا دكتور.. لك دين علينا من الصعب أن نسدده.. لولاك لكان عوني غير موجود بيننا الآن، بارك الله فيك..

- لا تقولي ذلك أرجوكِ.. سأكون سعيداً بزيارتكم.. أنا بانتظار هاتف من عوني حتى ننسق معه موعد الزيارة... مع السلامة..

وضع السماعة وهو يفكر، ترى ماهو الموضوع الذي أتعب عونياً والذي يخص عايدة؟ يجب عليه أن يعرف الجواب سريعاً..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

زمن القوارض... والأوبئة المبرمجة

(١)

آه من هذا القهر الذي ينتابك ياهاني، وأنت تحمل هذه الهموم التي تكاد تثقل صدرك حتى إن شرودك وضياعك قد ازدادا، وأنت تنتقل بين الأمكنة، تتمنى لو تنسى قليلاً هذا الواقع الذي تعيشونه في زمن صعب بالغ التعقيد.. لايبدو فيه أي بصيص من أمل بعودة الإنسان إلى نزعته الخيرة.. الزمن يمضي بطيئاً محملاً بالأحداث المفجعة.. الاستلاب والاكتئاب النفسي، والفجيعة، عناوين كبيرة فوق كل مدينة وحي وشارع وربما عمّت الكوكب بكامله، مادام الظلم يمشي على هذه الوتيرة المتسارعة، ظلم القوة العظمى المرتبطة بأدوات تابعة، شديدة القسوة والوحشيّة على الجنس البشري، الرافض لأشكال البغي.. تلك القسوة التي أوردت الملايين إلى الموت بغارات جويّة وقصف، واعتقالات عنوانها " من يدخل سجونهم لايعود أبداً " ورغم أن هانياً لم يعد يرى أحلاماً، ولكن تلك الأحلام التي رآها مازالت تطارده بشخوصها وغرابتها.. كان منهكاً إثر معاينته عدة مرضى أصيبوا بالداء الجديد الذي أطلق عليه اسم (ديدان الموت).. والذي أخذ بالانتشار بين الأثرياء يأتونه بأسماء مستعارة ووظائف مجهولة.. حين دخلت زهرة إلى مكتبه في المنزل الذي جعله مكاناً للراحة والشرود والتفكير بقضاياه الكثيرة، والتأمل فيما يحدث للعالم من حوله..

- ألن تجلس معنا؟ هاني الصغير يرفض النوم، يريد أن يسهر ويتحادث معنا

قال متنهداً:

- لابأس يازهرة.. أنا متعب إلى درجة تفوق التصوّر.. أنا آسف ياحبيبتي.. أشعر أنني مقصّر بحقكما أنت وهاني.. ولكني أمرّ بأوقات عصيبة، هناك أشياء مرعبة تحدث..

سألته بقلق:

- هاني..أسمعت شيئاً عن قاسم؟ هل أعدموه؟

هز رأسه نافياً:

- الذي يشغلني لاعلاقة له بقاسم.. لم أسمع عنه أية أخبار جديدة، تعلمين أن (مديح) مسافر الآن، وربما لن يعود قبل مدة طويلة..

- أعلم أنه مصدر المعلومات.. إذن ما الذي يشغلك؟

- ذلك المرض الغريب الذي ينتشر بين الناس عندنا، وله مظاهر مرعبة.. كنت أعتقد أن البعوض هو من يسببه، ولكن الدكتور حمداً أبلغني هذا الصباح، أن أية حشرة يمكن أن تنقل الطفيلي المسبب له، بل حتى قد ينتقل في الهواء، هذا ماتوصل إليه حمد بعد دراسة عينات من المصابين.. والمدهش يازهرة أنه لايصيب كل الناس..

- ماذا تقصد؟ هل هناك أناس يقاومون الإصابة به؟

- إنه ينتشر بين طبقة من الناس ذوي النعمة، يقدمون لي أنفسهم بأسماء مستعارة وأماكن عمل مجهولة.. ولم أستطع أن أكون فضولياً أكثر من اللازم معهم.. لم يستطع المرض الذي يؤدي للموت أن يخفف من عدوانيتهم وشراستهم..

شعرت نحوه بعاطفة شديدة فخاطبته باكية:

- هاني..انتبه لنفسك.. ليس لنا سواك..

- أرجوك ياحبيبتي لاداعي للبكاء.. أنا طبيب من واجبي أن أواجه المرض وأقاومه.. من واجبي أن أعطي كل إمكاناتي العلمية لمساعدة المرضى.. بالطبع أنا أتعامل بحذر في معاينتي للمرضى الذين يأتون لعيادتي، أو إلى المستشفى.. هذا أمر بديهي لاتقلقي عليَّ.. آه.. قلت لي: إنك أخذت موعداً من أسرة عوني، لنزورهم غداً.. هذا خبر سار.. على الأقل سأتخلص من أسئلة مازالت ترهقني بخصوص (عايدة) التي تشبه (رادا) الأميرة الصغيرة، أو أمها الملكة..

- هاني الصغير ينتظرك..

- حسناً يازهرة.. أشعر أنني أظلم هذا الصغير الحبيب..

- إنه يعلم مدى انشغالك.. ورغم سنه الصغير إلا أنه يقدّر الأمور جيداً..

- جهزي لي فنجاناً من القهوة، سألتحق بهاني في غرفة الجلوس..

- أعتقد أنك تحتاج إلى كأس من العصير.. وليس إلى القهوة.. ولكن لابأس..

كان الصغير ينتظره وهو يحمل رزمة أوراق بين يديه:

- انظر ياأبي.. هذه شهادات تقدير لكل مادة من المواد قدمتها لي مديرة المدرسة أمام الجميع في الاجتماع الصباحي..

- بارك الله فيك يابني.. أعلم أنك متفوق.. وترفع الرأس.. كيف حالك مع الحاسوب؟ أمازلت تبتكر برامج جديدة؟

- أتسلى أحياناً بأوقات فراغي.. ولكني أحب القراءة أكثر من العمل على الحاسوب..

- كنت أعتقد أن الحاسوب هو شاغلك الرئيسي؟

- أنا أتفوق في استخدامه، وأستطيع ابتكار برامج جديدة في تعاملي معه.. ولكنه ليس شاغلي الرئيسي.. الكتاب أصبح شاغلي الرئيسي..

- بارك الله فيك.. وأتمنى أن تصبح متفوقاً في تقنيات الحاسوب في المستقبل، وهذا لايعني أنني أشجعك على الاهتمام به أكثر من الكتاب..

- أجد متعة كبيرة في القراءة..

- عظيم.. وقد تختص في برمجيات الحاسوب حين تكبر..

- لا.. كنت أفكر بذلك في الماضي.. ولكني الآن سأكرس كل جهدي لدراسة الطبّ ..

- دراسة الطب؟ لماذا؟ تعلم أن الطب مهنة متعبة، وربما ستصبح أكثر صعوبة في المستقبل مع انتشار الأمراض الجديدة، وازدياد تلوث الجوّ، والغذاء الصناعي وغير ذلك من المشاكل البيئية.. فيما التفوق في البرمجة هو العنوان الكبير لعصر المعلوماتية الذي بدأناه. آسف ياهاني..ربما كانت لغتي معك أكبر من أن تستوعبها الآن..

- أنا أستوعب كل شيء..أمي علمتني كل شيء.. إنها أروع أم في العالم.. وأنت أيضاً مثالي الأعلى.. لذلك سأدرس الطبّ، وأتخصص في جراحة الدماغ..

- مازال الوقت مبكراً على الاختيار، قد تغيّر رأيك في المستقبل؟

- لا ياأبي.. لن أغير رأيي..

دخلت زهرة تحمل القهوة وسألت الصغير:

- لن تغيّر رأيك بماذا ياهاني؟

- سيدرس الطب، ويختص بجراحة الدماغ.. تصوّري..

- هذا طبيعي، أنت المثل الأعلى بالنسبة إليه، ألست والده؟

- لاأريد أن يصبح مثلي، لا أريد أن يتعذّب ويعاني و..

قالت مقاطعة وهي تهمس:

- إنه قدره.. غيّر هذا الموضوع أرجوك.. ألا ترى شهادات التقدير التي يحملها، إنه يقدم لك تفوقه محاولاً الاقتراب منك..

- ياهاني.. ماذا تقرأ الآن؟ أما زالت القصص الغريبة تشدّك إلى عوالمها؟

- نعم ياأبي.. ولكني أقرأ في الخيال العلمي الآن.. إنه يتحدث بشكل أو بآخر عن المستقبل

- عن الفضاء وسكان الكواكب البعيدة؟

- هذه مواضيع طريفة، مسلّية أحياناً.. ولكن مايشدّني هو الخيال العلمي الذي يتحدّث عن مستقبل الإنسان وسط فوضى استخدام العلم.. ماهو تصورك لذلك ياأبي؟

- لاشك أن فوضى استخدام العلم قد تجلب الكثير من الكوارث للبشرية.. ولكنها ضريبة التطوّر العلمي غير المنضبط أحياناً..

وانبعث صوت رنين الهاتف الآلي، فرفع الدكتور هاني السمّاعة:

- مساء الخير ياعوني.. كيف هي صحتك؟

- الحمد للّه أنا بخير.. وسنكون سعداء غداً باستقبالك والسيدة زهرة وهاني الصغير..

- شكراً لك.. كيف هي عايدة؟

- أنا أتصل بك من أجل عايدة.. إنها تعتذر عن الحضور غداً.. ولا أكتمك أنني وأختها متضايقان من هذا الغياب.. أعلم أنك ترغب برؤيتها والحديث معها كما قالت لي زوجتي.. ولكني أعتقد أن غيابها لن يؤثر كثيراً في سهرتنا غداً.. إنها تمر بوضع صعب..

- وضع صعب؟ ماذا تقصد؟

- لا أخفي عليك أنها على علاقة بضابط كبير.. وقد يتزوجان.. ونحن نعارض هذا الزواج، لأنه متزوج وعنده أربعة أولاد أكبرهم بعمر (عايدة).. يبدو أنه أغراها بالهدايا الثمينة واللباس الفاخر وبحياة البذخ التي يعيشها..

- لابأس.. أتمنى لها التوفيق.. وبالطبع كنت أتمنى أن أراها غداً.. ولكن لابأس..

- نحن ننتظركم على العشاء، أرجوكم لاتتأخروا..

- ولكن.. قد أتأخر في عيادتي قليلاً.. ستصل زهرة وهاني مبكّرين.. وقد لا أستطيع القدوم معهما..

- لابأس سنكون مسرورين جداً بوجودكم.. زوجتي تبلغك والسيدة زهرة تحياتها.. تصبحون على خير..

أقفل هاني السماعة وهو يهز رأسه بأسف.. قالت زهرة:

- لن تكون عايدة موجودة غداً؟ هذا لم نحسب له حساباً..

- لابأس.. ماذا نفعل؟ قد نظفر باللقاء معها في المستقبل القريب..هه. عماذا كنّا نتحدّث ياهاني؟ آه.. عن الخيال العلمي وفوضى استخدام العلم.. وماذا تقرأ الآن؟

- أقرأ كتاباً اسمه كوكب العاصفة.. يتحدّث عن مستقبل التلوّث البيئي..

- أليس صعباً عليك قراءة مثل هذه الكتب.؟.

- إن لم يستصعب الموضوع فليقرأه.. لابأس أن يكبر على سنّه..

- معك حق..

ظل هاني الصغير ساهراً مع أبويه حتى وقت اعتبرته زهرة أنه زاد على حدّه، فطلبت منه الذهاب إلى غرفته والاستعداد للنوم، وبعاطفة جياشة ضمّه هاني إليه، وقد شعر أن ولده قد أصبح ناضجاً، وأن وعيه للحياة بهذا العمق يؤهله لرحلة التحدي في هذا الزمن الصعب.. بدا عليه الرضا وهو يتحادث مع زهرة وهما في الفراش..

- الفضل لك يازهرة.. أنت أم عظيمة.. ياإلهي كم أشعر بالسعادة لأنك إلى جانبي.. هذا الفتى الصغير قد يتفوق بوعيه على آلاف الرجال الناضجين.. أنت من ساهمت بصقل روحه النقيّة..

- لاتقل ذلك أرجوك، من الطبيعي أن أتفرّغ لرعايته بكل طاقتي، إنه جزء من حلمي وحلمك، أخاف عليه وأداريه، وأوجهه في زمن غادر، سيكون فيه وحيداً.. من الطبيعي أن أسلّحه بالمعرفة جيداً.. آه ياحبيبي، إنه يشبهك في كل شيء.. في تقاطيعه، مشيته، حبّه لبعض الأطعمة، قدرته على تحمل القراءة لساعات طويلة..

- وماذا عن رفاقه وأصدقائه المقربين؟

يبدو لي أنه اختارهم بعناية، ممن ينسجمون مع طبيعته وأفكاره.. إنه يشبه خاله قاسماً أيضاً في حبّه للفلك..في مكتبته جناح لابأس به من كتب الفلك.. آه قل لي ياهاني: أمعقول أن يكون حكم الإعدام قد نفذ بقاسم في (غوانتانامو)؟

أنا قلقة..حكت لي سالي أنها رأته في الحلم يرتدي لباساً أبيض وله جناحان..يحلق بهما بعيداً.. هي فسّرت هذا الحلم تفسيراً إيجابياً وأنا خائفة منه..

- ربطت بين الجناحين والموت؟

- نعم..ألا يمكن تفسيره بهذا الاتجاه؟

- لماذا التشاؤم؟ البياض في الحلم خلاص.. هه كيف حال سالي وقاسم الصغير؟

- أصبحا يخرجان، يختلطان بالناس.. قاسم في الخامسة من عمره الآن..

- يجب أن تكون حذرة..ربما عرفها بعض أولئك الناس الذين كانت تقابلهم إبان عملها في المنظمة.. ألم تنبهيها يازهرة؟

- إنها حذرة جيداً لاتخف عليها، وهي متكيّفة مع عملها الجديد..

- جيّد أنها تسكن في الشقة المجاورة لنا.. هذا يسهل الاتصال المستمر بها

- تبدو متعباً، حاول النوم ياحبيبي.. لديك عمليات في الصباح الباكر..

قال متثائباً :- نعم.. نعم..معك حق..

راقبته زهرة وهو يغفو سريعاً، وشرد بها الفكر إلى سالي، زوجة أخيها، إنها وحيدة مستوحشة، تعيش على أمل أن تربي ابنها جيداً.. وقد يئست تماماً من فكرة عودة زوجها إليها..آه ياقاسم.. لايبدو أنك ستعود إليها.. أنت الآن تحت رحمتهم وربما تنتظر تنفيذ حكم الإعدام بك في أي وقت..

شعرت برغبة في البكاء فأدارت وجهها بعيداً عن هاني وأخذت تنتحب بصمت..

(٢)

بدأ قاسم يستعيد صحته ببطء شديد وهو في منطقة (الشاليهات) المنعزلة التي لا يقطنها سوى عدد قليل من الناس في فصل البرد هذا.. وكانت لارا ومادلين تحاولان تقديم كل العون له ليستعيد عافيته..

ومرّت أشهر على وجوده هناك، ولم ير (جون) خلالها..فقط كان يسمع صوت بيتر يطمئن عنه بالهاتف، وحين كان يسأله عن جون، كان بيتر يعتذر له بأنه لايعرف عنه شيئاً..

وفي أحد الأيام جاء رجل غريب إلى (الشاليه).. كان قاسم يجلس في الشمس يتدفأ بحرارتها في شهر شباط من عام (٢٠٠٧).. لم تكن مادلين ولارا عنده ذهبتا لتتسوقا من القرية القريبة..

- أنت وحيد هنا؟

- خير؟ ماذا تريد؟

- اسأل عن امرأة كانت تقيم هنا..في هذا المكان..

- امرأة؟ أنا أقيم وحدي هنا منذ فترة طويلة..

- ولانساء معك؟ متأكد؟

- عمّن تسأل بالضبط، قد أستطيع مساعدتك..

- زوجتي،مادلين، إنها المالكة لهذه (الشاليه).. ألم ترها؟

- مادلين؟ أخت الدكتور بيتر؟ أنا آسف لم أعرف أنها متزوجة..

- آه.. ربما لأن غيابي عنها قد طال أكثر من اللازم.. كنت في السجن وهي لاتعرف ذلك..

- في السجن؟ لماذا؟

- إنه حديث طويل.. هل أنت صديقها الآن؟

فقال بارتباك:

- لا..لا.. أنا في مقام أخيها.. لاعلاقة بيننا كما تتصوّر..

وصل إليهما صوت سيارة مقبلة قال قاسم:

- أعتقد أنها قادمة الآن..

فتح قاسم الباب فوجدها أمامه:

- أرجو ألاّ نكون قد تأخرنا عليك يادكتور..؟

تفرَّسَتْ في مايك:

- من.. من أنت؟ مستحيل..(مايك).. أنت؟

- نعم..أنا مايك يامادلين، فعلاً أنا مايك، آسف على هذا المنظر لحيتي مشوشة طويلة وهيئتي ليست مرتبة..

انفجرت تبكي:

- أين كنت؟ لم لم تتصل بي بعد كل هذه المدة الطويلة؟ أكثر من عامين.. اعتقدتك مصاباً أو ميتاً؟

- أرجوك اهدئي.. كنت في السجن..

- ألم تكن مع القوات البحرية في شرق آسية؟ لماذا تقول: إنك كنت في السجن؟

- آه ياعزيزتي.. سجنوني بتهمة التمرد على الأوامر.. طلبوا مني تنفيذ مجزرة بعدد كبير من الناس العزّل بتهمة أنهم أفراد أسر الإرهابيين.. فرفضت وقد شعرت بالشفقة على أولئك التعساء..

كفكفت دمعها:

- أعرفك بالدكتور قاسم، إنه مريض أخي بيتر، أنا أعتني به ولارا.. تعرفها بالطبع؟

- نعم.. أنا أتذكرها، كانت تعمل في مكتب طيران..

- ومازالت.. حدثني عن سجنك وعذاباتك يامايك..

- آه يامادلين.. إنه حديث طويل متشعب، نحن ننفذ سياسة غاية في الوحشية، نريد أن نستعبد أهل الأرض جميعاً، والرافض لمخططاتنا نقتله ببساطة.. ويبدو أن القدر كتب علينا أن نساير قادتنا في مخططاتهم المرعبة، وألاّ نتمرد عليهم.. بل أن نصفق لهم ونشجعهم..

- سأجهز القهوة ونجلس جميعاً لنستمع لك يامايك..

- أنا لا أصدق نفسي أنني ألقاك بعد عذاباتي المرّة.. اشتقت إليك يامادلين.. تعذبت كثيراً حتى استعدت عافيتي..

حكى مايك عن المجازر الجماعيّة التي كانت تنفذ وسط سريّة مطلقة بعيداً عن الإعلام.. وحكى عن الأمراض المنتشرة بين الجنود، والتي يزداد عدد ضحاياها، وأنه كان محظوظاً لأنه لم يصب بها..

أمراض التهاب السحايا، والديدان التي تفقس تحت الجلد، وتسبب رعباً هائلاً للمصابين الذين يعانون ويتألمون بشكل يفوق الوصف..

شعر قاسم بأنه ينجذب نحو مايك متعاطفاً معه، وقد اكتشف صدقه وإنسانيته.. وتذكر جون الذي انقطعت أخباره، والذي كان عينة غير عادية من مجتمع تربّى على العنف، وأضاليل الساسة وخداعهم..

سهروا حتى ساعة متأخرة من الليل، واستأذنت مادلين ومايك في الذهاب

إلى منزلها في البلدة القريبة، كما اتجهت لارا لتنام في (الشاليه) المجاور.. تاركة قاسم الذي كاد يغفو على الأريكة الصغيرة في الصالة..

كان قاسم والمرأتان يشكلون أسرة صغيرة متعاونة متحابة.. ورغم أن المرأتين كثيراً ماتتركانه وحيداً، فإنه كان يشعر بأنهما تضحيان كثيراً بوقتهما وجهدهما وحياتهما من أجله. ولم يدر شيئاً عن الخطوة التالية في حياته.. إنه بانتظار بيتر وجون، ليقررا مصيره في بقائه فترة أخرى، أو في محاولة إخراجه وتهريبه من البلاد إلى حيث يعود لأسرته..

قضى ليلة مريحة نام فيها بعمق، ولم يستيقظ إلا على طرقات الباب، حيث أدخلت لارا إليه صينيّة الإفطار.. وهي تخبره أن جون سيتكلم إليه بعد نصف ساعة.. نظر إلى ساعته كانت تقارب العاشرة.. شعر بالتوتر وقد خمّن أن (جون) يحمل أخباراً لها علاقة بمستقبله..

حثته (لارا) على تناول الإفطار وهي تؤكد له أنه بحاجة أيضاً لزيادة وزنه فمازال جسمه نحيلاً، وعليه أن يثابر على تناول الطعام بنفس منفتحة.. مرّت الدقائق ثقيلة بطيئة وأخيراً رن الهاتف النقال الذي تحمله (لارا) كان جون على الخط..

- كيف حالك يادكتور؟ طمأنتني لارا عنك أنك بصحة جيدة..

- طمئني عن حالتك أنت ياجون؟ منذ أشهر لم تتصل بنا..

- منحوني إجازة بدءاً من العشرين من هذا الشهر، أنا في قاعدة بحرية في منطقة الخليج.. يبدو أنهم سيشنون حرباً على إحدى الدول المتمردة هنا.. سأكون سعيداً بلقائك ياجون.. سأتعرف على أخبارك بالتفصيل..

- إن شاء الله.. إلى اللقاء قريباً..

قال بعد أن أغلق الهاتف:

- سيأتي بعد أيام في إجازة..

- غريب كيف سيعطونه إجازة، مع أنه قال لي: إنهم يستعدون لشن حرب..

- ربما لن تشترك قطعته في هذه الحرب..

- يمكن.. ولكن هذا غريب فعلاً.. أنا ذاهبة الآن هل تحتاج شيئاً..

- لا..لا.. شكراً.. ستعودين في المساء؟

- بالطبع.. كالعادة..

رغب قاسم أن يطلب منها هاتفها النقّال، كان يرغب أن يسمع صوت زهرة أخته ويطمئن عنها، دون أن يستشعر الخطر من هذا الاتصال.. فهو في حكم الميّت عند المنظمة، ولن يشك أحد بوجوده على قيد الحياة.. ففي سجلاتهم أنهم استأصلوا كبده، وأحرقوا جثته كما أخبره بيتر..

صمم أن يطلب من لارا في المساء ذلك النقّال الذي تحمله، فأراحته هذه الفكرة وقضى يومه متوتراً بعض الشيء ينتظر عودة لارا بفارغ الصبر..

(٣)

تحدّث الدكتور هاني طويلاً بالهاتف مع عوني الذي دعاهم إلى زيارته، وحددوا موعد الزيارة ولم يكن سعيداً لعدم وجود عايدة.. رغم أن عونياً حكى الكثير عنها وعن علاقتها بذلك الضابط الكبير، وأنها مصرّة على الزواج منه..

وكان وهما يتحدثان عنها يتذكر ماقاله في التنويم المغناطيسي الذي تعرّض

له، وتأكد فيه أن (عايدة) ليست سوى الملكة في أحلامه.. ويبدو أنها ستتزوج هذا الضابط، ثم يتعرف بها الملك ويتزوجها، وتنجب منه (رادا)..قبل أن تقع تحت رحمة زاهي وسلطته بعد وفاة الملك..

عرف أن أحلامه المتواترة تتحدث عن أحداث حقيقيّة ستجري في المستقبل، إنها أحلام تنبؤية مذهلة.. لم يستطع تفسيرها بعد..

كانت الأمراض الغريبة تزداد انتشاراً في كل البلدان. أمراض تعنّد على العلاج، وتفتك بآلاف الناس، ولعل أغربها كان ذلك الداء الذي أطلق عليه هاني اسم (داء الموت)، والذي كان الدكتور نديم يسميه (ديدان الموت) وليس (داء الموت)، اكتشفوا أن بعوضاً من نوع غريب هو من يسببه، ثم أصبح الذباب نوعاً آخر من الحشرات يساعد في نقله، ثم تعددت أنواع الحشرات التي تساهم في انتشاره، وتأكد للدكتور نديم رئيس قسم التحليل المخبري في المشفى الذي يعمل به هاني، أن هذا الداء ينتقل بوسائل أخرى غير الحشرات أيضاً..

واستقبل هاني في اليوم التالي لزيارته لعوني، رجل شرطة تنتشر البثور في وجهه ويديه.. كان في حالة مزرية..

- أرجوك يادكتور، ساعدني أنا أموت.. أشعر بآلام لاتطاق، حتى المورفين لم يتمكن من تسكين آلامي.. قالوا لي: إنك عالجت بنجاح أحد الصبيان المصابين بهذا المرض

- اجلس هنا.. وحدثني كيف بدأ المرض عندك..

- كنت أشترك مع زملائي في عملية مطاردة أحد الإرهابيين، وقد تمكنت من حصاره وخفت أن يكون مسلحاً، طلبت منه رفع يديه.. فنظر لي بيأس وهو يقول:

- صدقني أنا بريء، ولست إرهابياً، أنا لا أستطيع قتل نملة.. إنها تهمة ملفقة أراد إخوتي من خلالها أن يرثوا كل شيء، وقد كتب والدي كل شيء باسمي..

سألته:

- ولماذا كتب كل شيء باسمك وحرمهم؟

- إنهم مجموعة من الفاشلين العاطلين عن العمل، استسهلوا الحياة فابتعدوا عن الدراسة وجروا وراء متعتهم، وبعضهم تطوّع في الأمِن، ولي أخ شرطي زميل لك

قلت له:

- اسمع لن تنطلي عليّ أكاذيبك.. ارفع يديك للأعلى سأضع القيد في يديك.. وستلقى جزاءك العادل..

حاول دفع التهمة عن نفسه:

- أقسم لك إني بريء.. أرجوك اتركني أهرب، لو قبضت عليّ سيحكم عليّ بالإعدام، لابد أنهم زوّروا وثائق تدينني.. أنا بريء أؤكد لك..

- لاداعي للمراوغة.. أبقِ يديك مرفوعتين..

سأله الدكتور هاني:

- وماذا جرى لك بعدها؟

- مدّ يده إلى جيبه ليخرج شيئاً، اعتقدته مسدساً، فأطلقت عليه النار فمات في الحال، وحين فحصت جيبه وجدته فارغاً سوى من منديل قماشي يبدو أنه حاول سحبه لمسح العرق المتصبب منه.. وبعد ذلك شعرت أن ذباباً صغيراً بلون أزرق يتكاثر فوقي ويحط عليّ.. ولابدّ أن ذبابة من المجموعة نقلت لي الفيروس. أنا أتألم كثيراً يادكتور أرجوك حاول أن تخلصني..

- البثور تنتشر في كل مكان..هيّا تمدد هنا.. يحتاج تنظيفها لوقت طويل، وبعدها سنخيط الجلد فوقها، وتأخذ أدوية تساعد على التئام الجروح.. هيا سأساعدك..

لم يستطع هاني أن ينظف كل البثور التي كانت تتكاثر بسرعة غريبة حتى حين يعالجها.. كأن اليرقات والبيوض المنتشرة تحت الجلد أكثر من أن تحاصر بعلاج.. ولم يطل الوقت حتى بدأ الرجل يتقلّب، وهو يعاني من آلام هائلة، ويبدو أن اليرقات التي فقست، نفذت إلى أجهزته الداخلية..

وعرف هاني أن لافائدة.. فالرجل سيموت سريعاً، لذلك تحدث مع من رافقه عن سوء حالته، وطلب منهم نقله إلى المنزل ليموت بهدوء..

كان هاني قد نجح في علاج بعض الحالات، ولكنه لم يصادف مثل هذه الحالة الصعبة، يبدو أن المرض يتخذ أشكالاً جديدة، يتكيّف فيها مع العلاج، ومع محاولات التصدّي له.. رن جرس الهاتف قربه.. فرفع السماعة..

- آلو.. نعم.. عيادة الدكتور هاني؟.. أنا عايدة.. آسفة يادكتور.. أنا أمر بفترة عصيبة.. سأتزوج بعد أيام سأرسل لك بطاقة الدعوة، وأرجوأن تشرفني بحضورك والسيدة زوجتك..

- لابأس.. سنذهب مع عوني وأسرته..

- عوني لن يحضر، إنه غير راض عن هذا الزواج هو وأختي.. ولكن أرجو أن تحضر أنت والسيدة زوجتك.. أرجوك..

- لابأس ياعايدة.. سأحاول الحضور إن شاء الله..

- سأمر على العيادة بعد غد ومعي البطاقة.. شكراً لك

أغلق السماعة مستغرباً إصرار تلك الصبيّة على مخالفة أهلها وقبولها الزواج من رجل يكبرها كثيراً.. أهو الطمع بالمال والشهرة والحياة السهلة؟

شعر أن القدر يدفعه ليرى أحلامه التنبؤية وهي تتحقق في زمن من أصعب الأزمان التي مرّت في تاريخ البشرية..

(٤)

وصل جون في العشرين من شباط إلى (الشاليه) الذي كان قاسم يقيم فيه.. وكان لقاءً حميماً بينه وبين أستاذه.. وقد حدثه عن غيابه وسفره إلى مناطق بعيدة مع مطاردات بحرية تقطع البحار، وهي تشهر أسلحتها في وجه العالم متحدية، وجاهزة للاستخدام في التدمير والقتل بلا تردد..

- حين عدت إلى القاعدة البحرية في الغرب.. تحركت مع إحدى القطعات بعد ساعات في اتجاه الغرب، حيث قطعت المحيط الهادي وتوقفنا في اليابان، و في سنغافورة وفي مرافئ كثيرة قبل أن نستقر في الخليج العربي.. كنّا في حالة استنفار دائم.. ويبدو أن التقرير الذي رفعه رئيسي المباشر في قاعدة (غوانتانامو)، من أنني لا أستطيع تحمل قتل الناس، أو رؤية الجثث أو السجناء.. قد فعل فعله، فقد أبعدوني من القاعدة وأعادوني إلى هنا.. ومعي ملاحظة في سجلي أنني لا أصلح للمعارك المقبلة.. وهذا ما أراحني فعلاً..

- أهلا بك ياجون.. لاتتصور كم أنا سعيد بلقياك..

- قل لي يادكتور هل أدّت لارا واجباتها تجاهك جيداً..

- لارا.. إنها فتاة رائعة.. لم تتعب من السهر علي..

وقف وهو يصرخ:

- لارا.. لارا.. تعالي إلى هنا..

أتت ملهوفة من المطبخ:

- ماذا ياجون؟ أنا أحضّر الغداء..

- سيكون الدكتور قاسم (إشبين) زواجنا.. لقد اتخذت هذا القرار الآن

- ماذا؟ هل أنت جاد ياجون؟

- نعم ياحبيبتي أنا جاد.. بل وفي منتهى الجدّية..

عادت وهي تضحك كمن سمع نكتة، إلى مطبخها، سأله قاسم:

- هل كنت تعرفها من قبل؟

- لا.. من كلامك المطمئن عنها.. أنها فتاة رائعة قد تسعدني كزوجة..

دخل إليها يؤكد أنه يتحدث بجدية فقالت له بهدوء:

- رغم أن الدكتور قاسماً حدثني عنك كثيراً، فمازلت بحاجة إلى الوقت لأكتشف شخصيتك وعالمك..

- خذي الوقت الذي تشائين.. أعتقد أنهم سيسرحونني من الجيش بعد أشهر ربما بسبب عدم قدرتي على القتل..

- ساعدني في تحضير الطعام.. أحتاج إلى مساعدتك..

- حالاً ياعزيزتي.. سأكون سعيداً بوجودي إلى جانبك..

أخذت تضحك:

- تحولت فجأة إلى عاشق، هذا غريب فعلاً..

- ليس غريباً..أنت فتاة رائعة يالارا..

كان قاسم يفكر مستغرباً: - «كم يبدو جون غريباً بانجذابه نحوها، كأنه شاب شرقي رومانسي يتعلّق بفتاة جميلة كريمة الخلق»

قضى جون ليلته مع الدكتور قاسم، ولارا تجهد في إسعاده، وفي الصباح الباكر فوجئ بحضور بيتر الذي كلن يحمل أخباراً كثيرة، قضى وقتاً طويلاً في معاينة قاسم، قبل أن يتنهد بارتياح معلناً أن وضعه الصحي مطمئن..

ولم تكن الأخبار التي يحملها بيتر عادية، كانت تحوي مفاجآت لم يتوقعها أحد منهم، تؤكد أن القوة العظمى مستمرة باستهتار في سياسة السيطرة والقمع ونشر عينات من الحكام أطلق عليها مديح صديق هاني أسماء مثل قارض (١) وقارض (٢) وقارض (٣)..

قوارض تتكاثر وتزداد مقدمة فروض الطاعة والولاء لسادة القوة العظمى الذين يبالغون في استعباد الشعوب المقهورة..

(٥)

كان الهواء شديد البرودة، وقد بدأت ندف الثلج بالسقوط حين تحرك هاني بسيارته مع زهرة وابنه الصغير في اتجاه بيت عوني.. كانت الشوارع شبه خالية، وقد لجأ الناس إلى منازلهم هرباً من البرد..

وتساءلت زهرة عن إمكانية تكدس الثلج وإغلاق الطرق الخالية، خلال فترة زيارتهم لعوني، إلا أن هانياً استبعد الفكرة تماماً..

- يلزمه عدة ساعات حتى يتجمع.. ألا ترين لم يعلق في أي مكان، حتى على حشائش الأرصفة؟

- كنت أطمئن فقط، على كل حال لن نقضي وقتاً طويلاً هناك..

قال هاني الصغير:

- إنهم لطفاء وطيبون، وأشعر أنهم يحبّون أبي بصدق..

قالت زهرة:

- نعم يابنيّ، يشعرون بعرفان جميل تجاه والدك، لقد أنقذ العم عونياً من الموت..

- لديه أولاد في سنك قد تقضي وقتاً مفيداً معهم، إنهم متفوقون كما أعرف..

وأكملت زهرة:

- نعم.. الابنة الكبيرة في الجامعة تدرس الحاسوب..والذي يليها، ماهر، في الثانوية العامة، وأخته (نادية) في سنك ياهاني..

علق الفتى:

- نعم.. نعم.. إنها متعلقة بالقراءة كثيراً.. ولكنها لاتقرأ سوى قصص المغامرات والقصص العاطفيّة..

- وكيف حصلت على هذه المعلومات ياخبيث، ونحن لانزورهم إلا نادراً.؟.

- إنها تثرثر معي أحياناً على الهاتف..

أخذت زهرة تضحك، وهي تردد كلامه، فقد عرفت أنه يعرف الكثير من المعلومات عن الفتاة.

استقبلهم عوني وزوجته استقبالاً حارّاً، وجلسوا في غرفة الاستقبال الواسعة يتحادثون، وقد ذهب الأولاد إلى غرفة الحاسوب يتبادلون الأحاديث..

عرف هاني أن عايدة رجت أختها أن تحضر وزوجها حفل الزفاف.. ولكن رفض عوني كان قاطعاً..وقد علّق عوني على ذلك بالقول:

- تصوّر يادكتور، أن فتاة مثل (عايدة) ستتزوج من ضابط كبير في سن والدها ولديه زوجة وأولاد يزيد عددهم على الثمانية.. ألأجل السيارة والجاه؟ هي ليست مضطرة لذلك..

علقت زوجة عوني:

- لابد أنها دعتك لحضور حفل زفافها يادكتور؟

- نعم..نعم.. قالت: إنها ستمر على العيادة غداً لتحضر بطاقة الدعوة..

- إنها ترغب أن تجمع حولها عدداً من أصدقائنا للدلالة على أن أهلها مستاؤون فقط وليسوا رافضين لزواجها..

تنهدت زوجة عوني:

- مسكينة عايدة، إنها تتخبط في حياتها.. ترغب في الصعود بسرعة على سلم الشهرة والمال بأقصر وقت ممكن.. إنها عينة شاذة من عائلتنا..

لم تستطع منع نفسها عن البكاء:

- كانت الطفلة المدللة التي لايرفض لها والدي طلباً..

قال عوني مخففاً:

- هوّني عليك.. إنه خيارها..

قال هاني:

- إنه زمن صعب يخبئ الكثير من المفاجآت حتى في سلوك الإنسان..

قالت معتذرة:

- أنا آسفة، تملكني الانفعال، عايدة كانت بمثابة ابنتي.. أنا من ربيتها بعد وفاة والدتي..

ورن جرس هاتف هاني النقال وظهر رقم المستشفى عليه.. ضغط على الزر ليسمع صوت الدكتور نديم:

- أنا آسف يادكتور هاني، إنها حالة طارئة..نحتاج إليك في الحال

- خير؟ ما الذي حدث؟

- مريض بمرض غريب آخر، قنبلة جرثومية جديدة أسقطت قرب النهر في منطقة كثيفة السكان.. أكّدَ أحد رجال الصحافة أن تصريحاً صدر عن القوة العظمى يؤكد أن المنطقة فيها خلايا إرهابية..

- هل هو متقدم في السن؟

- إنه شاب كان قريباً من موقع القنبلة.. امتصّ الصدمة الأولى من الفيروسات المنتشرة.. إنه الأخ الأصغرلزميل لنا.. الدكتور حمد..

- آه.. أنا قادم حالاً..

نهض معتذراً:

- آسف ياجماعة.. هيا يازهرة أحضري هانياً، يجب أن أوصلكما إلى البيت، وأتجه إلى المستشفى..

قال عوني:

- يمكنك الذهاب إلى المستشفى، سأوصلهما أنا وزوجتي فيما بعد..

- الثلج يتساقط بغزارة، وبيتنا بعيد.. أخاف أن تسدّ الثلوج الطرقات.. شكراً لك ياعوني.. المريض هو أخو الدكتور حمد صاحب المخبر الذي اكتشف علاج مرضك ياعوني..

- الدكتور حمد؟ آه.. إنه رجل عبقري.. ماذا حدث لأخيه؟

- إنه مصاب من جراء قنبلة فيروسيّة.. يعلم الله نوع الفيروسات تلك.. وأعراض الأمراض التي تسببها.. سأستفسر عن المنطقة من طبيبة المستوصف المقام هناك..

ضغط على أزرار هاتفه النقال:

- آلو.. دكتورة سعاد؟

- دكتور هاني..أهلاً بك.خير؟ آه تريد أن تعرف ماذا حدث؟

- نعم يادكتورة.. يريدونني في المستشفى من أجل حالة طارئة وردت من عندكم ..

- ألقوا قبل الظهر في نحو الحادية عشرة قنبلة انفجرت بصوت قوي قرب النهر، دون أن يسبب انفجارها أذى مباشراً، ولكن الهواء بدأ يحمل رائحة غريبة أشبه برائحة تفسخ الجثث.. وهذا مادعا رئيس البلدية، لإرسال عماله للبحث عن مصدر الرائحة.. ومع الأسف حين اكتشفنا أن الروائح ليست سوى فيروسات محمولة على مواد متطايرة.. كان عدد كبير من الناس قد بدؤوا يشعرون بالدوار.. والغثيان..

- هذه هي الأعراض الأولى؟

- نعم.. وقد نشرنا مواد مطهرة وطلبنا من الأهالي ارتداء كمامات بسرعة، والمرور إلى المستوصف لمحاولة تطهير جهازهم التنفسي.. وقد بدؤوا يصطفون بصفوف منفذين التعليمات بعد أن أعلمناهم بالوضع الخطير الذي آل إليه جوّ المنطقة.. وظهرت أعراض أخرى على بعضهم.. تتلخص بتقيحات ويثور حتى داخل الجهاز التنفسي..

- منطقتكم معزولة الآن؟

- نعم يادكتور هاني.. وأعتقد أن عدد الضحايا في ازدياد.. تعلم أن شدة البرد قد اضطرت الناس إلى البقاء في منازلهم، وربما ساعدهم ذلك في حماية أنفسهم بشكل غير مباشر..

- أتمنى أن تكون تلك حماية فعليّة.. شكراً لك يادكتورة سعاد.. سنبقى على اتصال لمتابعة التطورات..

- سعدت بسماع صوتك يادكتور هاني، أتمنى لك التوفيق..

أغلق الهاتف:

- هيا يازهرة يجب أن نذهب..

(٦)

كان الوضع حرجاً، وكان الثلج يتساقط دون توقف، وهاني يقطع الطريق ببطء إلى البيت وهو يشعر بالقلق على المريض الجديد، وهو يعرف أن حمداً باحث ممتاز في مجال الفيروسات والبكتريا.. الذي اكتشف أن الماء النقي يضرب الأورام الغريبة التي انتشرت عن طريق فيروسات مجهولة المصدر.. كأنها مدَجَّنة في مزارع مخبرية لإحدى القوى الكبرى..

أوصل زهرة وهانياً الصغير إلى البيت ثم اتجه نحو المستشفى، كان أمامه عمل كبير قد لاينتهي منه حتى الصباح كما خمّن.. فهو لايعرف شيئاً عن دوره الجراحي، ولكنه متأكد أن نديماً طلبه، لأنهم في حاجة ملحة لجهوده في إنقاذ المريض..

كانت الإصابات قد ازدادت في المنطقة، وسمع أصوات سيارات

الإسعاف القادمة من شرق المدينة، وهي تدخل من بوابة الإسعاف الرئيسية في المستشفى، استقبله حمد على الباب، كان قلقاً متوتراً..

- أرجوك يادكتور هاني..أخي كان قريباً من مكان سقوط القنبلة، ويبدو أنه امتصّ الموجة الأولى من الفيروسات، فلقد كاد يغمى عليه من ثقل الرائحة الكريهة، التي تشبه تفسخ جثث.. لديه مزرعة قرب النهر كان يطمئن عن غراسها مع ازدياد البرودة والصقيع..

- خبّرني عن حالته الإكلينيكيّة- السريرية..

- إنه غائب عن الوعي.. فقاقيع تنتشر في حلقه، وربما في رئته.. وفي مناطق أخرى.. درست الفيروس في المخبر، إنه من نوع غريب يضرب الأغشية، وكأن أماكن هجومه تترك آثاراً أشبه بالحرق.. كأنما يدلق سائلاً قلوياً شديد الفعالية على الأغشية فيحرقها، وتنتشر الفقاقيع، والصديد الذي يحتبس، له رائحة كريهة أشبه برائحة نفسخ الجثث..

- أعاننا الله..

- أرى أن سحب هذه الأكياس، وسائل القيح بسرعة، قد يريح المريض..

- ألم تدرس كيف يمكن حصار الفيروس؟

- تعاملت معه بكل المضادات التي أعرفها، ولكنه تكيّف معها وقاومها في النهاية..

- يجب أن أجري جراحاتي التنظيرية لإخراج هذه السوائل بسرعة.. ولكن يجب أن يكون هناك حلّ لإيقاف الفيروس وحصاره..

- نحن نحاول أن نفعل شيئاً.. إنه يمتص المياه من المناطق رقيقة الأغشية ويحولها إلى مادة قلويّة، كأنه يركب المواد بقدرة خارقة..

- لابدّ أن يكون هناك حلّ وإلا تفشى الداء بسرعة..

- نحن نعلم أنه ينتقل عن طريق الهواء.. الكمامات المعقمة تمنعه من النفوذ إلى الجهاز التنفسي، ولكن قد يكون هناك طريقة أخرى لانتقاله، كالملامسة والاحتكاك، هذا ما أحاول دراسته..

- نحن جاهزون لمساعدتك في جراحتك يادكتور

واستعد الجهاز الطبي للجراحة الدقيقة لسحب السوائل القيحيّة.. قال المخدر:

- سنخدر المريض بالوخز بالإبر.. هذا أسلم له، قد يتأثر بالتخدير العادي ويسبب له مضاعفات..

- ماذا عن حالته العامة؟

- إنه يقترب من الغيبوبة.. ضغط منخفض، نبضات قلب بطيئة..استجابة واعية معدومة.. نحن نضخ له الأكسجين دون توقف..

وبدأ هاني عمله ثم انتبه إلى أن السوائل كلما سحبت بسرعة زاد استهلاك الأكسجين، وتشكلت سوائل أخرى بفقاقيع جديدة.. عرف أن للأكسجين تأثيراً سلبياً فأوقف الجراحة، وتكلم مع حمد خارج غرفة العمليات عن طريق (ميكرفون).. ليدرس ونديم سبب هذا الاستهلاك المخيف للأكسجين وتأثيره السلبي عليه..

وعاد من جديد يراقب حالة المريض، وتابع أماكن انتشار الفقاقيع داخل جسمه في جهازه التنفسي ثم في المري، وعرف أنها ربما امتدت إلى الجهاز الهضمي.. وهي إن وصلت إلى الدم فهذا يعني الموت السريع.. شعر أنه عاجز تماماً عن إيجاد حلّ.. وكانت حالة المريض تتدهور بالتدريج.. وظهر أنه سيدخل في الغيبوبة لا محالة..

وفي المخبر استنفر حمد والدكتور نديم لدراسة هذا الفيروس الذي بدا عن طريق المجهر الإلكتروني أشبه بنقطة ماء ستطيل وتتكوّر ثم تنقسم وتكبر منتقلة من مكان لآخر كأنها تقفز قفزاً..

(٧)

كانت زهرة قد طرقت الباب على سالي وأحضرتها وقاسماً من شقتها المجاورة ليسهروا معاً.. وجلس قاسم في غرفة هاني الذي وضعه أمام الحاسوب يعلّمه تشغيل المفاتيح لابتكار ألعاب جديدة.. في حين غرقت زهرة وسالي في حديث طويل عن ذكريات كل منهما..

كانتا تتحادثان بعفوية وشفافيّة، وقد تركت سالي، زهرة تسترسل في الحديث عن طفولتها وقاسم.. حيث سمعا فجأة رنين جرس الباب الخارجي..

- خير؟ من القادم في هذا الوقت؟

- أخشى أن يكون شخصاً غريباً يبحث عن شقة قريب أو صديق..

صرخت: - من في الباب؟

- أنا مديح يازهرة.. افتحي بسرعة..

قالت سالي:

- إنه مديح صديق هاني لابدّ أن أمراً طارئاً قد استدعى حضوره..

فتح الباب فاندفع داخلاً بسرعة:

- أنا مطارد..إنهم يلاحقونني.. ولكن لاتقلقي لقد ضللتهم، أين الدكتور هاني؟ نائم؟

- إنه في المستشفى لديه جراحات طارئة..

- أنا آسف، يجب أن أذهب، اعتقدته هنا..

- مابك يامديح؟ تبدو متعباً مريضاً..

- لابأس.. يجب أن أذهب..

كان شكله مشوشاً وبدا لونه شاحباً تحت الضوء:

- وجهك أصفر، ماهذا الدم على معطفك؟.. ياإلهي، أنت مصاب..

- أطلقوا عليّ الرصاص.. انهمر كالمطر، تمكنت من الاختباء، ويبدو أنني مصاب شعرت بالرصاصة تخترق كتفي..

- تعال اجلس هنا.. يجب أن تسعف بسرعة.. هل أخابر هاني ليصطحبك إلى المستشفى، أو يرسل سيارة إسعاف.. أو سيارة صديق إذا أردت أن يكون الأمر سرياً..

- لاداعي.. ستتعقد الأمور..

- إذن سأنظف لك الجرح وستساعدني سالي.. أنت في مقام أخي قاسم..

فكرت سالي بحزن:

- «قاسم الذي اختفى ولانعرف عنه إن كان حياً أو ميتاً»..

- أرجوك ياسالي، أحضري لي بعض الماء الساخن..

لم تشأ زهرة سؤال مديح عن أسباب مطاردته، وقد شعرت أنه في وضع سيئ جداً، وليس الوقت مناسباً لذلك.. تمكنت بمهارة من إخراج الرصاصة وتنظيف الجرح وتعقيمه، ثم هيّأت له شراباً ساخناً مع حبتي مسكن.. وتركته ينام في غرفة الجلوس على الأريكة الطويلة..

ثم خرجت وسالي بهدوء تفتشان عن أثر دمه النازف.. على أرض المدخل.. فلم تريا شيئاً، فعادتا مطمئنتين.. كان من الواضح أن (مديحاً) قد انتبه للعمليّة فحشا مكان إصابته.. بالمناديل الورقية التي يحملها، وامتصّت هذه المناديل الدماء التي تخثرت ولم تتابع نزيفها من الجرح..

رأى هاني الصغير ماحدث، واستوعب الوضع، وصرف انتباه قاسم الصغير عمّا يحدث، وهذا ماساعد زهرة وسالي للقيام بعملهما.. تمددتا في الغرفة المجاورة تتحادثان.. وبعد مدة قصيرة أتى هاني يعلمهما أن قاسماً الصغير غفا بين يديه ووضعه في السرير الذي كان ينام عليه من قبل، قبل أن تسكن سالي الشقة المقابلة..

☆ ☆ ☆

تطور وضع المريض الممدد أمام هاني فجأة، وبدأت حالته العامة تتحسّن، ثم بدأ ضغطه بالارتفاع مع ارتفاع النبض وتوقفت الفقاقيع عن التكاثر.. وظهر كأن شيئاً خارقاً يحدث.. لم يكن مفهوماً لأحد..

واستمرت الحالة بالتحسّن.. حتى فتح المريض عينيه فجأة، وهو يحدق بأخيه حمد، وبالدكتور هاني والجهاز الطبي من حوله..

سأله حمد:

- كيف حالك ياسعد؟

- أين أنا؟ ماذا تفعلون لي؟ من أنتم؟

- أنت في المستشفى ياسعد، كان وضعك سيئاً..

- آه.. أشعر بحاجة للسعال.. ولكني لا أستطيع..

سأله الطبيب المساعد:

- هل أعطيك محرّضات للسعال..؟

قال هاني رافضاً الفكرة:

- قد يؤثر عليه السعال تأثيراً سلبيّاً..

شدَّ حمد على يد هاني بامتنان:

- يدك مباركة يادكتور هاني.. لقد خرج من دائرة الموت..

- لم أفعل له شيئاً سوى إزالة بعض سوائل الفقاقيع، والصديد الذي يجري أحياناً، وهذا يبدو ماساعده، وأوقف زحف الفيروس..

- لا أعتقد أن هذا هو السبب هناك شيء آخر بالتأكيد..

تقلب سعد:

- يبدو أنني سأسعل..

أعطاه هاني منديلاً:

- اسعل هنا في هذا المنديل.. إنه مخصص للسعال..

سعل بقوة وهو يشعر بألم في صدره.. كان من الواضح أن هذه التشنجات تؤثر على رئتيه المصابتين.. وكان من الضروري وقف هذا السعال التشنجي..

الدماء التي ظهرت على المنديل أكدت أن جدار الرئتين ينزف، لذا يجب أن يوجد حلّ لهذا النزف..فجدار الرئتين مصاب بالتقرحات والسعال يخرش الأغشية والشعيرات الدموية..

أدخل هاني أنبوب التنظير ووضع مواد مطهرة، ومرهماً خاصاً لتغطية أمكنة الفقاعات.. وهذا ماساعد المريض المخدّر بالإبر الصينية..

كانت هذه التغيرات الفجائية التي طرأت على المريض، قد شجعت حمداً

ونديماً على السهر معاً حتى الفجر لمعرفة أسبابها، ودراسة كل مايحيط بالفيروس من غرابة..

أما هاني فاستأذن في العودة للبيت، وقد كان يحسّ بالإرهاق بعد ما اطمأن عن سعد.. وطلب من مساعده المناوب أن يتصل به في حالة حدوث أي طارئ..

حين وصل إلى البيت، رأى (مديح) الممدد.. وخرجت زهرة بهدوء تستقبله، والنعاس يداعب أجفانها، لتحكي له ماحدث بالتفصيل.. دخلا ينامان في غرفتهما.. ولم يشأ إيقاظ مديح المصاب الذي كان صوت شخيره يصخب في الصالة..

نام هاني قبل الفجر بقليل، ورأى أحلاماً غريبة، عن قوارض تنتشر في كل مكان ترعب الناس، وتفتك بهم، ورأى كأن حرّاساً يوجهونها في زحفها القاتل إلى كل ماهو حيّ.. واستيقظ وقد شعر أنها تدور حوله وتنشب أنيابها فيه.. كان مرعوباً، التفت حوله، فوجد زهرة تقدم له كأساً من الماء..

- ليس من أحلامي تلك.. إنه حلم عادي.. رأيت كأن القوارض-الجرذان- تنتشر في كل مكان وتهاجم البشر والشجر..

سمعا صوت سعال:

- إنه مديح، يبدو أنه استيقظ، إنها السابعة صباحاً.. تعال انظر ياهاني الثلج يغطي كل شيء.. منذ زمن طويل لم نر مثل هذا المنظر الجميل.. مازال الثلج يتساقط..

- سأرى مديحاً.. إن كان مستيقظاً فعلاً يجب أن يأكل شيئاً.. جسمه ضعيف، ربما احتاج الجرح لخياطة.. كوني جاهزة يازهرة..

- حسناً..

كان مديح مستيقظاً فعلاً:

- أقلقتني عليك يارجل.. ماذا حدث؟

- إنها قصة طويلة ياهاني..

- هيئي له حساءً يازهرة.. ولي قهوة مع الحليب..

سألته: - هل تضرّه القهوة مع الحليب؟

قال مديح:

- لابأس.. لاأعتقد أنها تضرني.. أنا بحاجة إلى القهوة ياهاني..

قال هاني:

- حسناً..قدمي له مايشاء

خرجت زهرة إلى مطبخها قال هاني:

- ماذا حدث لك؟ أقلقتني زهرة بحديثها عن جرحك العميق.. يجب أن أكشف عليه بعد قليل..قد يحتاج لخياطة؟

- لا.. إنه صغير، وقد تعاملت معه زهرة كأنها طبيبة.. يبدو أنها تعرف الكثير.

- إنها تساعدني أحياناً في الحالات الطارئة هنا أو في البيوت المجاورة.. هيا حدثني.. أريد أن أستمع منك لحكايتك.. متى عدت من سفرك ولماذا هذه المطاردة؟

- آه.. إنه حديث طويل.. أنا صحفي مشاغب كما تعرف.. يبدو أنني تجاوزت حدودي حين نفذت إلى منطقة اكتشفت فيها مقابر جماعية تضم نحو (٢٥٠٠) جثة.. أحضرت مصورين وإخباريين.. ولكنّ قواتٍ خاصة

حاصرتنا، وكسرت مصوّراتنا، ومزقت أوراقنا.. ثم أطلقنا قائدهم بعد أن اعتقلنا ليومين، وهو يحذرنا من أن نتكلم ولو بكلمة عمّا رأيناه..

- وأنت رجل تكره الصمت، فلم تتورع عن نقل الصورة لإحدى وسائل الإعلام..

- محطّة فضائية في دولة صغيرة.. وكان خبراً استمر ثلاث دقائق.. لم أتكلم خلاله سوى دقيقة وبضع ثواني، حكيت فيها ما أطاش صواب الرقابة الإعلامية في القوة العظمى فأوعزت بمطاردتي وقتلي..

- وأنت تعرف كيف تراوغ من يطاردك.. ولكن كيف أصبت بالرصاص؟

- رأى أحد رجال الأمن صورتي في إحدى الصحف، وقربها تعليق يقول: "الرجل الذي شاهد المذبحة يروي التفاصيل" كان حديثاً مأخوذاً عن المحطة الفضائية تلك بالكامل.. طاردني وحكى مع مجموعته باللاسلكي، ولو لم تبدأ المطاردة في ميدان فسيح، لاستطعت تضليلهم بسرعة كبيرة.. كانوا يدفعونني لأظل في الميدان لأكون تحت بصرهم وتحت مرمى أسلحتهم..

- هكذا أصابوك؟ قرب المنزل هنا؟

- بل في مكان بعيد.. استمرت المطاردة طويلاً.. أخذت أكثر من سيارة أجرة لتضليلهم تماماً.. أنا آسف ياهاني لم أر سوى منزلك، إنه المكان الوحيد الذي لن يخطر على بالهم أنني أختبئ فيه..

- على الرحب والسعة..

جاءت زهرة تحمل الحساء الساخن.. والقهوة، قالت لمديح:

- قهوتك جاهزة ولكن تناول هذا الحساء أولاً.. تفضل القهوة ياهاني..

☆ ☆ ☆

حكى مديح عن القنابل الاستشهادية المخيفة، التي ماتزال ترعب القوّة العظمى وتدمر بعض مخططاتها أحياناً، ووصف أحد مسؤوليها هؤلاء الذين يقومون بعمليات استشهادية أنهم يؤثرون كأنهم قنابل نووية..

وحكى عن الخطط المدروسة للسيطرة على كل ثروات العالم، في الشرق والغرب والشمال والجنوب.. وعن وجود قطعات من الجيوش المختلفة التي تتحرك بأوامر القوة العظمى في كل مكان، لضرب المقاومة التي تنجح أحياناً في اختراق الحصار والقيام بعمليات استشهادية تطيش صواب سادة القوة العظمى.. أصبح الاستشهاد شعاراً عند الشعوب المقهورة، وأصبحت القوارض تنتشر في كل الأقاليم تحكم شعوبها بالحديد والنار.. نماذج مثل قارض (١) و قارض (٢).. التي حدثتك عنها من قبل.. إنها نماذج تقدم الذرائع للاستسلام والخنوع، وتحكم شعوبها بالبطش والتعذيب..

وأكمل مديح حديثه عن الفوضى التي تنتشر في كل البلدان، وعن المجاعات والتلوّث، وعن ملاحقة الذين يرفضون شعارات القوة العظمى..

كوكب مضبّع بالأحقاد.. فيه قوة باغية تشجع أنظمة عنصرية سافلة لاتؤمن بالإنسان وتنشر سياسة البطش والمجازر.. وحكى مديح عن الحروب الإقليمية التي يشعل أوارها خبراء الحروب في القوة العظمى..

حروب بين بلدان تنهك الإنسان والاقتصاد والثقافة.. وتقتل التراث والأحلام.. حكى كثيراً حتى تعب.. واستأذنه هاني ليكشف عن جرحه، فوجده نظيفاً، سليماً.. فأبدى إعجابه بما فعلت زهرة من علاج إسعافي دقيق للجرح..

حتى الحقنة المضادة للتيفوس لم تنس أن تعطيها لمديح.. وحين اجتمعوا على الإفطار في نحو التاسعة، أصرّت سالي أن تفرغ شقتها لمديح ليعيش فيها حتى

يشفى جرحه فهي معتادة على الحياة مع زهرة.. ولكن هانياً رفض الفكرة بقوة، فمديح في مقام أخيه، ويحتاج إلى من يعتني به..وحين غادر (هاني) المنزل في نحو العاشرة متأخراً على المشفى بسبب طوارئ الليلة الماضية، وجد سعداً يجلس في فراشه مرتاحاً، كأن المرض قد زال منه نهائياً.. ولكن نديماً كان يحمل أسراراً أخرى عن هذا المرض الغريب.. تشوّق هاني كثيراً لمعرفتها بعدما أوحى إليه نديم أنه عرف العلاج أيضاً..

(٨)

في ركن العالم الآخر كانت المنطقة التي يعيش فيها الدكتور قاسم تتعرّض لإعصار خطير، كنّس في طريقه كل شيء.. وحين وصل إلى (الشاليهات) التي يعيش قاسم في إحداها، تحرّكت دوامته لتنزع النوافذ وصحون استقبال البث التلفازي، واقتلعت أشجاراً من جذورها..

كان بيتر وجون ومادلين ومايك ولارا مع الدكتور قاسم يتباحثون في مستقبله بعدما تحسنت صحته كثيراً.. حين بدأ الإعصار بدوامته الرهيبة وصوته العاصف يعبث بكل شيء يستطيع حمله.. ولو كانت هناك نافذة مفتوحة ربما خلع سقف (الشاليه) الإسمنتي، بل ودمّره تماماً كما قال مايك.. الذي تابع حديثه موضحاً:

- جيد أن النوافذ الزجاجية ذات طبقتين لاتسمح بنفوذ شيء..

قالت مادلين:

- ولكن النوافذ الخشبيّة الخارجية انفصلت تماماً..

ردّ عليها:

- ورغم ذلك أعتقد أننا أصبحنا في منأى من الخطر..

نظر بيتر من النافذة بعيداً:

- وأنا أعتقد ذلك..

قالت مادلين:

- بدأ يبتعد، دوامته تكنّس كل شيء.. أصبح على بعد كيلومترات من البلدة المجاورة..

ردد مايك:

- الحمد لله.. قل لي ياجون، أما زلت معجباً بـ (لارا)؟

- هل يزول الإعجاب بسرعة في رأيك؟ إعجابي انقلب إلى حبّ مع الأسف..

- ولماذا مع الأسف؟

قال جون ضاحكاً:

- لأنني أشعر بالأسف على تخميناتك غير الواقعية، وعلى خيبة أملك في اعتباري شخصاً هوائياً غير مستقر.. لذلك أنا آسف..

أبدى ارتياحه:

- سنحتفل بشيء مفرح أخيراً..

اعترضت مادلين:

- قد لاتكون (لارا) موافقة؟ مارأيك يالارا؟ أيولد الحب بهذه السرعة؟

- جون شاب لطيف، ومن يتزوجها تكون محظوظة..

- إذن أنت موافقة.. مارأيك بتلميذك يادكتور؟

- إنه البياض في صفحة الظلمة التي تخيّم عندكم.. إنه نور الأمل بالتغيير.. وإعادة الصفاء للإنسان في هذا الزمن الصعب..

قال بيتر:

- إنه جواب جادّ، أنا أفهم مرارة الإحساس به..

همس قاسم:

- لم تشرح لي يادكتور بيتر عن الذي يجري حولنا؟

- هذا يحتاج لحديث خاص.. مارأيته في تلك القاعدة، زاد كثيراً عما كنّا نتوقع.. كثرت الاعتقالات دون تهم محدّدة، وكثر الاعتماد على المساجين في البحوث البيولوجيّة، ودراسة الأمراض وتأثيراتها، والجراثيم وزيفاناتها والترياق المضاد السمّ.. أصبح العرض والطلب على الأعضاء البديلة المستخلصة من المساجين يخضع لمطالب ساسات الدول وسلطاتها الحاكمة.. سأحكي لك الكثير من الحوادث الغريبة حين ننفرد معاً.. هيّا نشارك الآخرين مرحهم..

لحظت لارا وجوم قاسم وقلقه رغم محاولاته الفاشلة في مسايرتهم جوّ المرح.. فسألته:

- خير يادكتور؟ أتريد أن تقوم بشيء تخجل من البوح به؟

- أنا آسف أريد أن أستخدم هاتفك النقّال..

- على عيني، لِمَ لم تقل لي ذلك؟ تريد الاتصال بأهلك؟ كن حذراً هذا يشكل خطراً عليك وعليهم.. أنا آسفة كان يجب أن أعرض عليك ذلك منذ زمن طويل..

- لابأس.. شكراً لك..

- خذ الهاتف، وكن حذراً، يمكنك الدخول إلى غرفة النوم..

بقلب واجف خائف، لخَّصَ جميع معاناته، ضرب قاسم رقم زهرة وهو قلق أن يكون الرقم قد تغيّر خلال هذه السنوات.. ولكنه سمع الرنين البعيد وقلبه يطفر من الانفعال.. وسمع صوتاً خشناً في الطرف الآخر يردّد: "ألو؟" فقال مرتبكاً:

- آلو..أيمكن أن أكلم السيدة زهرة؟

- آسف ليست موجودة الآن، من نقول لها؟ أنا صديق زوجها أقيم هنا ضيفاً مؤقتاً.

- قل لها إن أخاك بخير.. سأخابرها فيما بعد..

ثم أطبق السماعة - «لايجب أن أقلق. سأتحادث فيما بعد مع زهرة..الحمد لله الرقم لم يتغيّر، سأطمئن عن سالي.. آه..يارب..قد أعود للحياة من جديد؟»

(٩)

لم يستطع مديح الانتظار حتى يعود هاني وزهرة، فقد اتصل به في المشفى وكان منشغلاً بالجراحة، واتصل بزهرة في مدرستها.. يخبرها أن أحداً قال: إن أخوها تكلم بالهاتف يسأل عنها، وسمع نشيجها في الطرف الآخر ثم أغلقت السماعة..

ويبدو أنها لم تستطع أن تتمالك نفسها فحضرت سريعاً.. وفوجئ مديح بحضورها المباغت.. حكى لها بالتفصيل عمّاجرى في المكالمة.. وحين أكَّد لها أنه سمع صوت الصفرة الدولية البعيدة، تأكّدت أن المتكلم هو قاسم..

خرجت تطرق الباب على سالي.. التي كانت في الخارج.. كانت تريد أن تنقل لها الخبر المفرح عن اتصال قاسم.. قاسم الذي كان في تلك القاعدة البعيدة، التي لم يخرج منها أحد حيّاً.. كيف خرج؟ ولِمَ لم يحاول الاتصال بها من قبل؟

ودوّت فجأة صفارات الإنذار، تنذر بغارة جويّة، وكان قد مضى أكثر من شهرين على آخر غارة.. لم تعرف كيف تتصرف، هل تعود إلى الشقة وتنزل (مديح) أم تتركه في البيت خوف أن يعرفه أحد؟

وهي في حيرتها رأت سالي وقاسماً الصغير يبرزان أمامها.. ولم تدر ماتفعل، ولكن سالي شدتها إلى الملجأ القريب وهي تركض وقاسم الصغير، وقد بدأت أصوات القصف تصل إليهم بوضوح.. قصف صاعق، يتتالى مقترباً من منطقتهم.. ثم توقف فجأة..

تنهدت زهرة بعمق وصعدت مع سالي والصغير للاطمئنان عن مديح.. الذي كان يجلس بهدوئه المعهود وهو يشرب القهوة.. استأذنته في الذهاب وسالي.. وقد عاد وجه قاسم إلى ذاكرتها الطفولية..

- سالي.. أنا خائفة.. أحدهم تكلّم من بلاد بعيدة وقال: إنه أخي.. ردّ عليه مديح..قال: إنه سيخابرني فيما بعد.. أنا خائفة فعلاً.. أيمكن أن يكون قاسم؟

- قاسم.. ياإلهي معقول؟ قاسم حيّ.. لا أصدق نفسي..

- اهدئي ياسالي، لسنا متأكدين من ذلك بعد.. قال: إنه سيخابر..

- إنه هو.. قلبي يحدثني أنه هو.. يجب أن يكون هو.. قلبي عليه كم تعذّب.. ولكن هل أفرجوا عنه؟ وكيف؟ أولئك الناس بلا قلب؟

- ربما هرب منهم.. وجد من ساعده على الهرب.. الله موجود.. وهو مع المظلوم..

- نعم.. نعم.. يارب أفرحنا بعودته.. يجب أن يتكلم اليوم.. هو قاسم..قاسم إن شاءالله..

وأكد لهما هاني حين عودته، أنه قاسم.. رغم صعوبة تصديق الخبر.. فهو المتصل بالتأكيد.. كان يتكلم لهما وهو غير مصدّق نفسه، فلقد أبلغه مديح أنه مات وأحرقت جثته.. ومديح أول شخص يجب ألاّ يصدق الخبر..

وحين تحادثا وجده مشككاً نادماً على كلامه لزهرة حول أن المتكلم هو قاسم، فقد تكون مزحة..ولكن صوت ذلك الرجل كان متهدجاً صادقاً.. عاد إلى ذاكرته ليؤكد له أنه لم يستمع لمازح بل لرجل جاد.. وفي منتهى رهافة الحسّ..

(١٠)

كان مرضاً غريباً، أخذ ينتشر بين عينات من الناس، يبدأ بالأغشية المخاطية، والأغشية المبطنة للأجهزة الداخلية في الجسم، فيترك فيها بقعاً، تنتفخ بسرعة مشكلة فقاعات من السوائل القيحيّة الصديديّة ذات الروائح الكريهة الشبيهة بروائح تفسخ الجثث...

ولا تلبث أن تفقّس فيها ديدان صغيرة شرهة سرعان ما تنتشر أيضاً، وهي تتغذّى بالخلايا الحيّة مسببة للمريض آلاماً هائلة لا تنفع معها المسكنات... ومنهية حياته خلال أيام من العذاب والضنى...

وقد اكتشف الدكتور نديم الاختصاصي بالتحليل المستند إلى الهندسة الوراثية، أن ذلك المرض انتشر نتيجة إلقاء قنابل جرثوميّة في مناطق مزدحمة

بالسكان، ويبدو أن خللاً أصاب توجهات هذه العوامل الممرضة، فبدأت تختار ضحاياها، وتنتقيهم عن طريق استشعارها لجينات خلاياهم...

انتقاء غريب لم يتوقعه من استنبط إكثار هذه العوامل الممرضة في مخابره المتطورة، لقد توقع المخططون الخلاص من أعداد كبيرة من سكان المناطق المزدحمة والفقيرة، حيث يعشش الإرهاب كما يزعمون.. ولكن تلك العوامل الممرضة اختارت السفلة واللصوص والقتلة فبدأت تبحث عنهم عن طريق الهواء واللمس والعلاقات المباشرة...

ووجدت فيهم مرتعاً لديدانها الشرهة للطعام الحيّ.. أي انتقاءٍ غريبٍ يتم بتوجه مدهش عن طريق الجينات؟ هل سيصبح هذا المرض وبالاً على صنّاع قرار نشره بين الناس على هذا الكوكب؟..

قاومه الفقراء الرافضون نتيجة تركيب جيناتهم، فتحوّل إلى مرض ينتقي ضحاياه بطريقة مذهلة.. وهكذا انتشرت الإصابات بين المتسلطين وأدوات القتل المغرورة الحاقدة...

تابع الدكتور نديم الأمراض المشابهة لهذا المرض التي ساهمت الحشرات الطفيليّة كالبعوض والذباب في نشرها، فوجد أن المصدر واحد، كلّها أتت بفعل إلقاء القنابل الجرثومية، وكلها حرّضت بذورها عوامل جينيّة بقصد القتل السريع بلا توقف...

كأنما ارتد السحر على الساحر، فانتشرت الإصابات بين الجنود والمستوطنين ودعائم تنظيمات البنائين الأحرار والعنصريين الذين يسعون لتملك الأرض بعد تصفية ساكنيها الذين يقاومونهم بقنابلهم الاستشهادية.

تماثل مديح للشفاء، وحاول الخروج إلى الدنيا الواسعة كما قال، فلقد أمضى قرابة الشهرين في سجنه الإجباري في بيت هاني، حتى استعاد قوته..

ورغم محاولات هاني إقناعه بالبقاء لفترة أطول، إلا أنه أصرَّ على الخروج واعداً إياه أن يظلّ على اتصال به لإطلاعه على آخر تطورات حياته.. كان هاني خائفاً عليه، وقد علم أن ملاحقته من قبل رجال الأمن لن يتوقف...

فلقد كان مطلوباً لدى القوة العظمى، لشغبه، وتمرده على قوانينها الصارمة، وهذا يعني أنها لن تتوقف عن ملاحقته حتى تقبض عليه... وفي رأي هاني، فإن مسيرته قد تتشابه مع مسيرة الدكتور قاسم، أي إنه قد يصبح أحد سجناء (غوانتانامو).. فالتمرد على القوة العظمى يعني أن تهمة الإرهاب جاهزة.. ويئس هاني من إقناعه أخيراً :

- مادمت مصرّاً على الخروج بهذا الشكل، فلن تنفع توسلاتي إليك بالبقاء...

- أنت تعلم يا هاني أنني لا أستطيع أن أحصر نفسي في مكان محدّد، ولكن جرحي أجبرني على البقاء هنا، يجب أن أخرج إلى الهواء والحريّة..

- أنا أعلم ذلك ولكني خائف عليك... خائف عليك.. أنت مطلوب قلت لك ذلك كثيراً..

- لابأس، سأنجح في مراوغتهم.. المهم أن تطمئنوا عن وصول قاسم إليكم.. أنا متشوّق كثيراً للتعرّف به.. سأتابع أخباره أولاً بأول...

جاءت زهرة بعد قليل:

- جهزت لك هذه الحقيبة الصغيرة، بها ملابس وطعام.. قلت لي ستخرج إلى الضواحي فوراً..؟ وأرجو أن تظل على اتصال بنا...

- إن شاء الله.. أنا ممتن لكم كثيراً وخاصة أنت يا زهرة.. حتى أختي ما كان باستطاعتها أن تقدم لي هذا العون والاهتمام الذي قدمته لي..

قال هاني معترضاً:

- لا داعي لهذا الكلام يا مديح.. زهرة لا تحب أن يشكرها أحد على ما تعدّه واجباً.. اسمع يا مديح، يجب أن تعرفني بأخبارك أولاً بأول.. ولا تتأخر أبداً عن الاتصال بي...

- سأفعل، أقسم لك أنني سأفعل...

(١١)

بعد أن تكلم قاسم للمرة الثانية أنه في طريقه للقدوم، وأن ما يؤخره هو مسألة ترتيب عملية الخروج والسفر، ثم الوصول بشكل آمن إليهم.. اطمأنت سالي وزهرة إلى أنه بخير.. كما علم مديح أن وراء تلك الأخبار التي وردته عن موت قاسم، سرّاً غريباً قد يفسّره قاسم وحده..

كانت لحية قاسم الشقراء ولكنته التي لا تختلف عن لكنة أهل البلاد، وجواز سفره الجديد باسم (ياكوف أزرا) قد أهله للسفر بين المدن بشكل آمن كما أكد بيتر... وفي أول تجربة سفر له باسمه الجديد من المنطقة الشرقية على المحيط الأطلسي إلى المنطقة الغربية على المحيط الهادي.. رأى حادثة أثّرت فيه كثيراً.. اجتاز البوابات بأمان في المطار ودخل إلى الطائرة دون أن يعترضه أحد..

وكان مقعده في درجة رجال الأعمال... وبعد أن جلس بدقائق سمع ضجّة وصخب.. ورأى رجلاً بملامح شرقية يقف بين المضيفين ورجال الأمن، وقربه بعض الركاب:

- قلنا مراراً أننا لن نسمح لكم بالصعود إلى طائراتنا..

- أنا مواطن من هذه البلاد ومن حقي أن أتحرّك بحريّة..

- لم تعد أصواتكم العالية مفيدة.. غير مسموح لك بالصعود...

نظر أحدهم في جواز سفره:

- اسمه (عبد الله).. واضح أنه إرهابي..

رد الرجل:

- أنا طبيب ولست إرهابياً.. عالجت الكثير من مرضاكم، ولي دين كبير عليكم..

قالت إحدى الراكبات وكانت امرأة عجوزاً:

- كنا من قبل نقبلكم بيننا، ولكن الآن بعد عملياتكم الانتحارية التي تقتلون فيها المدنيين بدم بارد، لم تعودوا مقبولين عندنا...

ردّ عليها بلطف:

- يا سيدتي، أولئك الناس يقاومون الاحتلال بما تبقى لديهم من وسائل.. والمحتل هو الذي حاصرهم واضطهدهم وأذلّهم، وهدم بيوتهم على ساكنيها وقتل الآلاف منهم وشرّدهم خارج وطنهم...

- عد من حيث أتيت لن نقبلك بيننا، قد تنفّذ عمليّة إرهابية بعد إقلاع الطائرة؟ لن نسمح لك بالجلوس بيننا.. قالت له المضيفة حائرة:

- أرجوك يا سيدي عد أدراجك، ركاب الطائرة لا يرغبون بك..

- أنا مصرّ على حقوقي المدنيّة، أنا مواطن من هذه البلاد..

أشار إليه رجل الأمن باحتقار:

- اخرج من هنا...

وأمسك آخر يده:

- اترك يدي، من فضلك...

صرخت المرأة العجوز:

- أخرجوه من هنا، أنتم رجال الأمن...

وصرخ بعض الركاب:

- نعم... نعم.. لا نرغب بصعوده معنا... إنه إرهابي..

حاول أن يقاومهم:

- ماذا تفعلون؟..

- أنت تقاوم العدالة، سنأخذك للسجن...

- أية عدالة؟.. أريد محامياً يتولّ الدفاع عني، هذا حقّي..

قال الشرطي:

- لم يعد أحد من مواطنينا يوافق على الدفاع عن أي منكم.. اخرج من هنا.. ساعدوني لإخراجه.. سأقيّد يديه...

وأخرجه رجال الأمن بغلظة شديدة، بعدما أوسعوه ضرباً.. وقاسم يكاد يبكي لهول المشهد.. وبعد دقائق أقلعت الطائرة فتمدد في مقعده مغمضاً عينيه محاولاً النوم، وقد عادت إلى ذاكرته صور رحلته الطويلة مع العذاب والضنى...

شعر بيد توضع على كتفه فانتفض مذعوراً.. كانت مضيفة شابة تهمس قريباً منه:

- أنا آسفة يا سيدي.. يبدو التوتر عليك بعد تلك الحادثة.. أرجوك خفف

من هذا التوتر، قد تلفت النظر.. أنا صديقة لارا، أعرف كل شيء عنك.. لا تقلق..

- أنا متوتر فعلاً، لأول مرة أرى مثل هذه الحادثة..

- حدثت آلاف المرّات، وبطريقة أشد فظاعة.... هل أحضر لك شيئاً؟ أتريد أن تشرب القهوة مع الحليب؟ قالت لي لارا أنك تفضلها..

- لا بأس شكراً لك..

- عد إلى هدوئك أرجوك.. كل شيء على ما يرام..

- حسناً.. حسناً.. سأحاول القراءة في هذه المجلّة.. عدد جديد من (نيوز ويك)..

قرأ قاسم عناوين بارزة عن الحرب ضد الإرهاب، بين الشرق والغرب.. بدا أن القوة العظمى تثير النعرات بين فئات متطرفة، لتبدأ الحروب الصغيرة بين الدول، حيث تتدخل في الوقت المناسب فارضة شروطها في تعميم صور القوارض الجديدة.. لتزيد من قبضتها على العالم...

شعر أن العالم يزداد انهياراً، وقد خصصت المجلّة ملفها حول العمليات الانتحاريّة مقدمة نماذج من شبان وشابات وصلوا أعلى درجات العلم، لم يترددوا في تقديم أنفسهم قرابين ضد المحتل..

كانت المجلّة تحكي بصورة غير منطقيّة عن عنف هذه العمليات وآثارها التدميرية دون أن تحكي عمّا يفعله المحتلّ من فظائع وحشيّة بمباركة القوة العظمى..

شعر بالإعجاب بهؤلاء الشباب الذين لا يترددون في تقديم حياتهم دفاعاً عن الوطن ولمقاومة المحتلّ البغيض الذي يقوم بأعمال لم يسبق لها مثيل في

التاريخ.. شبان وشابات في عمر الورد، قدموا أمثلة بقنابلهم الاستشهادية لنضال الشعوب المقهورة..

شعر بالدموع تطفر من عينيه، وهو يتأمل الصور، هذه الطفرات المباركة، هي الأمل بمقاومة خارقة توقف الظلم الممتد على شعوب الأرض.. اقتربت منه المضيفة ومعها القهوة ولحظت دموعه:

- تفضل يا دكتور.. أنت تبكي؟..

قال متماسكاً:

- لا... أنا بخير...

- تذكرت أهلك، حكت لي لارا عن معاناتك عندنا في تلك القاعدة الجهنميّة.. لا بأس أنت بخير، وستعود إلى بلدك قريباً، وتطمئن عن أهلك.. حاول أن تستعيد تماسكك سيقوم ضابط الأمن المتنكّر بزي مضيف، بتفقد الركاب ووجوههم، لديه قائمة بصور المشبوهين..

- في كل مكان هناك قائمة وصور.. لِمَ هنا أيضاً؟..

- لا أدري، إنهم يقومون بأعمال فيها الكثير من المبالغات.. يبدون تخوفهم باستمرار من وقوع عمليات إرهابيّة.. ويعلنون كل فترة عن إحباطهم لإحدى هذه العمليات..

- شكراً لكِ على القهوة مع الحليب إنها لذيذة الطعم..

- سأتابع عملي.. وأمرّ كل فترة قصيرة لتفقد حالتك..

ثم همست إليه وهي تتراجع:

- انتبه ها قد اقترب رجل الأمن..

شعر برعب وهو يتأمل الرجل:

«يا إلهي.. كأنني رأيت هذا الوجه.. لقد كان أحد المحققين في (غوانتانامو)..»

ومرّ الرجل بهدوء وهو يتفحّص وجوه الركاب.. ثم توقف أمام قاسم الذي كان يتظاهر بانشغاله بالقراءة دون أن يعيره اهتماماً.. ثم همس الرجل بلطف:

- ألم نلتقِ من قبل؟ يبدو أنك تسافر كثيراً يا سيدي؟.. أيمكن أن أرى جواز سفرك؟..

- ولماذا تريد رؤية جواز سفري؟.. من دواعي الأمن أيضاً؟.... تفضل..

أمسك جواز السفر يقلبه:

- ياكوف أزرا؟ اسمك ياكوف أزرا.. تتكلّم العبريّة؟..

- هذا ليس من اختصاصك.. أعد الجواز وتابع طريقك أنت تخترق القانون.

- أنا آسف.. لم أقصد شيئاً يا سيد ياكوف نحن نحترم طائفتكم ونقدّرها..

- حسناً، هات الجواز..

- آسف يا سيدي.. تفضّل..

أتت المضيفة وابتسمت له مشجعة وهي تهمس:

- الاسم الذي اختاروه لك كان موفقاً.. هه أترغب بتناول الحلوى؟

- لا... شكراً لك..

وصل قاسم إلى سانت لويس وكان بيتر في استقباله في المطار، حيث اصطحبه إلى بيت أحد أصدقائه المسافرين ليقضي ليلته.. وتحادثا طويلاً بشأن السفر...

كان بيتر يرى أن قاسماً يستعجل السفر، والظروف غير مواتية.. وكان قاسم يرى أن الظروف غير المواتية تلك قد تزداد تعقيداً.. ثم إن جواز سفره الجديد واسمه الذي أعطي له، قد جعلا الأبواب مفتوحة أمامه، دون أن يصادف أية عقبة..

فالجواز دبلوماسي خاص، والاسم ينتمي إلى أسماء أناس من جماعة تعتبر هي الأقرب في العالم إلى القوة العظمى.. وقد أقاموا دولتهم المغتصبة فوق بقعة من الأرض تعتبر من أقدس الأماكن في العالم.. وطردوا شعب تلك الأرض، ونكّلوا به واستباحوا أرضه وأملاكه، وقتلوا الملايين منه..

كانت الشخصية الجديدة لقاسم سهلة القبول في أي مكان، ولكنه كان يعرف أن عليه إخفاءها حين يختلط بالناس في بلده.. فالناس لن يقبلوا برجل يحمل هذا الاسم، وينتمي إلى دولة تعتمد البطش والوحشية وامتهان كرامة الإنسان..

اتفق بيتر وقاسم أن يعودا معاً إلى المنطقة الشرقيّة للتمهيد للاجتماع مع بقية المجموعة ومناقشة موعد السفر ومحطّاته المتابعة.. وهكذا قضى قاسم يومين ينتقل وبيتر بين المتنزهات ومكتبات الجامعات والمكتبات العامة، ودور الثقافة، وقد ألحَّ قاسم على تجميع أكبر المعلومات الممكنة عن البنائين الأحرار وتسمياتها الأخرى...

تسميات تطلق على أندية تتوزع في كل بلدان العالم مثل أندية (الروتاري) وشهود يهوه و (بناي برث) و (ليونزكلوب) وغيرها..

وشيئاً فشيئاً راوده الخوف المزمن من القبض عليه.. رغم أنه قد تأكد أنه ميّت منذ زمن في سجلات تلك المنظمة الأخطبوطيّة، وفي سجلات المجموعة الدولية للإرهاب كما كانت تسميها وكالة مخابرات تلك القوة العظمى...

(١٢)

زار الدكتور هاني وزهرة، عهداً زوج هدى في المستشفى التخصصي، وقد كان يعاني من اضطراب في وظائف القلب.. برر الأطباء هذا الاضطراب بقلّة حركته وجلوسه الطويل خلف أجهزة الحاسوب، وتدخينه الشره أحياناً.. كانت هدى إلى جانبه حزينة خائفة، وقد طمأنها هاني إلى أن عهداً اجتاز الأزمة وسيعود إلى طبيعته..

كان يحتاج إلى عدة أيام في المستشفى لإجراء القثطرة من جديد، للتأكد من أن شرايينه الإكليليّة أو الوريد التاجي على ما يرام.. وليس من إصابات فيها.. وأخذ هاني وعداً من عهد أن يترك التدخين نهائياً، وأن يعود إلى رياضة المشي التي كان يقوم بها بانتظام..

وكانت هدى قلقة على أمينة، استقلّت سيارة الدكتور هاني بعد انتهاء زيارته لعهد، لتعود إلى ابنتها، وهي خائفة أن يكون القصف قد طال منطقة سكناهم..

وحين وصلت رأت أحد الصبيان ينتظرها أمام الباب، لإبلاغها أن أمينة عندهم في البيت المجاور.. فلوّحت لهاني وزهرة مودعة.. كان هاني يتأمل المشهد صامتاً...

فرغبت زهرة أن تخرجه عن هذا الصمت.. وقد شعرت أنه يسترجع أحلامه القديمة..

- هه.. تذكرت بعضاً مما شاهدته في أحلامك؟..

تنهدّ بحرقة:

- حكت لي أمينة عن بكائها وخوفها بعد عودتها من المدرسة وقد بدأت

الطائرات تقصف، حتى استقبلها أحد الجيران وأدخلها إلى بيته، مشفقاً عليها وقد علم أن والدتها في المستشفى مع والدها المريض..

- خائف من أن ترى المأساة التي قد تقع لهما؟..

- نعم.. بعد أن تقصف المستشفى كما تقول أحلامي.. آه يا زهرة، ليتني أستطيع تفسير تلك الأحلام التنبؤية.. إنها من أشد الألغاز التي صادفتها في حياتي، تعقيداً وغموضاً..

- الزمن كفيل بذلك، وليس لنا سوى الانتظار.. أمازلت مصمماً على عدم حضور حفلة زفاف عايدة؟..

- قلبي منقبض، منظر عهد الممدّد بضعف، خائر القوى في المستشفى أثّر فيَّ كثيراً.. أعادني إلى دائرة القلق والخوف من المستقبل.. عايدة هي إحدى دعامات ذلك المستقبل الذي شهدت بعضاً منه في أحلامي.. إذن لا تتردد في حضور زفافها، قد تكتشف شيئاً له علاقة بأحلامك؟..

- لم آخذ الأمر من هذه الناحية؟..

- سأكون إلى جانبك، وإن رغب هاني الصغير بالحضور معنا سنصطحبه..

هزَّ رأسه شارداً:

- ربما أنت محقّة يا زهرة.. قد يفيدني حضور هذا الزفاف في تفسير لغز من ألغاز أحلامي..

- يجب أن نتهيأ لذلك لم يبق سوى ساعة لموعد الحفل..

كان حفلاً صاخباً في أرقى فنادق العاصمة.. انتشر فيه الخدم بألبسة موحّدة، كما انتشر فيه شبان يرتدون ثياباً أنيقة ذات لون واحد هو الكحلي، بربطات عنق بيض..

كان هؤلاء الشبان يستقبلون المدعوين ويرافقونهم وهم ينحنون باحترام إلى المنضدة المخصصة لكلٍ منهم وعائلته..

كانت طاولة هاني وزهرة وهاني الصغير في مكان قريب من طاولة فخمة بدت كأنها لرجل شديد الأهمّيّة والنفوذ.. وقد لوّحت إحدى الجالسات خلفها لزهرة محيِّيَة فأجابتها زهرة بتلويحة.. وهي تهمس إلى هاني أنها لم تتعرف بها..

- ربما هي تعرفك؟ قد تكون على علاقة بعملك أو ربما التقيتما في مكان ما..

- ربما.. ولكنها لا ترفع نظرها عني..

- تجاهلي الأمر يا زهرة.. قد تكون فضوليّة أكثر من اللازم..

- إنها تنهض من مقعدها وتتجه صوبنا..

- ابقي هادئة.. لا بأس..

وفعلاً اتجهت المرأة صوب زهرة مباشرة:

- مساء الخير، أنا آسفة يا سيدتي.. أنت تشبهين شخصاً أعرفه.. كنت أعمل معه قبل سنوات.. على كل حال اسمي (هنا).. زوجي يعمل في سلك التشريفات الملكيّة، السيد ديراك.. اسمه معروف؟..

- نعم.. نعم..

- أنت تشبهين شخصاً عملت معه، وقد أعدم في (غوانتانامو).. ربما كان قريبك؟..

اعترض هاني:

- نحن لا نعرف أحداً أعدم في ذلك المكان.. وليس من داعي لإزعاج السيدة بهذه التصورات؟..

- إنها تشبهه كثيراً، وحين سيحضر زوجي سيكتشف ذلك الشبه..

وانضم ديراك إليهم:

- ماذا تفعلين هنا؟.. أهلاً بك يا دكتور هاني..

قالت هنا:

- إنه ديراك زوجي.. ألا ترى الشبه العجيب بينها وبين معلمنا السابق الدكتور قاسم..

أوقفها ديراك بغضب:

- جئت تزعجينهما بهذه التخريفات؟ الدكتور هاني حائز على وسام الاستحقاق كأكبر جرّاح أعصاب متفوّق في الشرق.. أنا آسف يا جماعة..

- لا بأس يا سيد ديراك.. لا عليك يا سيدتي يخلق من الشبه أربعين..

شد ديراك على يد هنا:

- اعتذري منهما بلباقة ولننسحب..

- حسناً.. أنا آسفة.. أرجو ألاّ أكون قد سببت لكما أي إزعاج..

قالت زهرة:

- لا بأس..

صرَّت على أسنانها بعد أن ابتعدا:

- هذه المرأة التافهة؟..

- لا عليك يا حبيبتي انسي الموضوع.. جيّد أننا نحمل جنسيّة هذا البلد، دون أن يعرف أحد تفصيلات عن علاقاتنا وروابطنا العائلية السابقة..

- قلبي عليك يا قاسم، ستظل صورتك في أذهانهم.. من الصعب عليهم نسيانك..

نظرت إلى ساعتها:

- تأخر هاني الصغير في بهو الفندق..

- لا تقلقي.. يعرف الطريق إلينا..

وأتى.. بصحبته أحد رجال التشريفات..

- في خدمتكم يا دكتور..

- شكراً لك.

ثم سأل الدكتور هاني:

- هل هناك من سينضم إليكم فيما بعد؟..

- لا.. ولكن قل لي لمن هذه الطاولة التي تجاورنا؟..

- إنها الطاولة التي سيجلس خلفها صاحب الجلالة وحاشيته.. مع وليّ عهده الأمين..

- صاحب الجلالة؟..

وحضر العروسان، عايدة والضابط الكهل الذي رغم أنه صبغ شعره، فقد كان ظهره مقوساً، وقد بدا أنه في سنّ يقارب الستين، رغم محاولاته إخفاء عمره الحقيقي..

وأتى الملك المسنّ، مع وليّ عهده الذي بدا في سنّ يقارب الأربعين.. وكان لا يبعد نظره عن (عايدة) التي بدت في أروع صور جمالها الباهر..

وحين جالت وعريسها على المدعوين توقفت طويلاً أمام طاولة الملك

وتبادلت الأحاديث معه ومع وليّ عهده، قبل أن تقبل نحو هاني وقد أظهرت له كل التقدير والاحترام..

- أنا سعيدة جداً بحضورك يا دكتور.. هذا هو زوجي.. إنه رجل معروف..

- تشرفنا..

- أرجو أن تقضوا وقتاً ممتعاً معنا.. أنت الشخص الذي يشرفني حضوره حفل زفافي بعد جلالة الملك وسمو ولي عهده..

ثم قالت بحزن:

- ليت أختي وزوجها هنا..

- لا بأس يا عايدة.. نتمنى لكِ التوفيق في حياتك..

- أنا مسرورة جداً بحضوركما.. وكذلك زوجي..

قال الكهل:

- نعم... نعم.. حكت لي عايدة إنجازاتك الطبيّة أنت تشرفنا يا دكتور..

- شكراً لك..

- بإذنكم سنتابع جولتنا.. تفضّلي يا حبيبتي..

- أتمنى أن نلتقي قريباً..

- إن شاء الله.. وألف مبارك لكما..

علق هانيّ الصغير عليهما:

- تبدو مثل حفيدته.. كيف قبلت الزواج منه؟..

قال والده:

- هي أدرى بحياتها يا بنيّ..

- نعم هي أدرى بحياتها، ولكني لا أتصور إنساناً في سنه يقبل على نفسه أن يعيش مع فتاة في مثل عمر حفيدته، ويتعامل معها زوجة..

قالت زهرة:

- لا بأس يا بني.. هذا الموضوع لا يهمنا.. سيفتتح ولي العهد الرقص الجماعي بأن يرقص مع العروس..

- يعتبر ذلك تشريفاً لها يا زهرة.. هكذا جرت العادة..

- قلبي يحدثني أنه ينظر إليها بشكل مختلف..

- معك حق.. هذا يفسر ألغازاً من مجموعة الألغاز المبهمة في أحلامي..

- تعني أن الأمور ستتطور بينهما؟..

- نعم.. إن صدقت أحلامي... وستكون (رادا) هي ابنتهما.. والله أعلم...

(١٣)

كان هاني يفكّر بقلق بهذا اللقاء الغريب الذي جعل (هنا) زوجة ديراك، تقتحم عليهما صفاء حياتهما، بتذكيرهما بقاسم الذي يشبه زهرة... هذا يعني أن نوعاً من المراقبة قد تفرض عليهما بشكل غير مباشر، وربما اكتشفوا وجود سالي وقاسم الصغير الذي يشبه والده..

أفكار كثيرة مقلقة وردت إلى خاطره، ولا شك أنها وردت في خاطر زهرة التي ظهر عليها القلق والحيرة والخوف...

كان من الطبيعي أن تحكي زهرة لسالي مقابلتهما لديراك وهنا زوجته..

وهذا الأمر فجّر رعباً عند سالي، التي ضمّت قاسماً الصغير إليها، وزهرة تحكي لها عن حيرتها وقلقها..

يجب أن تختفي سالي عن الأنظار فترة مؤقتة، وأن ترصد زهرة تحركات الدكتور قاسم الذي سيأتي من سفره في موعد قريب كما قال في آخر محادثاته الهاتفية.. حتى يكون الحذر هو معيار تحركاته الدقيقة..

تعقّد الوضع، وقد استدعي الدكتور هاني بعد أيام لأحد مكاتب الأمن الملكي حيث قابله ديراك، يسأله ويستفسر منه عن حياته السابقة، والجنسية التي كان يحملها من قبل وزوجته.. وكان هاني مراوغاً ذكيّاً ضلّله بأحاديث مسهبة مفصّلة عن عذاباته في طفولته.. وعن زهرة وحيدة والدتها التي عاشت حياة صعبة بعد أن تيتمت..

لم يكن يهمه أن يكتشف (ديراك) أنه يضلّله بمعلومات خاطئة، فلقد كان يحمي بيته وأسرته وعالمه... ويبدو أن ديراك قد اكتفى بتلك المعلومات وأغلق الملَفّ، وهو يعتذر منه اعتذاراً شديداً.. فلقد كانت علاقة الدكتور هاني مع القصر تتطوّر بعد نيله وسام الاستحقاق عن مهارته المتفوقة في جراحة الدماغ والأعصاب..

عاد إلى زهرة وطمأنها إلى أن كل شيء على ما يرام، وأن على سالي أن تظل في عزلتها بعض الوقت... فهو ليس متأكداً أن (ديراك) قد نسي ذلك الموضوع بعد.. وهذا يعني أن عليهم أن يؤخروا عودة قاسم إلى وقت آخر..

ليت مدهجاً كان إلى جانبه، إن له القدرة الكبيرة في الوصول إلى أدق المعلومات وأكثرها سريّة، على الأقل ليطمئنه عمّا يجب أن يفعله...

ولكن أمراً مفاجئاً حدث جعل هانياً يبتعد عن هواجسه الحائرة بعض الوقت، فلقد تلقّى اتصالاً من هدى، كانت تبكي بكاءً مرّاً.. وتنعي إليه وفاة

عهد بعد غارة جوية قذفت فيها المستشفى بصاروخين دمّرا جناحين كاملين وقتلا العشرات.. وكان عهد من بين القتلى...

كان يستمع إلى صوتها المتهدج الحزين وهي تحكي له ما حَدث..

- قبل دقائق كنت معه، وقد استعاد طبيعته المرحة، كان يحكي لي عن أمينة ومستقبلها وهو متفائل بتفوقها.. خرجت لدقائق لأحضر له بعض العصير... حين انقض ذلك الصاروخ الحاقد على جناحه..

- هوّني عليكِ يا هدى.. كلنا مهددون بالموت في أية لحظة، إنه عصر الموت المجاني... أرجوكِ اهدئي، أنا قادم حالاً وزهرة.. تتكلمين من البيت؟..

كانت تبكي:

- نعم.. أشلاؤه مجمّعة أمامي.. آه يا إلهي أمينة تكاد تقتل نفسها.. حاولنا إخفاء الأمر عنها، ولم نستطع..

- هدى.. أنتِ واحدة منّا، دقائق وأكون وزهرة إلى جانبك..

- بارك الله فيك..

اصطحب هاني زهرة وهاني الصغير إلى منزل هدى، كان الجيران يحضرون قربها، يهدئون روعها، وحين رأت زهرة وهانياً اندفعت إليهما.. احتضنتها زهرة بحنان ودموعها تسيل بصمت من عينيها..

كان القدر يخبئ لها أحداثاً مرعبة مع أمينة، وكانت تتحسس هذه الأحداث التي تراها كوابيس في أحلامها المتكررة..

اصطحب هاني الصغير أمينة إلى الداخل يروّح عنها، وهي بطفولتها البريئة تلقي رأسها على كتفه وتبكي بكاءً مرّاً..

- ماذا نفعل يا أمينة... إنه القدر..

- ماذا فعل لهم بابا حتى يقتلوه؟.. بابا يكره الحرب والدمار.. إنه رجل مرح يحب الفرح ..،

- لا عليكِ يا أمينة.. كلنا معرضون للموت... إنهم يقصفون دون اختيار.. يقصفون بشكل عشوائي كما قال أبي..

- المجرمون؟ ماذا فعلنا لهم؟ لماذا هذا الحقد؟..

أحضرت لها زهرة كأساً من الشراب:

- اشربي العصير يا ابنتي.. أنت متعبة..

- لا أستطيع يا خالة زهرة... مات بابا.. مات..

همس هاني إلى أمه:

- اتركي العصير، سأقنعها بشربه يا أمي.. لا عليك..

- حسناً يا بني.. حبيبتي أمينة لا تبكي أرجوكِ.. والد هاني هو والدك لن نتركك أبداً..

ولكن أمينة ازدادت بكاءً، قال هاني:

- اخرجي يا أمي سأعرف كيف أتصرّف معها...

(١٤)

كان المجتمعون في منطقة (الشاليهات)، يتدارسون طريقة سفر قاسم ومحطاته المتتالية للوصول إلى تلك البلاد التي تعيش فيها أخته زهرة..

كان جون وبيتر ومايك ولارا ومادلين إضافة إلى قاسم يتحادثون بحرية حول كافة الاحتمالات الممكنة لوصوله بشكل آمن إلى زوجته وابنه...

وكان قاسم قد عرف الكثير عن حياة سالي وقاسم الصغير، وقد شعر أن عودته إلى سالي، كأنه عودة من الموت إلى الحياة...

وقد تابع وبيتر النشرات الأمنيّة الصادرة عن المطلوبين والخارجين على القانون والإرهابيين في كل أنحاء العالم، فلم يجد له صورة ولا اسماً.. فلقد قيّد بين الموتى الذين أحرقت جثثهم..

وكان هناك سؤال يطوف في ذهنه تردد كثيراً قبل أن يسأله لبيتر..

- يا دكتور بيتر.. ماذا حدث للدكتور صموئيل والكبد الذي اعتقده كبدي، وحمله لينقله إلى ذلك الحاخام..

أجاب بيتر وهو يضحك:

- لبلاهة ذلك الجراح الخطير كما كان يعتقد نفسه.. تم زرع الكبد سريعاً، بعد وصوله، في ذلك الكهل.. وخلال دقائق مات الكهل تحت التخدير، وعلّل مساعدو صموئيل فشل الزرع أن جسم الكهل كان متعباً، ولم يتحمل عملية الزرع الذي استعجلها صموئيل...

- ولم يخطر على باله دراسة نسيج الكبد المنقول..

- لا.. إذ لم يخطر في باله أبداً أننا بدلنا المريض بمريض آخر..

- هذا جزاء ثقته الزائدة بنفسه وعجرفته وتكبره...

- إنه يحكي عن نفسه كأشهر جراحي نقل الأعضاء في العالم.. يساعده في ذلك الإعلام المكثف الذي يديره أصدقاؤه.. تصوّر أجرى معه خليفة (لاري كنغ) حواراً على الهواء كأشهر الجراحين في نقل الأعضاء البديلة، وكان مغروراً متعجرفاً، متورماً بالأنا...

- الحمد لله، لم تفتح تحقيقات جديدة بعد نفاذنا من حصار القاعدة...

- لا تقلق يا دكتور.. خططنا والدكتور بيتر بدقة لكل شيء منذ خروجك من القاعدة حتى وجودك هنا.. وبعون الله حتى وصولك بالسلامة إلى أسرتك...

تنهد قاسم:

- لا أدري ما أقول لك وللآخرين، وجودكم مسح كل السواد في حياتي منذ أن ألقي القبض عليّ حتى خروجي بتلك الطريقة المذهلة من دائرة الموت... أنتم أكثر من أهلي.. سأظل أذكركم ماحييت وقد تسمح لنا ظروف الحياة باللقاء....

- مادمت تحمل هذا الجواز، وهذا الاسم، يمكنك المجيء لرؤيتنا في أي وقت.. أنا أتكلم بجديّة، وتأكد من أن هذا الجواز سليم مئة بالمئة بالنسبة إلى تلك السفارة، قدمنا لها رجلاً شبيهاً بك... ولكن المواصفات بما فيها زمرة الدم هي لك بالذات..

وحكى له جون عن تفاصيل حصوله على الجواز، وعن رحلاته المكوكيّة مع لارا إلى المحافل التي تعجّ بمسؤولي العالم الثالث الأعضاء في منظمة البنائين الأحرار... وكيف اقتنعت لارا بقبولها الزواج منه...

وهكذا استعد الجميع لوداعه.. وأقاموا له حفلاً جميلاً.. شعر في نهايته أن له عائلة أخرى في هذا البلد الذي تعد حكومته من أقذر حكومات الكوكب، وهي التي تستعبد الناس والحكومات الأخرى في ابتزاز اقتصادي منقطع النظير...

(١٥)

اعتاد الناس أجواء الحروب والمرض والموت، وأدمنوا حياة المفاجآت التي تأتي كل يوم بجديد وغريب، وقد أبلغت سالي قاسماً بالهاتف أن عليه ألاّ يأتي الآن وألاّ يفكر بالعودة حتى تهدأ الأمور تماماً، فالأجواء مشحونة بالفوضى ورجال الأمن يعتقلون الناس للشبهة.. وهكذا مرَّ الزمن.. وفي أحد الأيام هتفت زوجة عوني لزهرة تحكي لها أن عايدة ترملت من الضابط الكهل، وأن وليّ العهد تقدم لخطبتها..

لم يكن ذلك الخبر مفاجئاً لهاني، فقد كان يتوقع أن تتطور العلاقة بين ولي العهد وعايدة، طبقاً لأحلامه الغريبة.. ولكن الشيء الذي لم يتوقعه هو أن يطلبه ولي العهد بعد أيام من الخطبة لاستشارة طبية فاجأته.. كان يتكلم معه بصوتٍ منخفض:

- أنت طبيب مشهور، ونحن نقدرك كثيراً، وقد رغبت أن أتباحث معك بشأن قضية شديدة السرية أريد أن تقدم لي رأيك الصريح بها..

- سأبذل جهدي يا سيدي في تقديم الرأي المناسب، إن استطعت..

- بإمكانك أن تساعدنا، عايدة تثق بك كثيراً، أنت طبيب معروف ومتفوق، ولكن الكلام الذي سيدور بيننا سيبقى سرّاً بيننا نحن الاثنين...

- لا تقلق من هذه الناحية يا سيدي..

- أنا وحيد أبوي.. ليس لي أخوة ولا أخوات.. رغم أن أبي كان مزواجاً في شبابه.. والسر يعود، وهذا سرّ خطير لا يعرفه أحد، إلى أن أبي له خصيتان ضامرتان خلقيّاً لم تنفع في علاجهما كل الأدوية والجراحات وزرع الأنسجة.. وبالطبع جئت أنا إلى الحياة بمعجزة، كما قيل لي.. هكذا ظلّ اعتقادي حتى زواجي الأول..

فكر هاني مستغرباً: «إنه سرّ خطير فعلاً لا بدّ أن سبباً قاهراً جعله يبوح إلي به..»

- تزوجت عدة مرّات طلقت بعضهن واحتفظت باثنتين.. ثم عرفت مؤخراً أنني مثل أبي، مصاب بالتشوّه الخلقي نفسه.. وتعرفت بـ(عايدة) وأعجبت بها كثيراً، وكان الاتفاق أن يتزوجها ذلك الضابط الكهل الذي كان أحد ضباطي دون أن يمسها، ولكن حادثاً مؤثراً جرى له بعد زواجه بأسابيع فترمّلت، وكان من الضروري أن أخطبها ثم أتزوجها.. فهي الملكة المقبلة...

- ولماذا تسرّ لي بهذه الأسرار الخطيرة يا سيدي؟..

- لأنك ستكون جزءاً منها يا دكتور...

- تقصد لأنني عرفتها فسأكون جزءاً منها؟..

- لا.. كما حل أبي مشكلة عقمه فأنجبتني والدتي، سأحل المشكلة بالطريقة نفسها..

- لم أفهم شيئاً.. أرجوك وضِّحْ لي..

- ستفهم كل شيء بعد قليل..

ضغط على زر إلى جانبه ليدخل كبير حراسه:

- طلبتني يا مولاي؟

- هل جلالة الملك جاهز لاستقبالنا؟

- لم يصل حاجبه بعد يا مولاي...

- حسناً، حالما يصل أخبرني دون تأخير..

- حسناً يا مولاي..

خرج كبير الحراس، تابع ولي العهد كلامه بصوت خفيض:

- يوم الخميس القادم سيكون زفافي وعايدة.. وسيبارك ذلك الزواج الملك والملكة... وستكون ضيف شرف الحفل.

- شكراً لك يا سيدي..

ودخل كبير الحراس يستأذن في دخول حاجب الملك الذي انحنى باحترام أمامهما وقال:

- مولاي الملك في قاعة العرش ينتظرك يا مولاي وضيفك الكبير...

- حسناً، سنصل في الحال...

قادوا الدكتور هانياً في ممر مليء بالسجّاد والصور الزيتية المعلقة على الجانبين، حتى وصلوا إلى باب قاعة يقف الحراس على جانبيها باستعداد.. حيث أفسحوا لولي العهد وضيفه الطريق وهم ينحنون...

كان الملك يجلس في صدر القاعة وإلى جانبه الملكة التي تجلس على يساره...

انحنى وليّ العهد باحترام أمام والده وقبّل يده، ثم قبّل رأس أمه وجلس على يمين والده، وأشار للدكتور هاني بالجلوس إلى جانبه.. ثم أمر بإخلاء القاعة..

- يا دكتور هاني أنت رجل ذكي، أريب، متفوق.. وعبقريتك، إضافة إلى وسامتك قد شجعتنا على ضمّك لعائلتنا، أنت الآن فرد من العائلة.. وستحظى بكل المكاسب التي لأفراد العائلة المالكة..

- هذا شرف كبير يا مولاي..

ترى أي مخطط مجهول يدبرونه له؟ وتابع الملك:

- نحن سلالة تمتد إلى آدم، كلها ملوك وحكام وأمراء ورؤساء.. سلالة

تشعبت لتغزو العالم، قد لا تكون بينها صلات قربى حقيقيّة، ولكننا نعتبر أنفسنا من السلالة نفسها.. كلنا ننضوي تحت راية البنائين الأحرار الذين يحكمون العالم... وحين يموت الواحد منّا، يؤبِّنُه جميع الرؤساء والملوك والأمراء.. وتؤبنه منظمتنا أيضاً...

- اخترناك يا دكتور هاني بعد تفكير عميق لتحافظ على سلالتنا من الانقطاع؟..

- إذا كان السبب في انقطاع السلالة هو ذلك المرض الناتج عن التشوّه الخلقي، فإن تلك المشكلة غير قابلة للحلّ يا مولاي...

تدخلت الملكة وتابعت كلام الملك:

- من الوجهة الطبية هذا صحيح.. ولكننا عمليّاً سنحلّها بسرية مطلقة..

- لم أفهم يا مولاتي..

- كما أنجبت وليّ العهد، ستنجب الملكة المقبلة وليّاً للعهد أيضاً..

شدّ ولي العهد على يده هامساً:

- أرجوك يا دكتور اضبط أعصابك، ستحكي لك أمي كيف حلّت مشكلة السلالة المستمرة، قد تكون كلماتها شديدة الوقع عليك..

- اسمع يا دكتور هاني، زوجي رجل يحترمه قادة العالم، وله إنجازات كبيرة عند شعبه وعلى الصعيد العالمي.. ورغم ذلك فهو متواضع شديد البساطة أحياناً..

- أرجوكِ يا مولاتي ادخلي في الموضوع، ولا تسهبي في المقدمات...

- قال لك جلالة الملك: إنك فرد من عائلتنا الآن.. لذلك لن نخفي عنك الأسرار التي تهمنا وتهمك.. ومنها هذا السرّ الذي يوضّحُ كيف جاء ولي

العهد.. اخترنا وزوجي رجلاً وسيماً مهمّاً، شديد الذكاء، ليقوم بدور مؤقت لحلّ المشكلة الطبيّة التي تعيق زوجي الملك عن الإنجاب.. وحين تأكدت من الحمل، انتهى دوره، فعاد إلى أبحاثه وإبداعاته...

ردد مصعوقاً:

- هذا يعني أنني سأؤدي الدور نفسه مع الملكة المقبلة؟ يا إلهي مستحيل..

- اهدأ يا دكتور، وتذكّر أن رفضك يعني مصائب كثيرة ستحلّ بك وبأسرتك لا مجال للرفض، إنه موضوع سرّي خطير، سينفذ بالحرف..

همس ولي العهد:

- آسف يا دكتور، عايدة هي من اقترحتك، وقد وافقنا على ذلك فوراً لأنك تتمتع بصفات نادرة قد تورثها لولدك الذي ستلده الملكة المقبلة..

- يا إلهي معقول؟ كيف تفكرون بهذا الحل القاسي المرعب؟..

- اهدأ يا دكتور.. إنه حل منطقي، وتذكر أن الرفض يعني مصيبة، بل وطامّة كبرى تصيب زوجتك وابنك وربما أنت...

لم يعرف هاني كيف يتصرّف وقد أسقط في يده، ونصحه وليّ العهد بإعطاء الموافقة لوالده، قبل أن يصيبه الغضب فيرسل أعوانه للتنكيل بزهرة وهاني الصغير، بل وكل أقربائه وأصدقائه، ولن يجرؤ أحد على فتح تحقيق في الأمر..

تحت ضغط ذلك الابتزاز المرعب أعطى هاني موافقته، وأعيد إلى منزله، ليتهيّأ للانتقال إلى قصر منحه له الملك ولأسرته.. لحظت زهرة وجومه فور عودته، فأخبرها أن الملك يرغب به أن يعيش داخل القصور الملكية، ويحظى بكل المكاسب التي تحصل عليها العائلة المالكة...

- ولكننا لا نرغب بالانتقال من بيتنا هذا، الحياة داخل القصور الملكية لن

تكون سهلة، سنعيش في عزلة وسط حاشية ثرية مرفّهة، لها عاداتها الخاصة وتقاليدها..

- إنه عرض من الملك نفسه، لن أستطيع رفضه يا زهرة..

- ولماذا هذا الإصرار؟ أعينت في منصب يرتبط بوجودك هناك؟..

- لا.. ليس هذا هو السبب.. يرغب الملك أن أكون إلى جواره خلال الأشهر المقبلة.. ولم أستطع الرفض..

- وسالي وقاسم الصغير؟..

- أرجوكِ يا زهرة، فكري بمخرج لهم من حياتنا.. قربنا منهم سيؤذيهم... أتعلمين أن الملك وغالبية العائلة المالكة والحاشية، أعضاء في المنظمة الأخطبوطية التي اصطادت قاسماً، وهم على درجة متقدمة فيها..

- فهمت... سأحاول شرح الأمر لسالي.... يا إلهي، لماذا نحن؟ ولماذا يرغبون بنا بينهم رغماً عن إرادتنا؟ ألم توضح لهم ذلك؟..

- إنهم مصرّون على إقامتنا بينهم.. وتعلمين أن الرفض مستحيل.. فالإرادة الملكية تخطط، وعلينا أن ننفذ مخططاتها..

- هل خططوا لنا شيئاً؟ أتعرف شيئاً عن ذلك، أرجوك أخبرني..

فكر قلقاً: «وهل أستطيع البوح بما في داخلي من أحزان وقلق؟..»

- لماذا تصمت؟ احكِ لي أرجوك..

- لا أخفيكِ أن الملك يمر بظروف صحيّة صعبة، وهو يرغب أن أشرف عليه صحيّاً، هذا كل مافي الأمر...

- مصاب بمرض صعب؟ ولكنّك جرّاح، يمكنه الاستعانة بأطباء آخرين...

- لا أدري يا زهرة إنه مصرّ عليّ، ليس من مخرج لي أبداً.. أنا الآن طبيب الملك الخاص...

- يا إلهي يبدو أن القدر يخبئ لنا مفاجآت كثيرة..

تنهد بحرقة:

- فعلاً يا حبيبتي، وأتمنى أن يحفظنا الله من نتائجها الغامضة...

(١٦)

فسّر هاني كثيراً من ألغاز أحلامه.. بذلك العرض المرعب، الذي خطط له في القصر الملكي.. وحاول أن يتناسى إرهاصات هذا المخطط.. وقد تلقى من مديح اتصالاً كان أيضاً مفاجأة له.. كان بحاجة لمعرفة الكثير من الأخبار الجديدة التي يبرع مديح في اقتناصها وتحليلها..

اتفق أن يلتقي ومديح في مقهى صغير في المدينة القديمة.. فقد كان من الواضح أن (مديحاً) مازال مطارداً مطلوباً..

كان هاني يمر بأزمة خانقة لم يرَ مثلها في حياته.. أمعقول أن ينتقى من بين كل الناس ليصبح الثور الذي يلقّح، كما كانت النسوة في الجاهلية يسعين للزواج ولو مؤقتاً من رجل ذكي مشهور، أو فارس أو أديب شاعر، أو راوية أخبار ومفكّر.. من أجل أن يلدن أولاداً، شجعاناً أذكياء يصبحون مشهورين معروفين في أوساط القبائل..

أمعقول يا إلهي أن يصل بي الحال إلى هذا الحدّ؟ أشعر أنني أرتكب جرماً بحق زهرة وهاني الصغير، وبحق نفسي.. ولكن هل كان من خيار أمامي؟..

هكذا كان هاني يفكّر في تلك الليلة التي سبقت لقاءه مع مديح، وفي تلك الليلة رأى حلماً غريباً، حلماً مكوناً من مشاهد متتابعة، أرجفته وأرعبته..

رأى هاني كأنه يزف إلى عايدة وسط حفل صاخب، ورأى وجهاً كريهاً يحملق به وهو يسير معها وسط الأهازيج والزغاريد.. كان وجه الملك..

- «اسمع لي جيداً، أريد أن أرى حفيدي سريعاً.. أريد أن أطمئن عن أن ابني أنجب وليّاً للعهد.. وأن السلالة لم تنقطع.. أسمعت؟ اجعلها تحمل حفيدي سريعاً»..

ثم رأى نفسه في سجن معتم يلبس اللباس الأحمر، ثم رأى زهرة تصرخ وهي تحتضن هانياً الصغير.. ورأى فجأة (رادا) الأميرة الصغيرة تقول له..

- انتبه لنفسك يا أبي، إنهم وحوش..

وعاد الحلم في مشهد جديد، لأمينة وهاني الصغير وهدى تحتضنهما وهما مذعوران يبكيان، ثم رأى مشهداً مرعباً لزهرة تنقلب إلى تمثال يتفتّت، فاستيقظ وقلبه يضرب بعنف، كانت زهرة إلى جانبه:

- كان كابوساً.. عادت إليك أحلامك الغريبة؟..

- لا.. مجموعة من المشاهد المزعجة.. أنا بخير لا تقلقي عليّ..

- قلبي عليك يا حبيبي.. منذ أن بلغت خبر انتقالنا للقصر، وأنت لست على طبيعتك... إلى هذه الدرجة أنت متشائم؟..

- سيحدث تغيّر كبير في حياتنا، أنا رجل معتاد على العمل وأكره الفراغ.. معتاد على تقديم العون للناس على حساب جهدي وتعبي، وأنا أشعر بمتعة أن أرى وجوههم التي تقطر عرفاناً، وهم يرونني أجري جراحات صعبة ناجحة لأحبائهم...

- وفي القصر، قد لا تجد عملاً حقيقياً.. ستظل مفرغاً للإشراف على صحّة الملك وربما أفراد العائلة المالكة؟..

- القصور الملكية تعج بالأطباء من مختلف الاختصاصات، وأنا سأهتم بالملك، وبالتأكيد سيساعدني أطباء آخرون..

- هل يشتكي الملك من داء عضال، يحتّم وجود جرّاح ماهر إلى جانبه أيضاً؟..

- لا أدري يا زهرة.. لم أجرِ فحوصاً عليه.. ربما قد أعرف الجواب عن ذلك بعد أيام..

تنهّدت:

- أرجو ألاّ يخبئ لنا القدر مفاجآت محزنة في تلك القصور..

- اللهم أعنّا على هذا التغيير، ولا تجعله مصدر تعاسة لنا..

- يارب.. لطفك وعفوك يا كريم يا حليم..

- قولي لي يا زهرة ألم يتصل بك قاسم من جديد؟..

- بعد ذلك الاتصال الذي جرى أمامك وقال: إنه مستعد للقدوم إلينا.. وطلبت منه تأجيل ذلك أيضاً.. لم يجرِ أي اتصال معي أو مع سالي.. وهي تشعر بالقلق عليه لأنه تأخر في اتصاله...

- أعتقد أنه سيتصل مساء الغد في ليلة رأس السنة وحين يتصل أبلغاه أننا سننتقل إلى القصر، وأن سالي الآن بحاجة إليه...

- يا إلهي كم يمر الزمن بسرعة.. أتعلم؟ اختارت لجنة الترشيحات أمينة، كطالبة متفوقة، لتتابع تحصيلها العلمي رغم صغر سنها في بلاد القوة العظمى..

- ماذا تقولين.؟

- هكذا قالت لي هدى أمس، ستسافر في أيلول (سبتمبر) المقبل.. أي بعد نحو تسعة أشهر.. وهدى تحاول تعطيل هذا السفر عاماً آخر.. وقد طلبت مني أن أكلمك في هذا الموضوع..

- تريدين أن أتوسط في هذا الأمر؟..

- إن رغبت، هي لا تريد إحراجك..

- سأتكلم في الموضوع مع وليّ العهد غداً.. أعطتك المعلومات اللازمة حول أمينة؟..

- نعم، كل شيء مكتوب في ورقة تركتها على مكتبك.. إنها السادسة صباحاً الآن؟ هل أجهز لك القهوة والإفطار؟..

- لا بأس... يجب أن أجهز نفسي لجراحة معقدة في الثامنة..

سمعا فتح باب ووقع أقدام:

- لقد استيقظ هاني.. استعداداً للمدرسة..

دخل هاني الصغير:

- صباح الخير.. قالت أمي: إنك ستنقلني من المدرسة يا أبي؟..

- نعم..بعد العطلة الانتصافية.. أعرف أنك تحب مدرستك الحاليّة، ولكن ماذا أفعل، عينوني في وظيفة جديدة لا أستطيع رفضها، أعتقد أن أمك قد شرحت لك الموضوع...

- نعم يا أبي.. أتعلم اسم المدرسة؟..

- إنها المدرسة الأمريكية، هي مدرسةتعتني بالمتفوقين، وتشجّع من يرغب بمتابعة دراسته في أمريكة بعد أن تهيئ له القبول المناسب في الجامعة المناسبة..

- لا بأس.. هذه إرادة القدر..

خرج ليجهز نفسه للذهاب إلى المدرسة..

قالت زهرة:

- إنه يتكلّم بلغة أكبر بكثير من سنّه.. لغة رجل ناضج متفهم لطبيعة المرحلة..

- هذا يريحني كثيراً...

(١٧)

مرّ الوقت سريعاً، وبعد أن أنهى هاني جراحته الصعبة التي استمرت ست ساعات متواصلة، خرج متعباً من المستشفى في طريقه لمقابلة مديح في ذلك المقهى المنزوي...

لم يتأخر في الوصول إلى المقهى في الموعد المحدد، لم يكن مديح قد وصل بعد كما توقع.. جلس يتأمل الجالسين، الذين بدوا عابسين متجهمين، كأنما تتجذر الهموم في صدورهم..

جلس قربه رجل ملتحٍ، يرتدي لباساً ريفياً، وهمس يقول له:

- مع الأسف، حتى هذا المقهى لا يخلو من المراقبة.. تكلم معي بصوت منخفض.. سنحضر طاولة للنرد ونتظاهر باللعب..

- سأتناول طاولة النرد من على الرف هناك وأعود إليك..

- حسناً.. سأطلب كأسين من الشاي..

ثم طلب كأسين من الشاي وزجاجة مياه معدنية.. وحين عاد مديح مع طاولة النرد سأله خادم المقهى:

- هل تريد نرجيلة؟ معسّل زهور التفاح، أحدث ما وصل إلينا؟..

سأل هاني:

- أترغب في نارجيلة يا دكتور؟..

- لا.. إذا رغبت أنت بالتدخين لا مانع عندي.. لا أنزعج منها..

- حسناً نارجيلة واحدة لي..

رتبا الأحجار على طاولة النرد وبدأا الحديث:

- أما زلت مطارداً؟..

- نعم.. ولولا تنكري المتواصل في أزياء مختلفة، لتمكنوا من القبض عليّ، وأعتقد أنهم لو نجحوا في ذلك فسيكون مصيري صف الإعدام في (غوانتانامو).. وهذه المرة سيكون إعداماً حقيقياً.. هه.. أراك حزيناً قلقاً؟ خير؟..

- لا شيء... قلق عام.. حول إرهاصات هذا العصر المضطرب..

- آه يا هاني.. أرى أمل الإنسانية بالعودة إلى نظامها الخير، أملاً غاية في الضآلة.. تصور أنني أنتقل من مكان إلى آخر، أتصيد الأخبار والأفكار حول المستقبل.. فأقع في أفخاخ من يطاردني حتى أصل إلى اليأس، ثم يأتيني الفرج من ثغرة صغيرة أستطيع أن أهرب بها من مطارديّ..

- تكلّم واستمر باللعب، حتى لا نلفت الأنظار...

- نعم.. نعم... الشعوب المقهورة بسلطات طغيان تتحكم فيها، وبمصيرها، تزداد قهراً وفقراً، بعد أن روجوا بين بسطائها إعلانات وأفكاراً تشجع على التعصب والكراهية، وخرقوا كل القوانين الناظمة للتعاون الاجتماعي والطبقي..

- وضّح أفكارك يا مديح، ما تقوله ليس سوى عبارات عامة...

- قابلت أحد الشيوخ المتنورين، فحكى لي عن الاختراقات التي حدثت في الفكر الإسلامي لتشويه هذا الفكر الذي قدّم للبشرية إبداعاته العظيمة خلال ثمانية قرون، بدأت في الثامن الميلادي واستمرت حتى السادس عشر منه... اختراقات من قبل فقهاء يروجون للسلام والتنازل عن الحقوق والتنديد بالعمليات الاستشهادية...

واختراقات أخرى من قبل تنظيمات أصوليّة تنفذ أوامر قتل باسم الحفاظ على السلف، وهي حقيقة تنفذ ما تريده القوة العظمى، لتشويه الصورة السمحة الحقيقية للإسلام...

- والدعوات للديموقراطيات المفتوحة، هي تثبيت دعائم حكم القوارض الجديدة التي تحكم بتابعية مطلقة للقوة العظمى..

- نعم.. أستمع إلى هذه القصة الغريبة التي جرت لي مع أحد المراسلين الأجانب..

- قل لي أولاً ماذا حدث لك بعد أن غادرتنا؟

- كنت قد وقعت عقداً مع أحد الناشرين للكتابة عن أسرار ما يحاك من مؤامرات وإجراء لقاءات مع معارضي العولمة بوجهها القبيح، وتحقيقات عن مذابح سرية نفذت في مجموعات عرقيّة، ومجموعات مقاومة إسلامية.. وغير ذلك من الموضوعات الحسّاسة المهمّة...

- حدثتني من قبل عن ذلك العقد دون أن تسهب فيه.. وماذا فعلت حالما خرجت من منزلنا متخفياً؟ هل بدأت تحقيقاتك مباشرة؟..

- أخذت أنتقل من مكان إلى آخر، وأصدقائي المتنفذون يقدمون لي العون، ويساعدونني في إبراز وثائق وجوازات سفر بأسماء مستعارة للنفوذ إلى مناطق حسّاسة مغلقة، ظللت على هذه الحالة عدة أشهر، وأنا أكتشف المزيد من الأسرار الغامضة التي لا يعرفها أحد..

- وماذا حدث لك مع ذلك المراسل الأجنبي؟..

- قدمت له نفسي مراسلاً لإحدى الصحف الأمريكية المعارضة لحرب العدل التي شنت في تشرين أول اكتوبر (٢٠٠١) ومازالت مستمرة حتى الآن.. وقد انشدّ (ستارك) وهو اسمه إلى حديثي ففتح لي قلبه وحكى لي أسراره مع القوارض التي أجرى لقاءات مع كل منها، كانت مثيرة للعجب.. قارض (١) وقارض (٢) وقارض (٣) وقارض (٤)... وغيرهم كثير، ممن نصبتهم القوة العظمى حكاماً على شعوبهم، لنشر الديمقراطية كما تفصّلها القوة العظمى، للاستسلام، والخنوع لكل قراراتها...

- وما هي هذه الأسرار التي وجدتها هامة؟..

- كيف يجري التخطيط لإقامة نظام تابع يرأسه قارض مدجّن (مفبرك) ليحكم شعبه بالتجويع والقهر والاستلاب، وزرع نماذج من الأتباع الذين يهللون ويصفقون ويطنبون في مدحه، ويدبجون الكتب والمقالات والبرامج الخاصة في مدحه وتصويره كالرجل المناسب الذي أتى لإنقاذ البلد من الضياع.. نماذج من الأتباع الذين يستغلون مناصبهم لتجميع الأموال والتحكم بالعباد على أرضيّة من النفاق والفساد غير المحدود..

آه يا هاني.. كتبت كثيراً مما قاله لي وسجلت كثيراً من أحاديثه التي كان يدلي بها لي دون حساب...

- إنها مصادفة هامة ساعدتك في أبحاثك وتحقيقاتك؟

- بالطبع بل وأغنت الكتاب الذي أؤلفه.. المهم كان ستارك يخطط للقاء مع القارض رقم (٧)، وكان قد أخذ الموافقة اللازمة على إجراء مثل هذا الحديث.. وحدّد تاريخه ووقته وقد دعاني لأحضر هذا اللقاء، بعد أن اصطحبني معه مصوّراً فوتوغرافياً، وكنت أتظاهر بأنني أكتب ما يقوله القارض (٧)، ثم أهمس إلى ستارك بأسئلتي ليسألها..

- لم تقل لي ما جنسيّة ستارك؟..

- كان بلجيكياً يعمل في مجلة أسبوعية عالمية توزع ملايين النسخ...

- حدثني عن قصة ذلك اللقاء مع القارض (٧)؟

- حسناً.. استقبلنا مدير مكتبه وسط مظاهر التبجيل والاحترام وقال لنا:

- سيدي في انتظاركما.. تفضلا..

دخلنا مكتبه الفخم:

- أهلاً وسهلاً بكما.. ماذا تشربان؟..

- قهوة سادة من فضلك مع زجاجة ماء..

أشار بيده لمدير المكتب وهو يقول:

- أحضر ما طلباه بسرعة واعتذر عن المقابلات الطارئة، وحوّل المكالمات إلى مكتبك.. أنا في اجتماع هام جداً..

وبعد أن أدخلت القهوة والماء وأغلق الباب جيداً قال القارض (٧):

- حسناً.. ماذا تريد يامستر ستارك؟

- أسئلتي ستكون صريحة وواضحة، وأرجو من سيادتكم الإجابة عنها بالوضوح نفسه..

- تفضل، أنا رجل صريح مع شعبي..

- يقال: إن ضغوطاً كثيرة مورست على أقطاب المعارضة من أجل دعم ترشيحك لمنصب رئيس الدولة؟..

- هذا غير صحيح، المعارضة وجدت فيّ أملاً في تحقيق الأهداف التي تسعى إليها.. لذلك دعمت ترشيحي.. وهكذا فزت بأغلبية مطلقة.. (٩٧،٩) بالمئة..

- أنت تحمل جنسية أخرى غير جنسية بلدك..

- صحيح، الجنسية الأولى هي الأهم.. وهي الجنسية التي أهَّلَتني للترشيح..

- ولكنك عولَميّ الهوى، تسعى لفرض العولمة التي تخطط لها القوة العظمى..

- لنكن صريحين، القوة العظمى هي سيدة العالم، لماذا يريدون معاداتها، رغم أنها تساعد كثيراً من الشعوب الفقيرة.. أنا لن أقف في الخندق المعادي لها، وبصراحة أكثر أنا في صفها، ونتيجة انتخابي بأغلبية مطلقة، مع علم الناس بتوجهاتي، تدل على أن الشعب بغالبيته مع آرائي وإعلاناتي الانتخابية..

همستُ في أذن ستارك:

- اسأله عن المعتقلين الذين جرى اعتقالهم بعد استلامه؟..

وحور ستارك السؤال:

- يا سيدي، بصراحتك المعهودة نريد أن تحدثنا عن المعتقلين الجدد؟

- إنهم مجموعة من الإرهابيين الذين استطاعت أجهزتنا الأمنية تتبعهم والقبض عليهم بسرعة قبل أن يقوموا بعملياتهم التخريبية...

همستُ إلى ستارك من جديد:

- ولكن بعضهم أساتذة في الجامعات ومراكز البحوث وهم كبار في السنّ؟ اسأله هذا السؤال

صاغ السؤال بشكل آخر:

- كيف يخطط أساتذة الجامعات وهم كبار في السن لعمليات تخريبية؟.

- هم الذين يخططون، قلتها أنت، وينفذ الشبان الصغار هذه العمليات..

- وما هي رؤيتك للمستقبل خلال السنوات القادمة؟.

- نحن نسعى لعالم أكثر أمناً، والديمقراطية فرضت نفسها على الدول، حيث بدأت الشعوب بتغيير نمط حكمها، وأصبحت البلدان الديمقراطية هي الأكثر عدداً، وكلها انتخبت زعماءها بطرق قانونية... وأعتقد أننا نسير على طريق فرض الديمقراطية على كل شعوب الأرض..

سألته عن طريق ستارك:

- تحت ظل القوة العظمى أصبحت الدول تابعة تماماً.. هكذا تتصور السنوات المقبلة؟

- بالطبع.. القوة العظمى برزت على الساحة الدولية منذ قرن وأكثر، وبعد أن نمت وتعاظمت قوتها بعد الحربين نتيجة تخطيط مدروس واستراتيجية متكاملة، أصبحت الآن سيدة العالم، كل القوى الأخرى تنبري تحت ظلها مهما كانت، وبسبب ذكاء المخططين فيها، أحدثت خروقات كبيرة في القوة

الأخرى فأضعفتها ووضعتها في ظلّها كما قلت.. فمن الطبيعي أن تظل لها السيادة في السنوات المقبلة...

- وليس من أمل ببروز قوة منافسة لها.؟

- حتى التسعينيات من القرن الماضي كانت هناك قوتان كبيرتان القوة العظمى الآن، والقوة الأخرى في الدول ذات المجتمعات المتساوية كما كانت تسمى، ونتيجة تخطيط استراتيجي بعيد المدى اخترقت هذه القوة الأخرى من جواسيس وعملاء وتنظيمات البنائين الأحرار، فنسفت من جذورها وانهارت.. ولم يعد لها وجود، اخترقت أولاً بالرأس الذي فككها، ثم برأس آخر باع ممتلكاتها، ثم برأس آخر باع قوتها النووية.. ألا ترى عظمة التخطيط المدروس؟ القوة العظمى الآن هي سيدة العالم، تملك خبراء في تحطيم ثورات الشعوب، خبراء في الحصار الاقتصادي.. خبراء في القتل المنظم المدروس لكل أعدائها.. إنها فعلاً سيدة العالم بخبرات الذكاء والتفوّق والتنظيم الاستراتيجي بعيد المدى...

وتابع مديح رواياته الغريبة، عمّا جرى له من أحداث خلال فترة تنقلاته المدروسة للظفر بأخبار وأسرار وتحقيقات مثيرة..

- بالطبع انتهت مقابلتنا مع ذلك القارض، وقد فصّل لنا الكثير من الأحداث التي التقطها من لقاءاته مع قادة القوة العظمى.. شعرنا بعدها أن السنوات المقبلة ستكون شديدة الحرج بالنسبة إلى الإنسانية على هذا الكوكب..

قال هاني محذراً:

- هناك امرأة تجلس إلى جانبنا يبدو أنها تتأمل فيك كثيراً، كأنها ترتاب بشخصيتك..

ردد مديح:

- أعرف ذلك، تجاهلها.. سأعرف كيف أداريها..

واستمرا يتحادثان في ذلك المقهى المنعزل البعيد، دون أن يلقي مديح بالاً لتلك المرأة التي تجلس إلى جانبهما شاردة حزينة...

(١٩)

كان الدكتور قاسم في الطرف الآخر من العالم يعقد اجتماعه الأخير مع أصدقائه، وكان في الأشهر الماضية قد تعلّم العبريّة وأتقنها جيداً حتى ينسجم بذلك مع اسمه الذي وضع في جواز سفره الجديد... كان أصدقاؤه حزينين لفراقه، وقد ترك أثراً طيباً بينهم خلال سنوات إقامته..

قال بتأثر:

- لست أدري ما أقول لكم، لقد طوقتموني بجميل لن أنساه ما حييت، لولاك يا جون لكنت الآن رماداً في محرقة الموتى في تلك الجزيرة.. لقد أعدت إلي الحياة، وأعدت إلي الثقة بالناس..

- لا تقل ذلك أرجوك يا دكتور.. تعلمت منك الكثير، أنت أستاذي ومعلمي.. هل كان بإمكاني تركك تقتل بتلك الطريقة الهمجية؟.. مافعلته ليس سوى واجب بل أقل من الواجب.. وهذا ينطبق على الجميع.. أليس كذلك يا دكتور بيتر؟..

رد بيتر:

- أقول الحق: إن دخولك يا جون إلى حياتي، نبهني إلى أشياء كثيرة غافلة في داخلي... وبعضها كان خارجاً عن نطاق اهتمامي، بدأت أنظر إلى الحياة نظرة أخرى، نظرة فيها الكثير من العمق، ازداد اهتمامي بالإنسان وقضاياه

والحصار الذي يتعرض له... وعرفت أن دولتنا شديدة الظلم والطغيان، تلقي بثقلها على العالم حتى تكاد تسحقه.. كنت خصماً لمايك زوج مادلين، ثم اكتشفت أنه ليس ضعيفاً أو رقيق القلب كما كان يشاع عنه، بل كان إنساناً له مبادئه...

قال مايك:

- أنا سعيد بأنك فهمتني أخيراً..

- كأن وجودك يا دكتور قاسم جمعنا على المحبّة من جديد..

- تأكد يا دكتور، إن كثيراً من الناس هنا ضد ممارسات حكوماتهم المتعاقبة في طغيانها على العالم وظلمها وجبروتها.. نحن جزء من الناس كما ترى..

- أعرف ذلك، وأتمنى أن تسنح لنا الظروف في المستقبل لنجدد لقاءاتنا.. قد تستطيعون زيارتنا في المستقبل؟ من يعلم؟ للقدر تصاريفه العجيبة..

- أتمنى لو آتي ولارا إليك بعد ولادة طفلها الأول.. بشرط أن لا يؤثر ذلك فيك..

- وكيف سيؤثر فيه يا جون؟ هو (ياكوف أزرا) وليس قاسم.. سجله انتهى منذ فترة طويلة.. وشخص (ياكوف أزرا) هو شخص شديد الاحترام، يستطيع أن ينفذ إلى أي مكان تريد..

- معك حق.. إذن استقر في المكان الذي ستسافر إليه، وسنزورك بعد أشهر، أعدك بذلك..

- سأكون مسروراً بوجودك يا جون ولارا، وحبذا لو أتت المجموعة كلها؟..

قالت مادلين ضاحكة:

- سنكون عبئاً عليك جميعنا؟ تحتاج لورشة طبخ وورشة تنظيف، لن تستطيع سالي القيام بأعبائنا جميعاً..

أكّدَ مايك:

- سنكون على اتصال بك.. قد نلتقي من جديد؟ من يعلم؟ أليس للقدر تصاريفه العجيبة كما قلت:

- حسناً يا دكتور.. في الخامسة صباحاً سنكون في المطار، يجب أن تتكلم مع أسرتك وتخبرها عن موعد السفر وموعد الوصول؟..

- سأتكلّم معهم.. وأرتب كل شيء بعون الله..

سألت لارا جوناً:

- أمتأكد أن لا خوف عليه يا جون؟..

- نعم أنا متأكد.. زرعنا الولايات كلها برّاً وجوّاً لم يشك أحد فيه، ولم يسأل عن شيء، جوازه واسمه لا يدعان مجالاً ولو ضئيلاً إلى الشك..

- أتريد فعلاً السفر إليه وزيارته هناك؟..

- نعم.. إن كان بالإمكان، أنا أرتبط به بعلاقة فريدة يا (لارا) إنه طراز مختلف عن الناس الذين نعرفهم، طراز قوي عميق، زاخر بالمعرفة والعلم.. وفهم طبيعة الإنسان..

- يا سبحان الله، المصادفة التي جعلتك ترى اسمه جعلتك تنقذه من موت محقق، وساهمت وبيتر في ترميم الخراب الذي أصاب جسمه واليأس القاتل الذي تشبّع فيه.. عدا عن الانهيار المعنوي شبه التام..

لم يستطع قاسم النوم كان قلقاً بلغ توتره الذروة وهو ينتظر اللحظة المناسبة ليتكلم مع زهرة بالهاتف.. وقد خرج الجميع من عنده بعد أن ودعوه وداعاً مؤثراً، بكت فيه لارا ومادلين تأثراً.. وقد تعلقا به وبأفكاره ومبادئه، وقد حكى لهما عن الشرق وسحره وحضاراته عن الحضارة العربية الإسلامية، وعمق رسالة الإسلام وسماحته...

☆ ☆ ☆

فتحت زهرة الباب تستقبل هانياً الصغير العائد من المدرسة حين رن جرس الهاتف.. فرفعت السماعة لتسمع الصفيرة الدولية..

- آلو.. من؟ أخي كيف حالك؟..

- زهرة حبيبتي، سأصل إليكم خلال يومين بلّغي هاني وزوجتي وابني مجيئي.. وقولي لهاني الصغير أن (خالو) سيراك قريباً مع السلامة.. أعتقد أن الوقت ملائم الآن؟

ردَّدت:

- نعم إنه الوقت الملائم... نحن بانتظارك..

وضع السماعة، كانت زهرة تبكي، سألها هاني الصغير:

- خالي قاسم؟ سيأتي قريباً؟..

- نعم يا بني.. قريباً جداً..

- هوّني عليك يا أماه..

تماسكت:

- أنا أبكي من التأثر يا بني.. منذ سنوات وأنا أحلم بلقائه.. تعلم كم هو عزيز عليّ؟..

- سيفرح أبي كثيراً لهذا الخبر.. سأذهب لإبلاغ زوجة خالي وقاسم الصغير، أظنها عادت من وظيفتها، بصحبته بعد أن أحضرته من المدرسة..

- انتظر سنذهب سوية..

انفجرت سالي تبكي.. وأخيراً سيعود إليها بعد هذا الغياب الطويل، كم أوحشها وجهه وصدره الحنون؟ يا إله السماوات أمعقول بعد هذه السنوات؟

تلقفت زهرة قاسماً الصغير بحضنها، وهي تحكي له عن والده، وظروف غيابه الصعبة بأسلوب هادئ، بسيط ليستوعب الحدث الذي رأته كبيراً كبيراً..

وفي ذلك الوقت كان الدكتور هاني مازال مع مديح يستمع لأحاديثه التي طالت وطالت.. وهي مثقلة بالأسرار الكبيرة التي تلخص لقرن مرعب.. وما زالت تلك المرأة الأنيقة التي قدر هاني أنها في بداية عقدها الرابع تجلس دون أن ترفع عينيها عن مديح.. وهو يتظاهر بأنه غير مكترث لرقابتها المستمرة..

(١٩)

كان مديح مسترسلاً في الحديث حول تركيبة العالم الجديد، وقلب الأنظمة الجمهورية إلى أنظمة ملكيّة ديمقراطيّة كما تطلق عليها القوة العظمى.. فلدى قلب أي نظام متمرد كانوا يفتشون عن فرد من بقايا سلالة ملكيّة كانت حاكمة لينصبوه قارضاً جديداً، مطلق الولاء للقوة العظمى..

قوانين التغيير يجب أن تطال الجميع، لا أحد خارج النظام العالمي الجديد بقطبه الأوحد.. حتى القوى الأخرى، لم تكن تتمرد على الأوامر، بل كان

أكثرها رفضاً، يطلق نداءات خجلى ترجو القوة العظمى أن تخفف من سياسة طغيانها..

كان هاني يستمع إلى مديح وهو يرجع أحلامه الغريبة عن انهيارات وزلازل في بنى الشعوب.. الأحلام التي رأى فيها عايدة الملكة وزاهياً الحاكم المطلق، ورادا الأميرة الصغيرة كسيرة الجناح..

أمعقول أن يدخل في دائرة التابعيّة المطلقة للملك، وينفذ ما ارتأوه له بسريّة مطلقة.. ثور يلقّح من أجل الإنجاب حتى لاتندثر سلالة سمّاها الملك، مستمرة منذ عهد آدم..

ولم يتعب مديح عن الحديث عن رؤيته للمستقبل، وبعد أن أنهى فنجان قهوته الثالث مع هاني وهما يتظاهران بلعب النرد.. نهض إلى الطاولة المجاورة التي كانت المرأة الشقراء تجلس خلفها وعينها لاتفتر عن النظر إلى مديح..

اقترب منها فجأة ثم قال لها وقد رأى خوفها من اقترابه المفاجئ..

- يكفي (دعد)، لماذا هذا الإصرار على ملاحقتي؟

قالت بخوف:

- عرفتك من طريقة مشيتك، ولأنك متنكّر حزرت أنك في عمل سرّي مشيت خلفك بصمت حتى دخلت وجلست وصديقك إلى هذه الطاولة.. مديح لماذا هذا الهروب مني؟ كنا زوجين متحابين، لايستطيع أحدهما الابتعاد عن الآخر، ما الذي جرى؟

قال متنهداً:

- أنا رجل كثير الأسفار، كثير المغامرات، كثير المرور بمآزق خطرة.. لماذا أتعسك بمتابعتي، والتعلق بي، وقد تفجعين بموتي في أية لحظة؟ لماذا يادعد؟

استمرت تبكي:

- أنت كل حياتي، لا أستطيع الابتعاد عنك؟ أيمكن أن أترك والد ابني يبتعد عني وعنه هكذا بسهولة؟

قال مدهوشاً:

- والد ابني؟ ماذا تقولين؟ لم أعرف أنك كنت حاملاً..

- أخفيت عنك ذلك، خفت أن ترفض حملي، إنه طفل جميل جذّاب..ليتك تراه..

- تعالي اجلسي معنا أنا والدكتور هاني.. حدثيني عن طفلنا، كيف ولد؟ ومتى؟

- منذ كم من الوقت فارقتنا؟ ألا تذكر؟

- نعم.. قبل رحلتي الأخيرة إلى الشرق منذ خمسة عشر شهراً أليس كذلك؟

- نعم، منذ الشهر التاسع العام الماضي.. كنت في الشهر السادس من حملي في ذلك الحين..

- أي إن ابننا الآن يكاد يكمل عامه الأول..وماذا سميته؟

- الاسم الذي كنت تميل إليه، وقد سألتك عنه بشكل غير مباشر.. أتذكر؟

- نعم.. صادق، في زمن عزّ فيه الصدق..

- نعم..إنه صادق.. ألا تريد أن تراه؟

- ماذا تقولين؟ بالطبع أريد أن أراه.. آه يادعد، وضعي صعب جداً.. نسيت أن أعرفك بصديقي الوحيد، الدكتور هاني.. بالتأكيد رددت اسمه مراراً أمامك؟

- تشرفنا..نعم.. إنه اسم مألوف.. ولكني متأكدة أنك لم تحك له عني شيئاً؟

- أنت سرّي الخاص، وأنا لا أحكي أسراري الخاصة لأحد، وأصدقائي يحترمون فيّ هذه الميزة..

- وأين تعيشين الآن؟ وماذا تعملين؟ عذراً منك يامديح..

- بالتأكيد أنا لا أعرف عنها الكثير الآن.. اسألها ماترغب، أنا نفسي أريد أن أعرف أجوبتها عن أسئلة كثيرة..

- أنا أعيش في الحيّ الغربي.. وقد اضطررت إلى ترك بيتنا في وسط المدينة بسبب أجرته الكبيرة.. أنا أعيش وصادق في بيت صغير، قرب أهلي..

- ألا يسأل عني أحد من أهلك؟

- قيل لهم: إنك سجنت بسبب آرائك المتطرفة.. وقد حزنوا لذلك، تعلم كم يحبك الجميع عندنا.. أنت تأسر قلوبهم يامديح.. حبهم لك أكبر بكثير من أن أستطيع التعبير عنه.. يرون فيك الرجل الجريء الشجاع على تحدّي تفاهات العصر..

- حدثيني عن الصادق، كيف هو شكله؟

قال هاني بتردد:

- رغم أن كل ماجرى أمامي كان مفاجئاً، وقد اعتقدت أن (دعداً) من رجال الشرطة السريّة تطاردك، فإنني سعيد بمعرفة أن لك زوجة وولداً..

- لابأس ياهاني.. مارأيك لو ذهبنا معاً إلى منزل الحيّ الغربي؟ سنرى صادقاً.. تصوّر، عندي ولد ولا أعرف عنه شيئاً..

- أنت المقصّر في السؤال عني؟ تعلم كم أحبك؟

- لاداعي للعتاب ياحبيبتي، هيا نذهب إلى المنزل بحذر، أنا مطارد قد يعرفني أي من رجال الأمن الذين يطاردونني بأوامر من القوة العظمى.. ألديك سيارة؟

- نعم سيارة صغيرة، اشتريتها قبل شهر بمساعدة أخي..

قال هاني:

- لم لانذهب بسيارتي؟

- من الأفضل أن تتبعنا بسيارتك، سأستقل سيارة دعد..

- ألا يعلم الأمن أنك متزوج، وأن دعداً زوجتك، قد يلاحقونك إلى هناك؟

- سنكون حذرين في ذلك، تعلم كم أنا سريع الاكتشاف لآثارهم.. أشم روائحهم على بعد ميل..

☆ ☆ ☆

وصل مديح ودعد، تتبعهما سيارة هاني إلى الحيّ الغربي.. لم يستطيعا التقاط وجود أي شيء غير طبيعي.. نزل مديح وهو يعرج كمصاب بشلل نصفي، وصعد ودعد درجات الحديقة المحيطة بالبيت، ثم تبعهما هاني سريعاً..

كان مديح متشوقاً إلى رؤية ولده.. ورغم ذلك لم يغفل عن مراقبة ماحوله ليطمئن إلى أنه غير ملاحق.. وحالما رأى الطفل الصغير في سريره وهو يناغي، وقربه أخت دعد حتى انتابته موجة بكاء مفاجئة..

كان الصبي يشبهه فعلاً، وكان وسيماً، ضحوك الوجه، ضمه إلى صدره بحنان دون أن تتوقف دموعه عن السيلان رغم محاولات هاني تهدئته..

الآن يجب أن يكون حذراً في مغامراته، فخلفه زوجة وولد ينتظران عودته سالماً، وهو مايجب أن يفعله..

ودعهم هاني عائداً إلى البيت، ليجد زهرة وهانياً الصغير وسالي وقاسماً الصغير أيضاً ينتظرون عودته بفارغ الصبر، فخلال عشر ساعات سيصل قاسم.. باسم جديد وجواز سفر جديد، وهم لايعرفون عن شخصيته الجديدة شيئاً..

(٢٠)

كان قاسم في ذلك الحين داخل الطائرة يعد الساعات التي تفصله عن لقاء سالي وزهرة وهاني والصغيرين.. بعد سنوات الغياب الطويلة تلك..

وبناء على طلبه لن ينتظره أحد في المطار، سيعتمد على نفسه للوصول إليهم.. كان القلق والتوتر يسيطران عليه وهويقترب من أجواء تلك العاصمة العربيّة ..

رغم أنه ازداد ثقة بنفسه في الأشهر الأخيرة، ألا أن تنقله بين الشرق والغرب في تلك البلاد، لايعني أنه خارج إطار الشك.. ففي الشرق تكثر العيون وآلات التصوير الخفيّة، وتكثر الرقابة حتى تشمل إحصاء التنفس الذي يتنفسه المرء..

إنه مسلّح بجواز سفر رفيع، وباسم لايقبل الشك، ثم ان الزمن الطويل الذي مرّ عليه منذ خروجه من (غوانتانامو)، قد غيّر بعض ملامحه..

كان في درجة رجال الأعمال، وقد اهتم الجهاز المضيف براحته، وحين حلقت الطائرة الأمريكيّة فوق ذلك المطار الأنيق، ازداد وجيب قلبه.. وتذكّر أول وصول له إلى الشرق إلى مطار بلاده اللصيقة بهذه البلاد، حيث تلقفته

تلك المنظمة الأخطبوطيّة، وأرغمته على الدخول في دائرتها بأن جعلته عضواً أصيلاً فيها، وسلمته منصباً كبيراً، خدم فيه خططها المبرمجة القائمة على القتل والحصار والصفقات المشبوهة..

لن يرى أحداً بانتظاره، تماماً كما في تلك المرّة.. واليوم هو أول يوم من عام (٢٠١٨).. احتفل رأس السنة الماضية مع أصدقائه (جون ومادلين ومايك ولارا) وكذلك السنة التي سبقتها.. لم يعتد من قبل الاهتمام بهذه الاحتفالات السنويّة، لذلك عندما عرض عليه السفر ليلة رأس السنة لم يتردد بالموافقة..

حطّت الطائرة على أرض المطار، والتصقت بالنفق المتحرك، وفتح بابها الأمامي ودخل رجال الأمن يتبادلون الحوار مع رجال أمن الطائرة، واصطف الطاقم يحيّي الركاب في الدرجة الأولى ودرجة رجال الأعمال، وهم يخرجون ومن بينهم قاسم أو (ياكوف أزرا)، تأمل موظف الأمن جوازه، وأبدى احترامه وهو يختمه بخاتم الوصول، وحين انتقل إلى قاعة استلام الأمتعة، وضع حقيبته على العربة، إضافة إلى الحقيبة الصغيرة التي يحملها واندفع خارجاً من المطار، لتتلقفه سيارات الأجرة التي استقل إحداها محدّداً عنوان المكان الذي يقصده..

كان فرق التوقيت وهو في اتجاه خط غرينتش ثم المتابعة إلى الشرق قد جعل وصوله نحو العاشرة مساء على متن طائرة ركاب متطورة هي البوينغ (٨٠٧).. راقب السيارة سأله السائق..

- هل أساعدك في إيصال الحقائب إلى الداخل ياسيدي؟

- لا.. شكراً، ليست ثقيلة إلى هذا الحدّ..

- ألا تحمل هاتفاً نقالاً؟ أستطيع أن أعيرك هاتفي للاتصال بأهلك أو بمن تأتي إليهم.. من أقارب أو أصدقاء..

- شكراً لك.. أنا وحيد.. ولي شقة مغلقة هنا..

- كأنني رأيت وجهك من قبل.. ماهو اسمك ياسيدي؟

- اسمي لن يعجبك يارجل.. اسمي (ياكوف أزرا)

- من إخواننا.. ذاهب إلى القدس..؟

- لا..سأقيم هنا، هل لديك مانع؟

رد السائق بخوف:

- لا ياسيدي..أنا آسف..

- تفضل أجرتك.. ولاتكن فضولياً أكثر من اللازم..

- شكراً لك ياسيدي أنا آسف..

انطلق الرجل بسيارته مرعوباً، وقد رأى الجديّة التي يتكلم بها قاسم.. كان من الواضح أن لاسمه تأثيراً كبيراً، وهو متأكد أن الكثيرين من الناس هنا سيعاملونه بكراهية لو عرفوا اسمه، لذلك يجب ألاّ يستخدمه إلا حين اللزوم.. حمل حقائبه متجهاً صوب المصعد..

لم يكن هناك أحد في الجوار.. وضع حقائبه في المصعد وضغط على أحد الأزرار، كما قالت له سالي، توقف المصعد وضربات قلبه تتلاحق متسارعة، أخرج الحقائب من المصعد وطرق الباب الذي على يمينه.. قبل أن يضغط الجرس..

انفتح الباب ليطل فتى صغير في الرابعة عشرة من عمره، رمقه بهدوء، كان يشبهه إلى حد بعيد انفجرت عيناه بالدموع ولم يدر كيف احتضنه يشمه ويقبله.. بصمت أبلغ من الكلام.. كأنّ الفتى كان مستعداً لذلك، إذ قابل عواطفه بلمسات أصابعه وقبلاته..

وحين خرجت سالي الأنيقة متوترة الأعصاب، ورأته وقاسماً الصغير في ذلك العناق الغريب، اندفعت إلى صدره، فتلقفها بحضنه إلى جانب الفتى.. وكان موقفاً صعباً، وسالي تدفعه ليدخل الباب، وهو يعانقها ويعانق قاسماً الصغير..

أغلقت خلفها الباب تنظر إليه تشمّه تقبله، غير مصدقة، لقد عاد إليها قاسم أخيراً، وستبذل كل طاقتها في حمايته من وشاية غادرة.. أو أعين شكّاكة ترتاب بكل شيء، هي أعين رجال الأمن والمخبرين..

- أمعقول ياقاسم؟ أنا لا أصدق نفسي، أنت هنا أخيراً..

- آه كم حلمت بهذا اليوم، أنت بخير ياحبيبتي، وابننا قاسم أصبح فتىً تعشقه العين، أين زهرة؟ أريد أن أراها..

تمالكت نفسها:

- آه ياإلهي كيف نسيت أن لك أختاً مشتاقة، لاأعرف لها مثيلاً، زهرة في المنزل المجاور لنا..

رن جرس الباب قالت:

- إنها هي أحسّت أنك وصلت..

وفعلاً كانت زهرة على الباب وقد فتح لها قاسم الصغير:

- أين أنت ياسالي؟

قال قاسم الصغير:

- لدينا ضيف ياعمتي.. جاء أبي..

صرخت زهرة:

- قاسم.. قاسم.. أخي قاسم..

ثم انفجرت بالبكاء:

- حمداً لله على سلامتك ياحبيبي.. ياإلهي أخي قاسم، إنه حيٌّ، آه ياإلهي، أمعقول بعد كل هذه السنوات..

- اهدئي ياأختاه، أنا بخير والحمد لله..

وعاد قاسم الصغير ومعه د. هاني وهاني الصغير:

- أحضرت الدكتور هانياً، وهانياً الآخر..

- كيف حالك يادكتور قاسم حمداً لله على سلامتك..؟

عانقه شاكراً ثم التفت إلى ابن أخته:

- هاني حبيبي، تعالَ إليّ..

قال الفتى:- حمداً لله على سلامتك ياخالو..

- شكراً لك ياحبيبي..

سهروا حتى الفجر وهم يتحادثون، ورغم أن هانياً همس لزهرة أكثر من مرّة أن تترك أخاها يرتاح وزوجته، إلا أنها كانت مصرّة على البقاء..

- لا أستطيع أن أفارقه، أنا غير مصدقة أنه بيننا بعد كل ماجرى له..

حدثهم قاسم كثيراً عن سنواته الصعبة، وعن أصدقائه جون وبيتر ولارا ومادلين ومايك.. حكى لهم الكثير حتى شعروا أخيراً بأن عليه أن يرتاح، وكان الفجر عندها قد ظهرت أولى خيوطه..

- أتعلمين يازهرة أن انتقالنا للقصر، واستمرار علاقتنا بسالي وزوجها الآن سيجعلهم تحت أنظار المخبرين ورجال الأمن؟ لذلك من الأفضل أن نكون حذرين في هذا.. منظمة البنائين الأحرار التي كان يعمل فيها قاسم، وهي التي أوصلته إلى (غوانتانامو) سلطاتها كبيرة هناك..

- تقصد أننا لن نختلط به وسالي كثيراً؟

- ياعزيزتي الوضع هناك يجعلنا لا نجرؤ على رؤيته إلاّ بحذر شديد، لأنهم لو عرفوه أو حتى لو ارتابوا بشخصيته فلن يتركوه ولا زوجته ولا ابنه.. وقد يحدث له ولأسرته ما لا تحمد عقباه.. كل أفراد العائلة المالكة كما قال لي الملك نفسه يفخرون بأنهم أعضاء في تلك المنظمة..

- ولماذا ننتقل إلى هناك؟ ماهي تلك الحياة الصعبة التي سنعيشها، معزولين عن العالم؟ آه ليتك تستطيع الاعتذار عن ذلك المنصب..

- آه ياعزيزتي، وهل أستطيع رفض أمر الملك؟ الرفض يعني عقوبة صارمة بحقي وبحقك وبحق هاني الصغير..من يجرؤ على ذلك؟

- ياإلهي أَكُتِبَ علينا الشقاء من جديد؟ كيف سنوضح لأخي قاسم أننا سننفصل من جديد؟ إنه يحتاج إلينا في التخطيط لحياته المقبلة.. ماذا سنفعل؟

- سنحكي له كل شيء، وبالتفصيل، سيتفهم موقفنا، وسيتخذ القرار المناسب، أنا واثق من ذلك.. إنها الخامسة والنصف، حاولي أن تنامي لساعة واحدة فقط..

- لقد ظلمتك معي بالسهر..لديك عمليات جراحيّة، كيف ستجريها وأنت لم تنم بعد.. حاول النوم بعض الوقت..

- لابأس ياعزيزتي، إنها عمليات تراكمت لأنني سأنتقل إلى القصر، حيث لاعمل لدي.. كثر عدد الذين يرغبون أن أجري جراحاتهم - وبعضها خطير- بسرعة قبل انتقالي.. الناس يثقون بي، سأحاول أن ألبّي نداءاتهم رغم صعوبتها.. فالعمليات أكبر من أن أستطيع إجراءها وحدي.. لذلك طلبت من العديد من زملائي معاونتي..

- مساكين أولئك الناس، لن يجدوك بينهم في الأيام المقبلة.. حاول أن تنام بعض الوقت، أرجوك ياهاني..

- سأحاول.. سأحاول ياعزيزتي..

حدثت نفسها بقلق:

- «يعلم الله ماتخبّئ لنا الأيام المقبلة من مفاجآت»

(٢١)

كان موعد زفاف عايدة على ولي العهد يقترب.. وهذا يعني أن انتقال هاني وأسرته الصغيرة إلى القصر قد أصبح وشيكاً.. وقد جلس هاني وقاسم بحضور زهرة وسالي، لمناقشة طبيعة المرحلة المقبلة من حياتهم..

كان أصدقاء قاسم في أمريكة قد رسموا له خطّة للحياة، وأسرته الصغيرة، بعيداً عن المتاعب فقد تمكنوا من الحصول على وكالة باسمه الجديد، لإحدى أضخم شركات الحاسوب.. وهذا يعني أن دخله سيكون مؤمّناً، ليحيا حياة كريمة..

وحين حكت له زهرة حكايتها مع (ديراك وهنا) في حفل زفاف عايدة على

ذلك الضابط الكهل قبل أكثر من سنة.. عرف أن حياته لن تكون بالسهولة التي كان يتوقعها وأصدقاؤه، فديراك يتبَوَّأ منصباً أمنياً كبيراً في القصر، وله عيون في كل مكان.. وينفذ تعاليم قادة البنائين الأحرار بالحرف.. ماذا لو ارتاب فيه وبسالي؟ ماذا لو اكتشف العلاقة بينه وبين أخته زهرة؟ لن يكون الأمر سهلاً بالتأكيد، قد تنفتح ملفّات كثيرة، شديدة الخطورة على حياة العديد من أصدقائه في أمريكة.. وعلى زهرة وهاني أيضاً..

كان الحل الممكن في رأيه هو العودة إلى أمريكة بصحبة زوجته وابنه، فهناك ستكون الرقابة عليه وعلى زوجته وابنه، وهو في اسمه الجديد، شبه معدومة؟ وربما عاش بمعونة أصدقائه حياة سهلة، خالية من المتاعب..

هكذا قرّر ببساطة، وهو يناقش جوانب الأمور مع هاني وزهرة وسالي، عليه الرحيل من جديد، ولكن بعد أن يؤمن جواز سفر لسالي ولقاسم الصغير..

ويبدو أنه لم يكن أمامهم خيار آخر.. وحين سأله هاني عن كيفيّة تدبير أمر جواز سفر زوجته وابنه تنهّد قائلاً:

- سأتصل بجون وأشرح له الوضع، لن يتأخر في مساعدتي..

- كيف يساعدك وهو هناك، وتحتاج سالي لجواز سفر من هذه البلاد أو من بلاد مجاورة؟

- لاتقلق من هذه الناحية، جون وأصدقائي هناك يعرفون كيف يتدبرون الأمر..

كان من الواضح أن الفراق قادم لامحالة، فراقاً طويلاً وربما إلى الأبد.. وهذا ماأتعس القلوب وزاد من أحزانها، وحين اتصلت هدى تذكّر زهرة

بموضوع تأجيل سفر أمينة عاماً آخر.. كانت زهرة في حالة يرثى لها من اليأس..

تكلّمت مع هاني تذكّره بالموضوع، وطلبت من هدى أن تزورها وأمينة.. وقد شعرت أنها مقصّرة بحقها، فلم تطمئن عليها كما يجب خلال الفترة الماضية بعد أن ترمَّلَت.. شغلها قاسم وعودته، كما شغلها موضوع الانتقال المفاجئ إلى القصر..

أتت هدى وبصحبتها أمينة، كانت شاحبة الوجه، متعبة زادها السواد الذي ترتديه بؤساً، وكانت أمينة لاتقل عنها حزناً، وبدت آثار ذلك في عينيها الحمراوين..

حكت لها زهرة قصة أخيها قاسم، وحكت لها أن الدكتور هانياً سيعمل في القصر طبيباً للملك، وسينتقلون للسكن داخل القصور الملكيّة. يعني أن تحركاتهم ستكون مقيّدة، وهذا ما أزعج هدى كثيراً..

- وبالطبع لم تكن هناك إمكانية برفض هذا العرض؟

- نعم ياهدى.. إنه أمر ملكي من يتجرأ على رفضه؟ الرفض يعني عقوبات كبيرة..آه.. بدأ العد التنازلي السريع للانتقال إلى هناك.. أشعر بقلق لا يوصف.. وهذا الانتقال حتّم على أخي قاسم الرحيل إلى مكان آخر.. لقد فرّقنا هذا الانتقال.. بل وآلمنا وأحزننا.. وماذا نستطيع أن نفعل سوى الرضوخ له؟

- أعانكم الله.. حتى الزيارات مرفوضة؟ ألا نستطيع زيارتكم؟ ألا تستطيعون القدوم إلينا ورؤيتنا؟

- لا أعرف الظروف الحقيقيّة هناك.. كل ما أعرفه أن حريتنا محدودة وتحتاج لأخذ موافقات أمنيّة..

واندفع هاني الفتى صوب هدى، وقد عاد من مدرسته بعد أن ودع رفاقه وأساتذته:

- كيف حالك ياخالة هدى؟

تلقفته في حضنها تبكي..

- بخير ياحبيبي..أمينة تنتظرك في المكتب.. أرجوك حاول أن تسري عنها مازالت حزينة ومكتئبة..

- لاتقلقي ياخالة.. سأسري عنها وأحاول إعادتها إلى طبيعتها..

- بارك الله فيك..

ماإن رأته أمينة حتى انفجرت بالبكاء:

- مازالت صورته أمامي وهو يمازحني.. كان رجلاً كثير المرح..

- إنها الحياة ياأمينة، ماذا نستطيع أن نفعل؟ فقد الناس أهلهم وأحبتهم إنه عصر بائس.. ليس فيه سوى الدمار والقتل.. يجب أن نصبر وليس لنا سوى الصبر..أرجوك ياأمينة اهدئي.. لدي خبر غير سار سأحكيه لك..

- ماذا تقول؟ غير سار؟

- سننتقل إلى مكان آخر، ولن نستطيع التجول بحريّة كما في السابق..

- ماذا تقول؟ ما الأمر..

- سأحكي لك..

(٢٢)

كان الوضع يزداد تعقيداً، وقد بدأت الاستعدادات لحفل زفاف عايدة على ولي العهد وكان هاني، متوتراً قلقاً.. مع اقتراب الموعد.. وقبل ساعات من الموعد، أرسل الملك بطلب الدكتور هانياً وزوجته وولده للانتقال إلى مكان إقامتهم الجديد..

وودعت زهرة، قاسماً وسالي والصغير وداعاً حاراً، وبكت على صدر أخيها الذي طمأنها أن كل شيء سيكون على مايرام..

وانتقل الموكب الحزين إلى القصر الملكي حيث اصطحب الخدم هانياً وزهرة وابنهما إلى (فيلا) أنيقة وسط حديقة جميلة، وكان هاني يجهز نفسه لليلة قد تكون من أتعس ليالي حياته..

لم يكن هناك مفرّ من حضور حفل الزفاف، الذي كان حفلاً صاخباً، شديد البذخ، اصطفت فيه الفتيات بألبسة فاقعة، وسيقان عارية وهنّ ينحنين للضيوف الذين أتوا من مختلف أنحاء العالم..

فرق فلكلوريّة، راقصات مشهورات، فرق موسيقيّة، مطربون، مطربات دوائر فرق ألعاب بهلوانيّة.. خدم يوزعون المشروبات الكحوليّة وغير الكحولية..

ومساهمة من بعض الدول، أرسلت فرقاً فلكلوريّة وراقصات مشهورات للمشاركة في حفل الزواج الذي صمم الملك أن يجعله حفلاً تحكي عنه وسائل الإعلام وتطنب في الحديث عنه فترة طويلة..

وهو في الحفل وزهرة وهاني الصغير، أشار الملك له أن يقف، وكانت طاولته قريبة من طاولة الملك الفاخرة وضيوفه، وحين وقف. أشار الملك لحاجبه الذي انتصب قائلاً وبيده ميكرفون:

- إن الدكتور هانياً الجراح الشهير هو أحد ضيوف شرف جلالة الملك في هذا الحفل، وهو طبيبه الخاص الذي عينه جلالته بقرار ملكي.. حيّوا معنا الدكتور هانياً، طبيب الملك الخاص..

كان التصفيق مدوياً، همست زهرة:

- إنها لفتة كريمة من جلالة الملك..

- وعليّ أن أردّ على هذه اللفتة بالذهاب إليه وشكره.. لن أغيب طويلاً..

وصل هاني وسط نظرات الناس المشرئبة نحوه إلى طاولة الملك الفخمة.. واقترب منه يحييه شاكراً لفتته الكريمة.. فقال له الملك هامساً:

- سنترك ولي العهد وعروسه اليوم، وسنقوم بإجراءاتنا غداً.. أنت على أهبَة الاستعداد بالطبع..

- أنا تحت أمر مولاي.. أيمكنني العودة إلى طاولتي؟

- نعم.. وفي الصباح سأراك في قاعة الاجتماعات الخاصة..

عاد إلى طاولته يجلس مع زهرة وقد تكاثرت عليه الهموم.. ولحظت زهرة وجومه فسألته عن السبب فأجابها بأنه لم يتعوّد بعد هذه الأجواء..

كانت في داخلها تعلم أن أمراً ما يؤرقه، وأنه لن يستطيع أن يحكيه لها.. وأنه أكبر من أن يحكيه كما خمنت.. فاحترمت صمته وتبادلت الحديث مع ولدها، معلقة على زوجات بعض الضيوف الذين يجلسون على طاولة الملك..

وشاركها هاني الصغير في التعليق الساخر، كان الفتى أيضاً غير مرتاح لهذه الأجواء الذي عدّها متكلّفة، مصطنعة..

وحين عادوا في فترة متأخرة إلى (فيلتهم) الأنيقة التي كثر فيها الخدم والحشم، تجولوا في حديقتها التي كانت فوّاحة الزهر، ورغم الأسرّة المريحة، لم يأتهم النوم إلاّ متأخراً.. كان الخدم قد رتبوا أغراضهم بعناية.. وكانت غرفة الفتى بعيدة عن غرفة والديه في الطابق الثاني، وغرف الخدم في الطابق الأرضي.. كان مسكناً هادئاً بعيداً عن الصخب، شبه هاني الصغير صمته بأنه صمت القبور..

في نحو العاشرة صباحاً، وكان هاني وزهرة وهاني الصغير يجلسون في الصالة الرئيسيّة بعد الإفطار.. أتى حاجب الملك يطلب الدكتور هانياً..

شدّت زهرة على يده مشجعة، حين خروجه، وهذا ماهدّأ قليلاً من توتره، وحين وصل قاعة الاجتماعات الخاصة برفقة الحاجب.. رأى أفراداً من الحاشية يجلسون حول الملك يتباحثون في أمور الدولة والسياسات الخارجيّة..

وكان من بينهم رئيس الوزراء الذي انحنى باحترام أمام طبيب الملك الخاص.. وقال الملك لهاني:

- نرغب أن تشاركنا في أحاديثنا وحوارنا أنت واحد منّا..

قال رئيس الوزراء:

- بالتأكيد هذا العالم النابغة له آراء سديدة في مواضيع كثيرة..

قال الملك:

- القوة العظمى أعطتنا الكثير من المنح، لنوزعها على المتفوقين. تريد منّ

أن نرسل هؤلاء إلى معاهدها ومراكز بحوثها.. وقد أخبرني وليّ العهد أن بعض علمائنا يتبوؤون مناصب كبيرة هناك..

قال هاني:

- نحن شعب يملك نسبة ذكاء عالية يامولاي..

قال رئيس الوزراء:

- نعم.. وكل من يذهب للدراسة في الخارج، يبدع بسرعة ويبتكر ويخترع ويقدم إنجازات كبيرة..

هز الملك رأسه موافقاً:

- معك حق يادكتور.. اطلب من جلالة الملكة الحضور أيها الحاجب، واستعدوا لإخلاء القاعة.. لدينا اجتماع مغلق شديد الأهمّية مع الدكتور هاني..

- أمر مولاي..

وجاء ولي العهد مع عروسه عايدة وسط موكب ضخم أشار إليها ولي العهد:

- تفضّلي ياأميرتي.. سلّمي على جلالة الملك..

- التحيّة لك والاحترام ياجلالة الملك الوالد..

- أهلاً بك أيتها الأميرة، اجلسي هنا إلى جانبي.. واقترب من مجلسي يادكتور هاني..

قال ولي العهد مخاطباً هاني:

- كيف حالك يادكتور؟ شرفتنا أمس وأسرتك..

رد هاني بارتباك:

- شكراً لكم..

ووسط هذا الصخب جاء موكب الملكة التي جلست على يمين الملك وقالت باستعلاء:

- لم يبدأ اجتماعكم بعد؟

قال الملك:

- نحن في انتظارك ياعزيزتي..

توجهت صوب هاني:

- كيف حالك يادكتور هاني.. لم يبق أحد غريب بيننا، يمكننا البدء إذن..

ثم تابعت تقول:

- يادكتور هاني، نحن نعلم أن تلقيحاً صناعياً ممكناً، ولكننا لانرغب في ذلك، نريد أن يكون التلقيح حميميّاً، مباشراً..

ورأت ارتباك هاني فقالت ساخرة:

- وجهك يحمَرّ خجلاً، لماذا؟ نحن نتناول هذه الأمور بكل صراحة.. ثم لا أحد غريب بيننا

وتابع الملك:

- سيكون اليوم لك، ستتفرّغ فيه للأميرة عايدة، وكل شيء يجري بسريّة مطلقة..

اعترض هاني:

- دون زواج؟ أنا رجل مؤمن يامولاي..

- لابأس يمكننا أن نزوجك إياها ليوم واحد، ثم تطلقها، إن كنت مصرّاً على ذلك

- نعم..أرجوك يامولاي.. مادام ليس أمامي خيار..

- لابأس، سنحضر شيخاً يقوم بهذه المهمة.. سيطلقها ولي العهد ثم تتزوجها مادمت مصرّاً على ذلك..

رأى نفسه كالمخدر يضع يده في يد عايدة، والشيخ يقرأ ويبسمل ويدعو.. وحين خرج الشيخ، رأى هاني الملك يشير إلى الحاجب إشارة خاصة، عرف منها أنه أعطاه أمراً بقتل الشيخ لدفن سرّه معه.. فشعر بالرعب، أيمكن أن تطبق عليه هذه القاعدة هو أيضاً؟ ولكن لطف عايدة وكياستها وإظهارها الحبّ المبالغ به له، والتعبير عن رغبتها بولد من صلبه، جعله كل ذلك يمضي ليلته بنجاح، وقد كان خائفاً ألا يستطيع أن يعمل شيئاً في ليلة زواجه المؤقت..

وهمست إليه عايدة بعد أن قارب الفجر على الانتهاء..

- كانت ليلة سأظل أذكرها ماحييت، لا أكتمك أن كأس العصير الذي شربته حوى بعض المقويات..

- وإذا لم يتم الإلقاح اليوم؟

- الذي وضع هذا التوقيت هو طبيبي الخاص، على أساس أن ولي العهد هو الذي سيقوم بالدور بالطبع..

- إذن كل شيء كان مرسوماً بدقة.. هل انتهت مهمتي الآن؟

- أعتقد ذلك.. وكنت رائعاً.. شكراً لك يادكتور.. أشعر أن شيئاً يتحرك في

داخلي، أشعر أن المهمة أديت على أكمل وجه.. سأحكي مع سمو ولي العهد.. سيعود زوجي كما كان..

ضغطت على أزرار الهاتف:

- آلو..حبيبي.. كل شيء على مايرام..

رد ولي العهد من الطرف الآخر:

- حسناً سننتظر عدة أيام ثم نكمل الخطّة..هل هو بخير؟

- قضى أجمل الليالي في حياته.. إنه سعيد جداً.. تعال إلي ياحبيبي..

- أنا قادم حالاً..

خرج هاني وهو يشعر بتعب فظيع.. وقد غاب عن زهرة يوماً كاملاً، استقبلته وهي تبكي، وقد أشعرها غيابه بقلق مرعب.. رغم أنهم قالوا لها: إنه في جناح الملك يمارس دوره كطبيب خاص، وإن اليوم استثنائي، وقد لايتكرر.. أي إن هانياً لن يغيب بعد ذلك إلاّ نادراً..

نام هاني.. عدة ساعات.. وحينما استيقظ وجد زهرة إلى جانبه تحدّق فيه بحنان وقد بدت آثار الدموع في عينيها..

طمأنها إلى أنه بخير.. وأن كل شيء سيكون على مايرام.. وهكذا ظلاّ معاً في البيت لعدة ساعات قبل أن يعود هاني من مدرسته وهو يحمل شهادة تفوق جديدة.. كان غير مرتاح للمدرسة من حيث نوعية طلابها غير المبالين، ولكن الأساتذة كانوا متفوقين ممتازين كما وصفهم هاني..

أتى من يصطحبهم في المساء في جولة في القصور الملكيّة، ثم تناولوا العشاء بدعوة من أحد الوزراء.. وحاولت زهرة الاتصال بسالي.. ولكنها وجدت

خطّها مغلقاً.. وحين سألت ممثل ديوان التشريفات عن عملية الخروج والدخول من الحرم الملكي اعتذر منها قائلاً:

- الأمر يحتاج لموافقة مسبقة.. بالطبع لو قدمت طلباً للخروج لَن يعترضك أحد، ستذهبين بالسيارة المخصصة لكم مع سائقها الخاص..

كان من اللازم أن تمر عليهم عدة أيام قبل أن يطلب أحدهم إذناً للخروج من الحرم الملكي..

(٢٣)

ولكن تلك الأيام، كانت شديدة السواد والظلمة.. فبعد أن تأكد الملك وولي العهد أن عايدة قد أصبحت حاملاً فعلاً.. أعطيت الأوامر بسرية مطلقة..

الجراح الشهير الذي أنقذ مئات الناس من موت محقق، والذي كان الجميع خارج القصر الملكي يحبونه ويحترمونه.. قد مات.. كما قتلت حقنة مسكّن زوجته وسط حزن عميق خيم علىٰ القصور الملكيّة والبلاد بأكملها..

عاد هاني الصغير من مدرسته ليجد جنازة فخمة قائمة ورجال كبار يقومون بالمراسم باحترام وتبجيل.. لم يصدق أن أباه مات، وأن أمه ماتت من حزنها عليه.. كان الوضع أقسى من أن يحتمل..

وفي حضن هدى الباكي وجد نفسه، ومراسم الجنازة تجري باحتفال مهيب لدفن الدكتور هاني وزوجته في المقابر المخصصة لحاشية الملك..

وبين السحب في اتجاه الأرض الجديدة أرض القوة العظمى، كانت

الطائرة تحمل قاسماً وزوجته وابنه، ياكوف أزرا واستير وديفيد.. أسماء فتحت لنفسها طريقاً ليس فيه أية متاعب وصعوبات..

وكان في استقبالهم جون وبيتر ولارا ومادلين ومايك.. العائلة التي شعر قاسم أنه ينتمي إليها فعلاً.. وصعقه الخبر الذي أذاعته السي إن إن CNN عن وفاة الجراح الشهير هاني وزوجته داخل منزلهما وسط مظاهر الحزن العام، وتنكيس الأعلام لثلاثة أيام في تلك المملكة الشرقية..

أما هاني فاحتضنته هدى بعيداً عن تلك القصور الفارهة، لتربيه وأمينة، وفي قلبها حزن لايوصف على رجل رفَّعَه الملك ليموت بعد أيام مع أطهر مخلوقة على وجه الأرض، زهرة، التي ستظل ذكراها في قلب ولدها، حيّة نابضة..

وعجلة الزمن تدور وتدور في قرن بدأ بالعنف، واستمر العنف يتزايد مع طغيان قوة عظمى جبارة استعبدت الدول والبشر، وعاثت في الأرض فساداً، حتى أتت مراحل انهيارها البطيء..

☆ ☆ ☆

تحيات
علي مولا

سلسلة روايات الخيال العلمي
المنشورة في دار الفكر للدكتور طالب عمران

١- ابن الغابة
٢- بوابة خان الخليلي
٣- التحول الكبير
٤- رجل من القارة المفقودة
٥- رواد الكوكب الأحمر
٦- الزمن الصعب
٧- زمن القبعات المنتفخة
٨- شفافية أشبه بالصدى
٩- عوالم من الأمساخ
١٠- فضاء واسع كالحلم
١١- ليس في القمر فقراء
١٢- النفق

تحت الطبع

١٣- الظلال الأخرى
١٤- في كوكب شبيه بالأرض
١٥- البدائل المذهلة
١٦- مثلث الأسرار
١٧- البحث عن عوامل أخرى
١٨- امرأة من عالم مختلف
١٩- الأصابع السحرية
٢٠- حورية البحر
٢١- في ليل الصحراء الغامض
٢٢- أمومة لا تعرف اليأس

* * *

DARK TIMES

The First Arab Novel on Science Fiction

Al-Azmān al-Muẓlimah

Awwal Riwāyah 'Arabiyah min al-Khayāl al-'Ilmi

Dr. Ṭālib 'Umrān

هذه إحدى روايات الخيال العلمي الساخنة التي عني بها مؤلفها عناية خاصة، فاستوحاها من الأحداث المؤلمة التي يمر بها العالم اليوم، يستشفها الكاتب بطريقة مثيرة يمتزج فيها الخيال بالواقع، وتحكي عن هموم الإنسان وخوفه من المستقبل وسط عالم مضطرب يسود فيه جبروت الطغيان؛ وذلك للوصول إلى فوائد علمية وأدبية وتربوية.. في حبكة مشوقة تثير لدى القارئ الفكر والتأمل، وتمده بالمتعة في القراءة.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel:(412)441-5226
Fax:(775)417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-59239-119-2
9 781592 391196

SROUR ALWANI 2002